انتفاضة الأقصى وتفجر الحل العنصرى لفلسطين



دار المستقبل العربي



أحمد صدقي الدجاني

انتفاضة الأقصى وتفجر الحل العنصري لفلسطين

انتفاضة الأقصى وتفجر الحل العنصري لفلسطين

تأليف : **دكتور أحمد صدقي الدجاني**

الطبعة الأولى ٢٠٠١

الغلاف : **هشام بهجت عثمان**

الناشر: دار **المستقبل العربى**
٤١ شارع بيروت . مصر الجديدة . القاهرة.
ج.م.ع. هاتف ٢٩٠٤٧٢٧

رقم الإيداع بدار الكتب المصرية ٢٢٣٨ / ٢٠٠١
الترقيم الدولي I.S.B.N. 977 - 239 - 174 - 0

انتفاضة الأقصى وتفجر الحل العنصري لفلسطين

تأليف

د . أحمد صدقي الدجاني



دار المستقبل العربي

محتويات الكتاب

مقدمة

«انتفاضة الأقصى وتفجر الحل العنصري لفلسطين» كتاب آخر يصدر في مقاومة الحل العنصري لقضية فلسطين. هذا الحل الذي يحاول التحالف الاستعماري الصهيوني (الامريكي الاسرائيلي) فرضه على أمتنا في الدائرة العربية وفي دائرة الحضارة الاسلامية عبر عملية تسويةٍ اطلق عليها اسم «سلام الشرق الأوسط»، وباشر السير فيها منذ مؤتمر مدريد يوم ١٩٩١/١٠/٣٠ في أعقاب زلزال الخليج.

كنت أصدرت آخر عام ١٩٩٤ كتاب «لا للحل العنصري في فلسطين – شهادة على مدريد واوسلو» بيّنت فيه خطوط هذا الحل العنصري ولماذا نرفضه. ثم أصدرت بعد أربعة أعوام في مطلع عام ١٩٩٩ كتاب «أزمة الحل العنصري لفلسطين وسبيل تحريرها» عرضتُ فيه ما انكشف على أرض الواقع من أزمة يعانيها هذا الحل ودعوت إلى «الاعتصام بالمقاومة» التي هي سبيل التحرير. وأصدرت في خريف عام ٢٠٠٠ كتاب «الخطر يتهدد بيت المقدس» الذي ركّزت فيه على قضية القدس وشرحت خطط العدو لاغتصابها ومحاولة الرئيس الامريكي كلينتون تكريس الاحتلال الاسرائيلي لبيت المقدس واغتصاب المقدسات المسيحية والاسلامية فيها، وما حدث من صمود في مواجهتها فلسطينياً وعربياً واسلامياً. وكنت قبل هذه الكتب الثلاثة قد أصدرت عام ١٩٩٢ كتاب «في مواجهة نظام الشرق الأوسط» الذي أوضحت فيه مخطط اقامة هذا النظام الاقليمي الذي وضعته الولايات المتحدة الامريكية وأعطت الكيان الاسرائيلي الصهيوني العنصري دور القيادة فيه، وناديت مع صفوة من مفكرينا بمقاومته.

يأتي صدور هذا الكتاب في مطلع عام ٢٠٠١ الميلادي، شوال ١٤٢١ الهجري، في الشهر الرابع لانتفاضة الأقصى التي بدأت يوم ٢٠٠٠/٩/٢٨ وأحدثت تفجراً في الحل العنصري. وقد ضمّنت الكتاب ما كتبته منذ مطلع عام ١٩٩٩ في معالجة تطورات الصراع العربي الصهيوني، وفيما يخص عملية التفاوض حول ما سمي بقضايا الوضع النهائي الأربعة: القدس واللاجئون والمستوطنات والحدود (أرضاً ومياهاً)؛ ثم انتفاضة الأقصى وتفاعلاتها وتداعياتها.

يضم الكتاب ثلاثة أبواب يختص الأول منها بقراءة للصراع العربي الصهيوني عبر قرن بطوله، ويتناول «المشروع الحضاري العربي في مواجهة المشروع الصهيوني». وقد كتبته استجابة لرغبة كريمة من أخي الاستاذ الحكم دروزة رئيس تحرير مجلة «شؤون عربية». أما الباب الثاني فهو بعنوان «قضية فلسطين وعام خاص» وقد كتبته منجّماً وتناولت فيه تطورات الصراع. و«العام الخاص» هو ذلك العام الذي بدأ مع ربيع عام ١٩٩٩ بعد بضعة شهور من زيارة قام بها الرئيس الأمريكي كلينتون للكيان الاسرائيلي ولغزة وبيت لحم، وقد حفل ذلك العام بأحداث لها تأثيرها على مجرى الصراع، وبقضايا تطلبت المعالجة تتصل بما سمي بالوضع النهائي. وكان تحرير جنوب لبنان أبرز هذه الأحداث كما كانت قضيتا القدس واللاجئين من أهم هذه القضايا. وكان تحرك الرئيس الامريكي كلينتون لإكمال ملامح التسوية وفرض الحل العنصري ايذاناً بما اصطلحت على تسميته «العام الخاص» في قضية فلسطين. ويتصل هذا التحرك بسعي قوى الهيمنة في الولايات المتحدة الأمريكية «لعولمة» عالمنا. وهذا ما دعاني إلى وضع هذا الباب في كتابي عرب ومسلمون وعولمة الذي صدر في خريف عام ٢٠٠٠م، مع ابواب كثيرة أخرى. وأما الباب الثالث في كتابنا هذا فعنوانه «انتفاضة الأقصى».

بصدور هذا الكتاب أكون قد استكملت معالجة تطورات الصراع العربي الصهيوني على مدى عقد من السنين بين عامي ١٩٩١ و٢٠٠١، طوال مرحلة دقيقة من مراحله تلت زلزال الخليج، وكانت لها سماتها. ودلائل كثيرة تتالت مؤخراً تشير إلى أن هذه المرحلة آذنت بالانتهاء، لتبدأ مرحلة جديدة في هذا الصراع الممتد الذي لابديل فيه

عن تحرير فلسطين والقدس. وقد باشر الفكر العربي تشوّف متطلبات هذه المرحلة. ولعل القارىء الكريم يجد في هذا الكتاب إسهاماً في تشوف هذه المتطلبات.

لقد عدت، وأنا أهيىء الكتاب للطبع، إلى مراجعة ما جاء في سابقيه، وما سجلته في المقدمات، فتأكد لي الدور الكبير الذي يتحمل «الفكر» مسؤولية القيام به تحليلاً للواقع القائم بغية إحسان فهمه واستشرافاً للمستقبل لتشوف ما ينبغي عمله ولبلورة رؤية تمكّن من صنعه. ولفتني أن «بصيرة زرقاء اليمامة» مكنّت من التنبيه المبكر لمخاطر عملية التسوية «سلام الشرق الأوسط»!! ولما يمكن أن يتمخّض عنها من حلٍ عنصري لقضية فلسطين. كما لفتني أن الشعارات التي رفعها المقاومون لهذا الحل العنصري عمّت وفرضت نفسها بمصطلحاتها حتى على أصحاب الاجتهاد الآخر.

العنوان الذي يحمله هذا الكتاب برز أمامي تلقائياً. وقد جاء تقديم «انتفاضة الأقصى» فيه على «تفجر الحل العنصري لفلسطين» لأن الانتفاضة فعلٌ وما أحوجنا في المرحلة الجديدة من الصراع إلى الفعل، ولأن هذا الفعل المبارك أدى إلى تفجر الحل العنصري. وهو تفجر أصاب مخطط نظام الشرق الأوسط الاستعماري الصهيوني بضربة على أم رأسه أفقدته الوعي. ويبقى أن تتابع الأمة مع الانتفاضة معركة «إنهاء الحل العنصري لفلسطين»، لتصل إلى الحل العادل الشامل القائم على التحرير الكامل لفلسطين المتصف بالديموقراطية الشورية المستلهم لحضارتنا العربية الاسلامية، الذي ينقذ اليهود من براثن الصهيونية العنصرية ويضمن لهم اذا نبذوها وعاشوا مستأمنين «المواطنة» في البلاد التي ينتمون إليها ويكون لهم في دائرتنا الحضارية مالنا وعليهم ما علينا، كما كان عليه الوضع في ظل حضارتنا العربية الاسلامية مع الاقوام والملل الذين اسهموا في ازدهارها.

نسأل الله أن يأخذ بأيدي أهلنا في وطننا المحتل فلسطين بنواحيه كلها كي يتابعوا انتفاضة الأقصى حتى تبلغ هدفها المرحلي، وأن يأخذ بأيدي أبناء أمتنا قاطبة للانتصار في معركة تحرير المقدسات المسيحية والاسلامية في القدس وفلسطين وانهاء الحل العنصري واقامة السلام القائم على العدل القادر على أن يستتب.

يبقى أن أشكر أخي الاستاذ/ محمد فائق وأسرة دار المستقبل العربي على عنايتهم باخراج هذا الكتاب منوهاً بجهود الدار في نشر الوعي بقضايا الأمة وقضية فلسطين. كما اشكر ابننا الباحث أ. أمجد أحمد جبريل على عونه في تصحيح الكتاب ومتابعة اصداره.

والله ولي التوفيق

أحمد صدقي الدجاني

مطلع عام ٢٠٠١م، شوال ١٤٢١هـ

الباب الأول

المشروع الحضاري العربي في مواجهة المشروع الصهيوني

المشروع الحضاري العربي في مواجهة المشروع الصهيوني

١- تقويم حصاد قرن

مدخل

مواجهة «المشروع الصهيوني الاستعماري الاستيطاني العنصري» الذي استهدفت دول الهيمنة الغربية به أمتنا العربية منذ قرن ونيِّف، هي واحدة من أبرز حقائق تاريخ العرب في القرن العشرين الميلادي. ويتناول هذا الحديث بالنظر «المشروع الحضاري العربي في مواجهة المشروع الصهيوني»، وذلك في إطار وقفة تفكُّر في أحوال «الأمة العربية على مشارف القرن الحادي والعشرين الميلادي» دعت إلى القيام به مجلة «شؤون عربية» مجموعة من المفكرين العرب، ونصب عينها محاولة الاجابة عن السؤال التالي «ماذا تريد النخبة من مفكري الأمة العربية أن تقول لأجيالها على عتبة الألفية الثالثة: تقويماً لحصاد القرن العشرين، واستقراءً للواقع الراهن، واستشرافاً للمستقبل الآتي؟».

يستشعر كاتب هذا الحديث بداية، وهو اليوم جاوز الستين، عظم مسؤولية التحدث للأجيال الجديدة، ويتحسب من أن تؤثر خصائص جيل الشيوخ ومزاجه على الحديث، وأن يتأثر هذا الحديث أيضاً بوطأة أحداث اللحظة الراهنة التي يسبب كثير منها احباطاً. ويحرص من ثم على توخي الموضوعية ما استطاع واستحضار أحداث القرن أثناء عيش اللحظة الراهنة. ومعلوم أن معاني «الجيل» في المعجم الوسيط «فترة ثلث قرن». وهذ يعني أن القرن العشرين الميلادي شهد تتابع ثلاثة أجيال عربية. ويمكن، ونحن نستحضر أحداثه، تقسيمه إلى ثلاث فترات تسهيلاً للبحث. وإن لنا في ضوء ما سبق أن نتناول في حديثنا لأجيالنا الجديدة تقويم حصاد قرن مضى، ونمهد له باستذكار كيف

تبلور المشروع الحضاري العربي في مواجهة المشروع الصهيوني. ونرجو أن نتابع في حديث آخر النظر في واقع أمتنا العربية الراهن، وتبين ما يمكن عمله لتحقيق أهداف الأمة من خلال إستشراف المستقبل.

المشروع الحضاري بأهدافه

المشروع الحضاري لأمة هو ثمرة تفاعل أبنائها مع واقعهم، وسعيهم لتطوير هذا الواقع، بلوغاً لأهداف قاموا ببلورتها ووضعوا تحقيقها نصب أعينهم. وهذه البلورة تتم من خلال مسيرة جهاد ونضال وكفاح، تشهد حواراً متصلاً في المجتمع بين مختلف تياراته الفكرية وشرائحه الاجتماعية. وتتعلق هذه الأهداف بحياة الناس وأحلامهم في ضوء ما يعيشونه ويعانونه ويأملونه.

حين بدأ القرن العشرون الميلادي الموافق الرابع عشر الهجري، كانت أمتنا قد بلورت هدف مقاومة الاستبداد على صعيد الحكم بعد أن عانت من ويلاته الكثير، وبخاصة في القرنين السابقين. وتطلعت إلى تحقيق الشورى في الحكم وتعرفت خاصتها على الديموقراطية في الغرب ودعت إلى احترام كرامة الانسان الذي كرّمه خالقه. وكان جهد عبد الرحمن الكواكبي، الذي انتقل إلى رحمة الله في أوائل القرن، في التنديد بالاستبداد في كتابه «طبائع الاستبداد»، واحداً من جهود سلسلة زعماء الاصلاح في القرن التاسع عشر. وكانت أمتنا قد بلورت هدف مقاومة الظلم الاجتماعي مع مقاومتها الظلم السياسي، وتطلعت إلى تحقيق العدل السياسي والاجتماعي، مستلهمة ما جاء به الوحي في سورة قريش «إطعام من جوع، وأمن من خوف». ومع هذين الهدفين بلورت الأمة هدف مقاومة الجمود والتقليد، وتطلعت إلى تحقيق التجدد الحضاري والتقدم والارتقاء لتلحق بركب من سبقوها في مضمار ثورة العلم التقني. وقد رفع زعماء الاصلاح لواء «الاجتهاد» عالياً وتتالت الكتابات الداعية إليه. كما دعوا إلى تحقيق الكفاية من خلال الاعتماد على النفس مستشهدين بقول الله تعالى **﴿إن الله لايغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم﴾**.

هدفان آخران بلورتهما الأمة مترابطان، أولهما هدف تحرير أقطار الوطن العربي التي نجح الغزو الاستعماري الغربي في احتلالها وفصلها عن شقيقاتها الأقطار الأخرى باقامة حدود سياسية لها. وقد شهد العقد الأول من القرن العشرين استمرار الموجة الاستعمارية الثانية التي بدأت عام ١٨٨١ باحتلال تونس. وقد سبقتها الموجة الأولى

التي بدأت عام ١٨٣٠ باحتلال الجزائر. ثم شهد انعقد الثاني من القرن العشرين الموجة الاستعمارية الثالثة التى استهدفت بلاد الشام والعراق، واكتمل بها احتلال أقطار الوطن العربى. والهدف الآخر هو توحيد هذه الأقطار التي فصل بينها الاستعمار حين جزأ الوطن الواحد.

هذه الأهداف جميعها كانت مترابطة تتبادل التأثير فيما بينها، فكل منها يتأثر بالآخرين ويؤثر، حتى أن البعض آثر أن يطلق عليها مجتمعة «هدفاً مركباً»، ومنهم عبد الله الريماوي.

لقد شهد القرن العشرون ارتفاع شعارات تعبِّر عن هذه الأهداف تضمنت مصطلحات تدل على كل منها. فشعار «الجلاء» يدل على جلاء قوات المستعمر المحتل، ومعه شعار «الاستقلال»، وأحياناً كانت تضاف إليه كلمة «التّام» لقطع الطريق أمام محاولة المستعمر الاحتفاظ بقواعد عسكرية، ومعه شعار «التحرير» الذى شاع بعد تدفق موجات التحرير في أعقاب الحرب العالمية الثانية ورفعته حركات التحرر الوطني في عالمنا. وشعار «الوحدة» يدل على توحيد أقطار الوطن العربي الكبير. وهذه الوحدة مطلوب أن تكون «فورية» أحياناً عند البعض، و«مدروسة» أحياناً عند آخرين، ثم «متدرجة» تتحقق من خلال «ايجاد الحقائق الوحدوية». وهي أحياناً «وحدة صف»، وأحياناً «وحدة هدف»، ودائماً تقترن بهدف التحرير. «فالتحرير طريق الوحدة» أو «الوحدة طريق التحرير». وشعار «العدل» هو أحياناً «عدالة اجتماعية» وأحياناً «اشتراكية». وهذه توصف مرة بأنها «عربية» وأخرى بأنها «اسلامية» وثالثة بأنها «ماركسية». وشعار «الديموقراطية» يدل على العدل السياسي الذى يقاوم ظلم الاستبداد ويحرص على كرامة الانسان. وهو يصبح أحياناً عند البعض «ديموقراطية شعبية» ليشير إلى اقتصاره على «قوى الشعب العامل» وعزل من عداهم بمنطق المدرسة الماركسية. ويتمسك التيار الاسلامي بمصطلح «الشورى» بمفهومها القرآني، بينما يتحسّب من هذا المصطلح من يصفون أنفسهم «بالليبراليين» المتأثرين بالفكر الغربي، وكذلك بعض مثقفي منطقة الخليج، وذلك كردّ فعل على استخدام هذا المصطلح للدلالة على مجالس يجري تعيينها بعيداً عن الانتخاب. وشعار تحقيق الكفاية يدل على زيادة الانتاج، وهو الذي استخدم مؤخراً مصطلح «التنمية». وشعار التجدد الحضاري يدل على تجديد الفكر ورفض التقليد واعتماد الاجتهاد. ومع هذه الشعارات ترددت كلمات «الجهاد» و«الكفاح» و«النضال».

هذا المشروع الحضاري العربي كان لايزال، في مطلع القرن العشرين في آخر أيام الدولة العثمانية، جزءاً من المشروع الحضاري الاسلامي الذي بلورته دائرة الحضارة الاسلامية. وقد غدا بعد الغاء الخلافة العثمانية وبروز الدولة القطرية العربية مختصاً بالدائرة العربية. وكان عليه أن يواجه المشروع الاستعماري الأوروبي الذي استهدف الوطن العربي، والجانب الأخطر في هذا المشروع وهو المشروع الصهيوني الاستعماري الاستيطاني العنصري الذي تبنته الحركة الصهيونية في الغرب وأوجدته قوى الهيمنة الاستعمارية الغربية ودعمته. وقد أعلن هذا المشروع صراحة، منذ المؤتمر الصهيوني الأول في بال عام ١٨٩٧، عزمه على اغتصاب فلسطين في قلب الوطن العربي واقامة دولة يهودية في الأرض العربية من النيل إلى الفرات.

(١) الثلث الأول من القرن العشرين

في تقويمنا لحصاد القرن العشرين على صعيد مواجهة المشروع الحضاري العربي للمشروع الصهيوني، نستحضر أحداث الثلث الأول من القرن، وما قام به الجيل العربي الذي عاش تلك الأحداث. ويلفتنا أن هذا الجيل كان يعمل على عدة خطوط في وقت واحد لتحقيق أهداف المشروع الحضاري. فهو يقاوم الاستبداد، ويسعى إلى معالجة الضعف الداخلي الذي عانى منه المجتمع والدولة على حد سواء، وذلك بتحقيق نهضة تعليمية والدعوة للعناية بالعلم وتطبيقاته، وبتأسيس الجمعيات الأهلية لمختلف الأغراض وللعمل الاجتماعي بخاصة. وهو في الوقت نفسه يواجه الغزوة الاستعمارية الأوروبية التي بانت أطماعها. وهو معني بالنهوض الفكري والثقافي. وقد تنبّه بعض خاصة هذا الجيل إلى بروز الخطر الصهيوني، وأدركوا خطورة المشروع الصهيوني الذي بدأ تنفيذ خططه لاغتصاب فلسطين بتهجير يهود من أوروبا الشرقية إلى فلسطين، والاحتيال للاستيلاء على أراض يقيمون فيها مستعمراتهم الاستيطانية. وارتفعت أصوات عربية تحذر من هذا الخطر ومنها صوت نجيب عزوري في كتابه يقظة الأمة العربية الذي صدر عام ١٩٠٥.

واجه هذا الجيل حدثاً خطيراً في آخر العقد الأول من القرن العشرين هو خلع السلطان عبد الحميد الثاني، وتولي الاتحاديين قادة جمعية الاتحاد والترقي زمام الأمور في استانبول (عام ١٩٠٩)، وانتهاجهم سياسة التتريك، وتساهلهم مع الصهاينة الذين زادوا من «تسللهم» إلى فلسطين. ثم لم يلبث هذا الجيل أن واجه حدثاً أخطر هو نشوب

الحرب العالمية الأولى بين قوى الهيمنة الأوروبية الاستعمارية ودخول الدولة العثمانية فيها، وفرض الحماية البريطانية على مصر، وابرام بريطانيا وفرنسا اتفاق سايكس – بيكو عام ١٩١٦ الذي يقضي بتقاسمهما أقطار الشام والعراق، ودخول قواتهما تلك الأقطار قبل نهاية الحرب عام ١٩١٨، وانعقاد مؤتمر الصلح في فرساي بفرنسا منذ عام ١٩١٩ واتفاقات الإملاء التي أملاها على المهزومين ومنهم الدولة العثمانية، وتجزئة هذه الدولة، وتقاسم أقطارنا العربية، وفرض انتداب دول الهيمنة على هذه الأقطار باسم منظمة عصبة الأمم التى أوجدوها ليكون هذا الانتداب غطاء للاستعمار، وقيام مصطفى كمال «أتاتورك» بالغاء الخلافة عام ١٩٢٤، ومباشرة بريطانيا، الدولة التى استعمرت فلسطين باسم الانتداب، تنفيذ مخططها اقامة دولة يهودية في فلسطين، الذي جاء في تصريح وزير خارجيتها آرثر بلفور يوم ١٩١٧/١١/٢ وضمّنه صك انتدابها على فلسطين عام ١٩٢٢.

كان هذا الجيل العربي يعمل لتحقيق المشروع الحضاري عند مطلع القرن في نطاق تبعيته «العثمانية» داعياً إلى اللامركزية والاصلاح، وساعياً إلى احترام الحقيقة القومية في إطار الجامعة الاسلامية. ولم يلبث، بعد وقوع حدث سيطرة الاتحاديين الاتراك على الحكم في الدولة العثمانية، أن ركّز على الحفاظ على انتمائه القومي العربي في مواجهة سياسة التتريك التي كان من تداعياتها نشوب ثورة الشريف حسين عام ١٩١٦. ثم واجه هذا الجيل العربي واقعاً جديداً، بعد زلزال الحرب العالمية الأولى، على صعيد الحكم في أقطار المشرق العربي الذي تحكمت فيه بريطانيا وفرنسا وفقاً لاتفاقهما في سايكس – بيكو. وكان المغرب العربي يعاني استعماراً فرنسياً للجزائر وتونس والمغرب على التوالي، بينما استعمرت ايطاليا ليبيا. وتابعت بريطانيا استعمار مصر والسودان وعدن والخليج.

لقد حفظت الذاكرة التاريخية العربية ما اقترفته قوى الهيمنة من جرائم وآثام إبان استعمارها أقطار الوطن العربي. فقد نهبت ثروات هذه الأقطار، وفرضت على شعوبها العربية أن تنتج ما لاتستهلك وتستهلك ما لا تنتج في تبعية اقتصادية لها. وعمدت إلى فصل الدائرة العربية عن بقية أقطار دائرة الحضارة الاسلامية. وأنزل الحكم الاستعماري أشد أنواع الظلم بالناس. ومكّنت بريطانيا المشروع الصهيوني من تهجير يهود أوروبيين إلى فلسطين ليكونوا مستعمرين مستوطنين فيها.

حفظت الذاكرة التاريخية العربية أيضاً اشتداد مقاومة الشعوب العربية للاستعمار الأوروبي، وتجلت هذه المقاومة في صور عدة، أبرزها الجهاد ضدّ الاستعمار في انتفاضات وثورات. وما أعظم البطولات التي تجلت في كل قطر لشبانٍ وشيبٍ ونساءٍ ورجال، وبطولة الشيخ الجليل عمر المختار واحدة منها. كما كان من بين صور المقاومة مقاطعة المستعمر ووقوف المجتمع الأهلي في مواجهته داعماً للجهاد المسلح. ومع أن تجزئة الوطن الكبير فرضت أن تكون المقاومة قطرية إلا أن التجاوب بين المقاومين في مختلف الأقطار كان قوياً. وهذا ما يفسر تزامن الانتفاضات والثورات في أكثر من قطر. وفرضت هذه المقاومة على المستعمر أن يطرح استقلالاً منقوصاً كان بداية بروز الدولة القطرية العربية.

هكذا قامت في مطلع العشرينات المملكة المصرية، ثم المملكة العراقية، وأعلن عبد العزيز بن سعود نفسه ملكاً على أنحاء الجزيرة العربية التى وحّدها، واستمر اليمن «إمامة»، وقامت امارة شرق الأردن، وحكومة في سورية وأخرى في لبنان تحت هيمنة الاستعمار الفرنسي، وبقيت فلسطين هدفاً لاستعمار استيطاني صهيوني احلالي تقوم على تنفيذه بريطانيا التى تستعمرها باسم الانتداب والحركة الصهيونية العنصرية. وهذه الأقطار هي التى تجمعت في جامعة الدول العربية عام ١٩٤٥.

بينما كان الصراع محتدماً بين قوى الهيمنة الاستعمارية ومقاومة شعوبنا لها طوال العشرينات، احتدم الصراع بين قوى الهيمنة الاستعمارية بعضها ببعض في دائرتها الحضارية الغربية. وأدى هذا الصراع إلى بروز الفاشية في ايطاليا والنازية في ألمانيا وتراجع الديموقراطية في بقية الأقطار الأوروبية. كما أدى على الصعيد الاقتصادي إلى أزمة اقتصادية طاحنة بين عامي ١٩٢٩ و١٩٣٣ كانت لها آثار عالمية، ومضاعفات على صعيد المشروع الصهيوني.

ذلك أن التحولات التي جرت في أوروبا، وألمانيا بخاصة التي تعرضت لإذلال املاءات مؤتمر الصلح في فرساي، أدت إلى تكثيف حركة التهجير اليهودي إلى فلسطين، الذي كانت وراءه الحركة الصهيونية ومكنت له بريطانيا. وهكذا ارتفعت أرقام «المهجّرين» اليهود الذين دخلوا فلسطين رسمياً وبطرق غير رسمية خلال تلك الفترة.

يستوقفنا، ونحن نستحضر أحداث تلك المرحلة الأولى التي واجه بها المشروع

الحضاري العربي المشروع الصهيوني، أن سنواتها الأخيرة بين عامي ١٩٢٩ و١٩٣٣ شهدت حدوث ثورة البراق عام ١٩٢٩ في فلسطين التي عبرت عن استشعار الخطر المحدق بالمسجد الأقصى، وعن ادراك عدم جدوى التفاوض السياسي مع المستعمر إذا لم تسانده مقاومة مسلحة شعبية. وشهدت هذه الفترة أيضاً انعقاد مؤتمر اسلامي شعبي بالقدس عام ١٩٣١ بدعوة من المجلس الاسلامي الأعلى الفلسطيني، واقترن هذا الانعقاد بعقد مؤتمر عربي، ودلل الحدثان على ادراك البعد القومي العربي والبعد الحضاري الاسلامي في مواجهة المشروع الصهيوني. وكانت ذروة أحداث تلك المرحلة الأولى هي ثورة الشيخ عز الدين القسام التي بدأت عام ١٩٣٣، وعبرت في نشأتها ومحيطها وأسلوبها عن ادراك دور الجهاد المسلح في مقاومة المستعمر البريطاني والمستعمر المستوطن الصهيوني.

(٢) الثلث الثاني من القرن العشرين

استمر المشروع الحضاري العربي يواجه المشروع الصهيوني في فلسطين في الثلث الثاني من القرن العشرين. وانضم جيل عربي آخر إلى سابقه في هذه المواجهة. وحفلت تلك المرحلة بأحداث كان لها تأثيرها على مختلف أبعاد قضية فلسطين.

ففيما يتعلق بالبعد الدولي، احتدم الصراع بين قوى الهيمنة الدولية بقية الثلاثينات، وشهدت أوروبا تفجر عدة أزمات في دولها المتكالبة على نهب المستعمرات التي سيطرت عليها في القارات الأخرى. ولم تلبث أن تفجرت الحرب العالمية الثانية عام ١٩٣٩ بينها زلزالاً قوياً استمر حتى عام ١٩٤٥. وقد برز في وطننا خلال تلك الفترة ما جعل الولايات المتحدة الأمريكية تضاعف من اهتمامها بمنطقتنا وتتطلع إلى فرض نفوذها، وهو اكتشاف النفط بكميات كبيرة في الجزيرة العربية والخليج.

كانت للتحولات الدولية مضاعفاتها الأخرى التي انعكست مباشرة على الصراع العربي الصهيوني. فبريطانيا الدولة التي تستعمر فلسطين كثفت جهودها لتنفيذ اقامة وطن قومي لليهود فيها، وعمدت إلى أبشع وسائل القمع والتسلط في سبيل ذلك، وشجعت التهجير الصهيوني لليهود من أوروبا. والحركة الصهيونية المتحالفة مع بريطانيا ضاعفت نشاطها في تهجير اليهود الأوروبيين مستغلة السياسة النازية تجاههم، ولم تتوان عن اقامة اتصال مع النازيين لتحقيق هذا الهدف. وباشرت مع بريطانيا تنفيذ مخططات

لتهجير بعض يهود الوطن العربي. واتجهت إلى تكثيف نشاطها في الولايات المتحدة الأمريكية عارضة خدماتها على قوى الهيمنة هناك.

فيما يتعلق بالبعد العربي نشطت حركات التحرير في مختلف الأقطار العربية رافعة لواء جلاء المستعمر وتحقيق الاستقلال، وعبرت عن نفسها في انتفاضات وثورات. وفي فلسطين، بخاصة، لم تلبث حركة عز الدين القسام الجهادية أن هيأت المناخ لتفجر الثورة الكبرى في فلسطين، التي بدأت باضراب ربيع عام ١٩٣٦ واستمرت عامين حتى ١٩٣٨. وما كان أعظم ما شهدته هذه الثورة من عطاء أبناء شعب فلسطين العربي وأبناء العروبة أيضاً حتى أنها سميت «عربية»، وبات هذا العطاء مثلاً يحتذى ويستشهد به عند المناضلين للتحرر في عالمنا. وقد أوشكت الأمة أن تقطف ثمار هذه الثورة التى فرضت على بريطانيا اصدار كتاب أبيض تضمّن تلبية بعض المطالب العربية في تحديد الهجرة وفي تجاوز فكرة تقسيم فلسطين التى طرحتها لجنة بيل البريطانية. ولكن نشوب الحرب العالمية الثانية وتطوراتها أوجدت حقائق جديدة حالت دون قطف ثمار هذه الثورة.

كان من أهم التطورات المتصلة بالبعد الدولي للصراع العربي الصهيوني تبنّي الولايات المتحدة، التي دخلت الحرب العالمية الثانية، للمشروع الصهيوني بعد انعقاد مؤتمر بالتيمور الصهيوني في نيويورك عام ١٩٤٢. وقد أنشأت الحركة الصهيونية، بدعم قوى الهيمنة الغربية، «الفيلق اليهودي» ليكون مع جيوش الحلفاء، وليوفر الأطر العسكرية للكيان الصهيوني في فلسطين. وبلغ الحال بالصهيونية، وقد انتشت بالدعم الأمريكي، أن ظهرت في أوساطها منظمتان ارهابيتان هما ارغون وشتيرن خالفتا بعض جوانب السياسة الاستعمارية البريطانية في فلسطين. وحين انتهت الحرب الثانية بانتصار الحلفاء وبروز الولايات المتحدة الأمريكية قوة كبرى، أنشأت الدول المنتصرة منظمة الأمم المتحدة عام ١٩٤٥ التي اتخذت، بضغط من واشنطن، قرار تقسيم فلسطين إلى دولة يهودية وأخرى عربية يوم ١٩٤٧/١١/٢٩. ولم تلبث بريطانيا أن أنهت انتدابها لفلسطين وخرجت منها يوم ١٩٤٨/٥/١٥، بعد أن هيأت الجو لاقامة «اسرائيل» كياناً صهيونياً استعمارياً استيطانياً احلالياً في فلسطين.

استمر شعب فلسطين العربي في مقاومة عدوه المزدوج، بريطانيا المستعمرة والحركة الصهيونية، طيلة سنوات الحرب وفي أعقابها. ورفضت الأمة العربية قرار

التقسيم. وقامت عام ١٩٤٥ جامعة الدول العربية بعضوية سبع دول عربية قطرية. وتحقق جلاء المستعمر الفرنسي عن سورية ولبنان عام ١٩٤٦. ونشبت حرب فلسطين بين «اسرائيل»، التي اعترفت بها الولايات المتحدة الأمريكية حال قيامها ودعمتها الدول الاستعمارية الأوروبية الأخرى، والدول العربية الفتية إثر خروج المستعمر البريطاني من فلسطين، في ظل ظروف ملتبسة، وشهدت هدنتين. واستطاع الكيان الصهيوني الذي قام في فلسطين أن يثبّت أركانه بهذه الحرب بفضل مساندة دول الهيمنة الغربية التي مكّنته من الحصول على عضوية الأمم المتحدة. وشهدت هذه الحرب بطولات فردية عربية وصوراً من تعلق أبناء الأمة في مختلف الأقطار العربية بفلسطين. ولكن الواقع الرسمي العربي القائم آنذاك لم يصمد أمام مكائد قوى الهيمنة الغربية، فكانت نكبة فلسطين التي أدت إلى إخراج جل شعب فلسطين من وطنه الغالي. ويالها من نكبة أثرت على الأمة العربية بعامة وعلى شعب فلسطين بخاصة.

إن ذاكرة الأمة التاريخية حفظت أحداث هذه النكبة. والحاجة ماسة إلى أن تتعرف أجيال الأمة في القرن الحادي والعشرين على ما جرى وأسبابه. وقد اقترن بحدوث النكبة وقوع تحول هام في البعد الدولي للصراع العربي الصهيوني هو تولي الولايات المتحدة الأمريكية قيادة قوى الهيمنة الغربية، وقيام حليفتها بريطانيا بتسليمها جل ملفاتها في المنطقة. ووطنت قوى الهيمنة الغربية هذه نفسها على دعم الكيان الاسرائيلي في فلسطين ليكون قاعدة لها. وهكذا أصدرت أمريكا وبريطانيا وفرنسا الاعلان الثلاثي عام ١٩٥٠ بحماية هذا الكيان وعمدت إلى تقويته.

الاستجابة لتحديات النكبة

كانت تحديات نكبة فلسطين عام ١٩٤٨ شديدة على المستويين الرسمي والشعبي في وطننا العربي. وما أسرع ما ظهرت استجابات لهذه التحديات. فعلى صعيد الفكر، صدرت كتب ناقشت أسباب النكبة وتأملت معناها واستخلصت عبرها ونظرت في التغلب عليها. وعلى صعيد الأدب، رأينا الشعر والرواية والمقال تسهم في ذلك وتعبىء أبناء الأمة. واستطاع جيل النكبة من أبناء فلسطين أن يصمد أمام الزلزال وخرج للعمل في بعض أقطار وطننا الكبير وأسهم في تحقيق نهضة تربوية اقتصادية. وحقق التكافل الاجتماعي الأسري انجازاً عظيماً تمثل في خروج الشعب من وطأة النكبة إلى البناء. وشهد الوطن العربي على الصعيد الشعبي غضباً وجيشاناً هيأ المناخ للتغيير. وأدت

الهزيمة العسكرية التي وقعت، ومعها الهزيمة السياسية، إلى ظاهرة تدخل الجيش في الحكم في الدول العربية حديثة العهد بالاستقلال، فكانت الانقلابات العسكرية التي تتالت في العقدين التاليين. وإذا كانت جلّ هذه الانقلابات لم تحقق التغيير المنشود، فإن حركة الجيش في مصر العربية يوم ٢٣ يوليو / تموز ١٩٥٢ استطاعت أن تنال تأييداً شعبياً حوّلها إلى «ثورة»، كان لها دور كبير في بناء قاعدة صمود في مصر وفي مساندة حركات التحرير في الوطن العربي، وامتد تأثيرها إلى الصعيد الدولي فانتعشت حركات التحرير الافريقية. وحفلت الخمسينات بأحداث هيأت مناخاً صالحاً لانطلاق طاقات الأمة لتحقيق مشروعها الحضاري. ومن هذه الأحداث انعقاد مؤتمر باندونغ عام ١٩٥٥، وقيام مصر بتأميم قناة السويس عام ١٩٥٦، ونجاحها في الصمود أمام العدوان الثلاثي البريطاني الفرنسي الاسرائيلي والتفاف الأمة حولها، وتحقيق وحدة بين مصر وسورية عام ١٩٥٨ رغم معارضة قوى الهيمنة الدولية. وإن من حق الأجيال العربية الجديدة في القرن الحادي والعشرين أن تتعرف على تلك الحقبة من ناريخ أمتها، التي تدفقت فيها موجات ثورة التحرير في شمال افريقيا العربية وفي القارة بعامة، ومن بينها ثورة الجزائر على الاستعمار الفرنسي بين عامي ١٩٥٤ و١٩٦٢.

حين نستحضر ما تحقق من المشروع الحضاري العربي في ظل مناخ ثورة التحرير، نجد أن انجازاً تحقق على صعيد هدف التحرير تمثل في استقلال السودان وتونس والمغرب ثم الجزائر، واستقلال أقطار الخليج العربي، التي حاولت الدول الاستعمارية أن تضع قيوداً عليه باشكال مختلفة وأن ترسم محددات له. ومع ذلك فما تحقق مثّل انجازاً. ونجد محاولة هامة لتحقيق وحدة قطرين هما مصر وسورية عام ١٩٥٨، كان لها أثرها العظيم في شحذ همة الأمة. كما نجد محاولات أخرى لتحقيق تنسيق اتحادي بين أكثر من قطرين لم يكتب لها النجاح. ونجد محاولات جادة لتحقيق هدف العدل الاجتماعي تمثلت في رفع بعض الدول شعار «الاشتراكية». وقد كان لبعض هذه المحاولات ثمار طيبة، كان يمكن أن تتضاعف لولا انعطافها إلى الاستعجال واستيراد نماذج وتقليدها. وحاولت دول عربية أخرى أن تحقق نوعاً من «العدالة الاجتماعية» في اطار أقطارها، وذلك بعد ظهور النفط فيها، ولكن نسبة كبيرة من ثروة النفط امتصّها الاستهلاك. ونجد محاولات جادة لتحقيق تنمية توصل إلى الكفاية، أثمر بعضها. ثم نجد جهوداً لتحقيق التجدد الحضاري، عنيت بالبحث العلمي وبالتربية

وبالتعليم وبتحديث هياكل البنية الأساسية وبالاجتهاد. وقد أثمرت نهوضاً في هذه الميادين وفي الأدب والفن والفكر.

كان يمكن أن تكون ثمار هذه الجهود لتحقيق أهداف المشروع الحضاري العربي مضاعفة لو أن عناية أوليت لهدف الشورى والديموقراطية وحقوق الانسان. ذلك أن الغفلة عن هذا الهدف أدت إلى تحكم أقوى «للدولة» على حساب الشعوب ومجتمعاتها الأهلية «المدنية»، ووقع جلّ الحكومات في مهاوي الضيق بالديموقراطية وبالتعددية، وانسياقها من ثم إلى التطرف في النزاعات العربية العربية. وقد ظهرت آثار ذلك كله في عقد الستينات آخر سنوات هذه المرحلة الثانية في القرن العشرين.

استهدف هذا العمل المكثف للنهوض العربي، فيما استهدف، مواجهة المشروع الصهيوني، وكان منطلقاً من اقتناع بأن التقدم على طريق تحقيق أهداف المشروع الحضاري العربي يخدم هذه المواجهة ويوصل إلى تحقيق هدف التحرير. وارتفع شعار «الوحدة طريق الحرية». وكان المشروع الصهيوني قد دخل، منذ اقامة اسرائيل عام ١٩٤٨، مرحلة «الغزو» بدعم قوى الهيمنة، وعمد إلى تكثيف «تهجير» يهود من أوروبا ومن الوطن العربي، وذلك بعد أن عبر مرحلة التسلل بين عامي ١٨٨٢ و١٩١٧، ومرحلة التغلغل بين عامي ١٩١٧ و١٩٤٨. وقد استشعرت الصهيونية العالمية، بشقيها اليهودي وغير اليهودي، خطورة النهوض العربي في الخمسينات، وبخاصة بعد توحيد مصر وسورية عام ١٩٥٨، فتربصت مع دول الهيمنة به، عامدة إلى النفخ في النزاعات العربية العربية، وإلى استغلال أخطاء التطبيقات على صعيد كل قطر لخلخلة وحدته الوطنية، ومستفيدة من قصور عربي رسمي حدث في قراءة الوضع الدولي. وكان التوازن بين معسكري دائرة الحضارة الغربية، الغربي الرأسمالي والشرقي الماركسي، قد انتقل من مرحلة سياسة حافة الهاوية في مطلع الخمسينات إلى سياسة التعايش السلمي في آخر الخمسينات، وبدأ يتجه إلى مرحلة انفراج ظهرت بوضوح بعد حرب ١٩٦٧.

نكسة عام ١٩٦٧

لقد شهد النصف الأول من الستينات نكسة انفصال وحدة مصر وسورية، واحتدام نزاع عربي عربي بعد ثورة اليمن عام ١٩٦٢ تفجر في حرب اليمن، كما شهد أشكالاً من الصراعات على المستوى القطري على صعيد الحكم أدت إلى اضعاف

الجبهة الداخلية العربية. وأدى ذلك إلى تجرؤ الكيان الصهيوني على الاقدام لتحويل مجرى نهر الأردن وسرقة مزيد من المياه العربية. فكان أن استجابت قيادة مصر العربية، التي حملت آنذاك اسم الجمهورية العربية المتحدة منذ توحيد مصر وسورية، لهذا التحدي بالدعوة إلى قمة عربية انعقدت في مطلع عام ١٩٦٤. وقد تتالى انعقاد القمة العربية مرتين، ولكن النزاعات العربية لم تلبث أن عرقلت عملها وتغلبت، ما اصطلح على تسميته «وحدة الهدف» على «وحدة الصف». ثم كانت حرب ٥ حزيران / يونيو ١٩٦٧ ووقعت «النكسة». ويالها من «نكسة» لأحلام الأمة في تحقيق مشروعها الحضاري، وما أشد مرارة ذكرى أحداثها.

فقد بادر الكيان الصهيوني في أعقاب تصاعد أحداث حافلة بالتوتر في مطلع ربيع عام ١٩٦٧ إلى شن حرب خاطفة اشتهرت باسم «حرب الأيام الستة» بين يومي ٥ و١٩٦٧/٦/١١، احتل فيها بقية فلسطين: الضفة الغربية التي كانت جزءاً من الأردن، وقطاع غزة الذي كان في عهدة مصر، وهضبة الجولان في سورية، وشبه جزيرة سيناء في مصر. وكشفت الهزيمة العربية في هذه الحرب عن قصور حاد في جوانب كثيرة من الواقع الرسمي العربي. وقام الفكر العربي بمراجعة لمسار النهوض الذي تحقق إثر نكبة عام ١٩٤٨ كاشفاً عن جوانب هذا القصور. كما قام الأدب العربي بتصوير خفقان قلب الأمة ومشاعرها إزاء هول ما حدث. وكان من نتائج هذه الحرب أن ارتفع على الصعيد الرسمي العربي شعار «إزالة آثار العدوان» الذي قصد به الرئيس الراحل جمال عبد الناصر، حين أعلنه، تحديد هدف على المدى القصير دون التخلي عن الهدف الأصلي وهو تحرير فلسطين المغتصبة عام ١٩٤٨.

(٣) الثلث الأخير من القرن العشرين

احتدم الصراع العربي الصهيوني في مطلع الثلث الأخير من القرن العشرين بعد حرب حزيران / يونيو ١٩٦٧، وشهد أحداثاً كثيرة تتصل بأبعاده الدولية والاقليمية والمحلية. كما شهد تحولاً في أشكاله من خلال تسويات تتالت مع بعض أطرافه خلال هذه المرحلة. وانضم جيل عربي ثالث إلى الجيلين العربيين السابقين في الاكتواء بناره وخوض غماره.

على الصعيد الدولي، تنامى دور الولايات المتحدة في هذا الصراع، وباتت القوة

الأولى المتحكمة في أمر تسويته. وعمدت إلى تنفيذ مخططات وضعتها لتوظيف الاحتلال الاسرائيلي للأراضي العربية في السيطرة على ثروات منطقتنا العربية، والنفطيّة منها بخاصة. وبدت إثر النكسة بوادر مرحلة انفراج بينها وبين الاتحاد السوفييتي تجلى في لقاء جونسون وكوسيغين في جلاسبورو الأمريكية. وأسهمت الولايات المتحدة بدور خاص في إصدار مجلس الأمن الدولي قراره رقم ٢٤٢ في ١٩٦٧/١١ الخاص بتسوية الصراع، الذي ينص في مقدمته على مبدأ عدم جواز احتلال الأراضي بالقوة، ولكنه مجرد من آلية تنفيذ هذا المبدأ. وقد تمت صياغته بصورة مكّنت «اسرائيل» من الاستمرار في اغتصاب فلسطين أمراً واقعاً وتهويد القدس. وعمدت الولايات المتحدة إلى منع مجلس الأمن من ادانة أغلب الممارسات الاسرائيلية المخالفة للقانون الدولي.

وفي ظل هذا الوضع الدولي انطلقت الصهيونية العنصرية في متابعة اغتصاب فلسطين. وتشبثت اسرائيل بالأراضي العربية التي احتلتها عام ١٩٦٧ . وقد دخلت الغزوة الصهيونية الاستعمارية الاستيطانية مرحلة التوسع بعد أن تسللت ثم تغلغلت ثم غزت في مراحل ثلاثة سابقة. وانطلقت إسرائيل في نهب ثروات فلسطين وفي ممارسة أشد صور العسف والقمع على شعب فلسطين العربي، مما فاق في بشاعته ممارسات دول الاستعمار الغربي تجاه الشعوب التي استهدفتها بغزوها الاستعماري. كما جندت الحركة الصهيونية قواها وحشدت طاقاتها لتهجير أكبر عدد ممكن من اليهود إلى فلسطين. وقد نجحت في تهجير أعداد من دول أوروبا الغربية أولاً، ثم في تنظيم أكبر حركة تهجير من الاتحاد السوفييتي ودول أوروبا الشرقية في نهاية الثمانينات بدعم أمريكي قوي، وهجّرت أيضاً أعداداً من اليهود الفلاشا الاثيوبيين.

أكدت إسرائيل في هذه المرحلة طبيعتها الاستعمارية الاستيطانية التي تستهدف اغتصاب الأرض. وهكذا تحدثت عن أراضي الضفة الغربية وقطاع غزة بأنها أراضيها المحررة، بعد أن وصفتها أول الأمر «بالمحتلة» ثم بأنها «مضمومة» إليها. وأعلنت أطماعها في سيناء والجولان وباشرت استغلال ثرواتهما، وجاهرت بأن حدودها تنتهي عند آخر جندي لها في الأرض العربية. ومع اغتصاب الأرض جلبت المستعمرين المستوطنين من اليهود مستخدمة وسائل شتى في ذلك، وعمدت إلى استيعابهم ودمجهم من خلال مؤسستها العسكرية. ووضعت نفسها في خدمة قوى الهيمنة الغربية التي أوجدتها، فجعلت من أرض فلسطين المحتلة أكبر قاعدة عسكرية أمريكية تفوق

أعظم حاملة طائرات أمريكية أضعافاً مضاعفة، على حد تعبير أدميرال أمريكي. وكشفت إسرائيل عن مخططاتها بشأن «تهويد القدس»، وتجرأ صهيوني على محاولة حرق المسجد الأقصى في ١٩٦٩/٨، واستمرت عملية التخطيط لاقامة «الهيكل» مكانه. وتعرضت القدس القديمة داخل السور والقدس الشرقية بعامة إلى هجمات استيطانية مكثفة، ومع القدس مواقع كثيرة في الضفة والقطاع. واستهدف الصهاينة الحرم الخليلي فتحكموا فيه. وهكذا دخل المشروع الصهيوني طوراً جديداً في أعقاب حرب عام ١٩٦٧ عنوانه «التوسع».

الاستجابة لتحدي النكسة

بدا تحدي النكسة على الصعيد العربي بالغ القسوة والشدة، وقد أصاب المشروع الحضاري العربي في الصميم. ولكن سرعان ما استجابت الأمة لهذا التحدي بتأكيد عزمها على متابعة النضال ومواجهة المشروع الصهيوني. وتجلى ذلك أول ما تجلى في وقفة الأمة يومي ٩ و١٩٦٧/٦/١٠ والألم يعتصرها رافعة شعار الصمود. ثم تجلى في مباشرة حرب الاستنزاف على جبهة قناة السويس، وفي ظهور المقاومة الفدائية المسلحة الفلسطينية التي اتخذت في الأردن قواعد لها. وشاع في أوساط الأمة مناخ فيه التصميم على مواجهة العدو. واستطاع هذا المناخ أن يعيد للنظام العربي فعاليته بانعقاد القمة العربية في الخرطوم صيف عام ١٩٦٧ التي نجحت في تصفية الأجواء العربية وانهاء حرب اليمن. وقد تميّزت السنوات الثلاث التي تلت «النكسة» عموماً بطابع الاستجابة للتحدي. وكان من صور الاستجابة انعقاد مؤتمر قمة اسلامي في الرباط بالمغرب اثر محاولة حرق المسجد الأقصى عام ١٩٦٩ كان نواة لمنظمة المؤتمر الاسلامي. ولكن ما لبثت أن عاشت الأمة نزاعاً عربياً نشب في الأردن، وخفق قلبها حين برز خلاف في أوساطها حول مقاربة الصراع والتوزع بين متابعة النضال والتوجه نحو التسوية، ثم فجعت برحيل جمال عبد الناصر يوم ١٩٧٠/٩/٢٨ في أعقاب انعقاد قمة عربية دعت إليها مصر لمعالجة ذلك النزاع وبلورة موقف عربي، وهو الزعيم الذي كان له دور خاص في الأحداث العربية منذ عام ١٩٥٢.

حرب رمضان

نشطت في مطلع السبعينات محاولات قوى الهيمنة الدولية، بقيادة الولايات

المتحدة الأمريكية، طرح مشاريع تسوية للصراع العربي الصهيوني. ووظّفت هذا الطرح لتمكين «اسرائيل» من استمرار احتلال الأراضي العربية وايجاد حقائق جديدة فيها. وقد جاءت حرب ١٠ رمضان ١٣٩٣ - ٦ أكتوبر/تشرين الأول ١٩٧٣، بمبادرة محسوبة من مصر وسورية، لتعطي مثلاً حياً على بطولة الجندي العربي وقدرة العسكرية العربية على التخطيط ودور الكفاح المسلح في استعادة الحق. فكان العبور في يوم مجيد من أيام العرب، وتلاه توافق الدول العربية النفطية على استخدام سلاح النفط جزئياً يوم ١٩٧٣/١٠/١٨، الأمر الذي أوجد حقيقة كبيرة على صعيد تعامل القوى الدولية مع الصراع العربي الصهيوني. وقد كان يمكن للزخم الذي طبع نضال الأمة آنذاك أن يحقق الكثير لولا قصور حدث على مستوى ادارة المعركة، الأمر الذي أدى إلى حدوث الثغرة في الجبهة المصرية، ووقوع خلاف في الرأي حول التحرك السياسي بين شريكي حرب رمضان. فكان أن قلل ذلك من حلاوة النصر. ومع ذلك فإن الحرب بمجملها كشفت عن حقيقة ما يحفل به الوجود الصهيوني من هشاشة وتناقضات كان يمكن أن تتفجر لولا الدعم الأمريكي غير المحدود الذي قدمه نيكسون وكيسنجر لاسرائيل، كما بددت الحرب اسطورة العسكري الاسرائيلي الذي لا يقهر.

حركت حرب رمضان سطح بركة الصراع، فنشطت الولايات المتحدة لمباشرة تسوية له أكثر انحيازاً لمطالب اسرائيل. وتم ابرام اتفاقيتي فك الاشتباك الأولى عام ١٩٧٤، والثانية عام ١٩٧٥ على الجبهة المصرية، واتفاقية على الجبهة السورية عام ١٩٧٥. ومرة أخرى نشبت نزاعات عربية حول مقاربة الصراع. وتفجر أكثر من نزاع مسلح عربي - عربي عامي ٧٦ و٧٧. وبدا واضحاً أن «النظام العربي» يعاني من ضعف بيّن. ثم قام الرئيس السادات بزيارة الكنيست الاسرائيلي يوم ١٩٧٧/١١/١٩، في خطوة أولى لعملية تسوية رعتها الولايات المتحدة الأمريكية وأبرمت ضمنها اتفاق كامب ديفيد بين مصر واسرائيل في ١٩٧٨/٩، ثم معاهدة سلام مصرية اسرائيلية في ١٩٧٩/٣/٢٦، الأمر الذي أدى إلى انتقال جامعة الدول العربية مؤقتاً إلى تونس، وافتقاد دور مصر، كمركز ثقل في ساحة العمل العربي المشترك، لنحو عشر سنوات. وكان «النظام العربي» بعد حرب رمضان قد حقق انجازاً في الحوار العربي الأوروبي الذي انتكس بفعل الخلافات العربية.

لقد اغتنم الكيان الصهيوني فرصة ضعف النظام العربي لينفذ مخططاته في

التوسع في جنوب لبنان. فكان أن اجتاحت القوات الاسرائيلية الجنوب عام ١٩٧٨ واحتلت شريطاً فيه، وكررت اعتداءاتها على المقاومة الفلسطينية الموجودة في لبنان، ثم اجتاحت لبنان صيف عام ١٩٨٢ واحتلت بيروت، ونشبت من ثم معركة بيروت الكبرى. واضطُرت القوات الاسرائيلية إلى الانسحاب من عاصمة لبنان، وبدأت تواجه مقاومة لبنانية متصاعدة في الجنوب. وكانت اسرائيل قد قامت صيف عام ١٩٨١ بقصف المفاعل الذري العراقي أصالة عن نفسها ووكالة عن الولايات المتحدة الأمريكية. وقامت بذلك كله بعد حرب رمضان، مؤكدة اصرارها على العدوان.

واضح مما سبق أن هدف مواجهة العدو الصهيوني بغية تحرير الأراضي العربية أخذ أولوية بعد النكسة بحكم ما نجم عنها. وقد تأثرت أهداف المشروع الحضاري العربي الأخرى بذلك. وهكذا رأينا حرصاً على وحدة الصف العربي تجلت في قمة الخرطوم عام ١٩٦٧، وتنسيقاً مصرياً سورياً في خوض حرب رمضان عام ١٩٧٣، وموقفاً عربياً مسانداً من دول النفط العربية فعل فعله. ولكن ما لبث هذا الخط البياني الصاعد للتضامن العربي أن انعطف هابطاً بعد عام ١٩٧٤ ثم ابرام اتفاق كامب دافيد عام ١٩٧٨. وقد شهدت هذه المرحلة منذ بدايتها في أعقاب النكسة تغيرات على مستوى الحكم في عدد من الدول العربية: في العراق عام ١٩٦٨، والصومال والسودان وليبيا عام ١٩٦٩، ومصر وسورية عام ١٩٧٠، وذلك في اطار تأثر النظام الاقليمي بما طرأ من تطور في النظام الدولي في مرحلة الانفراج بين القطبين، وبفعل جيشان داخلي. كما شهدت هذه المرحلة، على صعيد هدف التجدد الحضاري، مراجعات فكرية نقدية أسفرت عن اعلاء هدف الشورى والديموقراطية وحقوق الانسان، والدعوة إلى التمسك به وعدم السكوت عنه مهما كانت الوعود مغرية على صعد الأهداف الأخرى، لأن أحداث النكسة أثبتت عدم امكان الوفاء بتلك الوعود في غياب هذا المناخ الذى يحترم حقوق الانسان ويعتمد الشورى والديموقراطية.

استمرت الأمة وسط هذه التحولات في التعلق بمقاومة المشروع الصهيوني. وتجلت هذه المقاومة على الصعيد الشعبي في دعم عمليات الفداء وفي رفض التسوية المملاة. وقام الفكر العربي بدور خاص في الدعوة لاستمرار المقاومة. وشهدت الدائرة العربية انتعاش مناخ المقاومة فيها مع تفجر ثورة ايران الاسلامية عام ١٩٧٩ ومواجهتها الغطرسة الأمريكية. ولكن لم يلبث هذا المناخ أن تأثر بنشوب الحرب بين العراق وايران

عام ١٩٨٠ التي نفخت في أوارها قوى الهيمنة الدولية، ونجم عنها استنزاف طاقات هائلة في البلدين على مدى ثماني سنوات، واحداث خلل في علاقات الجوار داخل دائرة الحضارة الاسلامية.

بقيت مقاومة العدو الصهيوني والعمل لتحقيق المشروع الحضاري العربي نصب أعين قوى الأمة الحية ومعقد آمالها، والسبيل لتبديد مناخ احباط قوي في النصف الأول من الثمانينات. وجاء تصاعد المقاومة في جنوب لبنان دليلاً على حيوية الأمة، وفعل فعله في بث روح الأمل وتقوية العزائم، وأعطى مثلاً على ما يمكن للقيم الروحية أن تقوم به في تحقيق صحوة الأمة في مواجهة عدوها الصهيوني وقوى الهيمنة التي تدعمه. ثم جاء حدوث الانتفاضة الفلسطينية آخر عام ١٩٨٧ واستمرارها ثلاث سنوات ليتكامل مع المقاومة اللبنانية، وليؤكد للعدو أن المواجهة العربية له مستمرة، وأن شعب فلسطين العربي سيبقى متمسكاً بحقوقه الوطنية، وقادراً على تجديد تعبئة طاقاته في هذه المواجهة.

مرة أخرى تجلى أثر البعد الدولي في الصراع العربي الصهيوني أواخر عقد الثمانينات حين حدث زلزال أوروبا الشرقية السياسي الذي انتهى بانهيار الاتحاد السوفييتي في مطلع التسعينات. فقد أفسح هذا التحول المجال أمام الولايات المتحدة الأمريكية للانفراد في قيادة النظام العالمي، ومن ثم لتنفيذ مخططاتها في منطقتنا العربية. وقد جاء اجتياح العراق للكويت في ١٩٩٠/٨/٢، إثر تفاقم ضعف النظام العربي، ليدخل الوطن العربي في نفق مظلم على صعيد العلاقات بين دولنا العربية، وليمكّن الولايات المتحدة الأمريكية من قيادة تحالف دولي ضد العراق انتهى بمحاصرته، وليفتح الباب أمام مباشرة عملية تسوية للصراع العربي الصهيوني واكبتها جهود أمريكية للانفراد بتصميمها. وهكذا انعقد مؤتمر مدريد يوم ١٩٩١/١٠/٣٠ لتنفيذ «عملية سلام الشرق الأوسط». ودخل الصراع العربي الصهيوني مرحلة جديدة.

٢- الواقع القائم في الصراع وما ينبغي عمله

أولاً: المرحلة الراهنة و«عملية سلام الشرق الأوسط»

الواقع القائم في الصراع العربي الصهيوني في مطلع سنة ٢٠٠٠، آخر القرن العشرين الموافق سنة ١٤٢٠هـ، يقع في نطاق المرحلة الراهنة في هذا الصراع التي بدأت بانعقاد مؤتمر مدريد يوم ١٩٩١/١٠/٣٠، ومباشرة عملية تسوية تحت اسم: «سلام الشرق الأوسط».

حين نستحضر أحداث هذه المرحلة الراهنة التي رسمت خطوط صورة الواقع القائم، نجد أنها كانت أحداثاً ذات فعل وتأثير اتصلت بأبعاد الصراع الدولية والاقليمية والمحلية. وقد أدت بمجملها إلى إشاعة مناخ يغلب عليه عدم التفاؤل في أوساط الأمة. وهذا ما يدعو إلى القيام بقراءة صحيحة لهذا الواقع القائم تسبر أغواره وتحيط به وتقف على ما فيه من سلبيات وايجابيات.

انفراد أمريكي بالتسوية:

لقد شهد البعد الدولي للصراع انفراد الولايات المتحدة الأمريكية بالتصدي لقيادة العالم بعد انهيار الاتحاد السوفييتي في مطلع التسعينات؛ فكان أن طرح الرئيس بوش فكرة إقامة نظام عالمي جديد تقوده واشنطن منفردة وتتحكم فيه أمريكا قطباً واحداً له، وتستظل في تحركاتها براية منظمة الأمم المتحدة مع عدم تمكين المنظمة الأممية من القيام بدورها في حماية الشرعية الدولية. وكان أن باشرت الولايات المتحدة عملية «عولمة» العالم اقتصادياً وثقافياً في محاولة غير مسبوقة للتحكم في السوق العالمي كله، وإخضاع الثقافة لمتطلبات السيطرة على السوق، واحكام قبضتها على الأنظمة الاقليمية في عالمنا. وفي هذا الإطار، ومن أجل احكام القبضة الأمريكية، كان أن وضعت مخططاً لإقامة نظام لها باسم «نظام الشرق الأوسط»، يختص بدائرتنا الحضارية الإسلامية عامة، ويركز على الدائرة العربية بخاصة. وقد خططت لاعطاء «إسرائيل»، باعتبارها قاعدة استعمارية استيطانية غربية، دور القيادة فيه، الأمر الذي له تأثيراته على مسار الصراع العربي الصهيوني. وهكذا رتبت مباشرة المفاوضات المتعددة الأطراف بعد مؤتمر مدريد في محاولة لإقامة هذا النظام.

لقد جهدت الولايات المتحدة الأمريكية، في عمليتها لسلام الشرق الأوسط، لأن تدفع الأطراف العربية إلى الدخول في مفاوضات مع «إسرائيل» من نوع خاص، حاولت أن تفرض فيها على الطرف الفلسطيني بخاصة شروطاً جردته من جميع أوراق قوته تلبية لمطالب إسرائيل: الاعتراف مسبقاً بوجود إسرائيل وبأمنها، وعدم البحث في حقوق شعب فلسطين في وطنه المحتل عام ١٩٤٨. ويكون المفاوضون الفلسطينيون ضمن وفد أردني. وفرضت الولايات المتحدة تأجيل موضوعات القدس واللاجئين والاستيطان والأرض إلى ما أسمته مفاوضات الوضع النهائي لتمكن إسرائيل من فرض أمر واقع. ولبّت الولايات المتحدة لإسرائيل، قبل المفاوضات، مطلبين صهيونيين: أولهما، أن تتفاوض مع كل طرف عربي منفرداً في مفاوضات ثنائية. وثانيهما، أن تكون أقوى من الأطراف العربية مجتمعين. وفرضت على هذه الأطراف اعلان اعتماد التفاوض السياسي وانتهاء الكفاح المسلح ضد الاحتلال. وضمنت لإسرائيل، في رسالة تطمينات، أن يكون لها تفسيرها لقرار ٢٤٢ الذي جرى اعتماده أساساً للتسوية بحيث تستطيع التنصل من الالتزام بالانسحاب الكامل من الضفة الغربية وقطاع غزة، وتتابع الاستيطان فيهما بزعم أن هذه الأراضي حق تاريخي، وأن القرار الأممي يتحدث عن انسحاب من «أراض» بدون «أل التعريف». ثم لبّت الولايات المتحدة لإسرائيل عند مباشرة التفاوض مطلبين آخرين: الأول، هو أن تجري مفاوضات سرية إلى جانب المفاوضات الثنائية العلنية. والآخر، أن تعهد الولايات المتحدة لإسرائيل أمر التواصل مع دول المنطقة بدون تدخل أمريكي فيما يخص تفاصيل عملية التسوية. وجاهرت إسرائيل بمطلب آخر هو عقد لقاء علني لرئيس وزرائها برئيس الدولة العربية المفاوضة.

وهكذا جرت المفاوضات الثنائية التي انتهت على الصعيد الإسرائيلي الفلسطيني بابرام اتفاق أوسلو في ١٩٩٣/٩/١٣ المعروف باسم «اعلان مبادئ لإقامة حكومة ذاتية انتقالية فلسطينية في غزة وأريحا»، ثم باتفاق آخر في ١٩٩٤/٥/٤، واتفاق أوسلو ٢ في ١٩٩٥/٩/٢٨. وانتهت على الصعيد الاسرائيلي الأردني بابرام اتفاق وادي عربة في ١٩٩٤/١٠/٢٦. وسارت على الصعيد الإسرائيلي السوري متعثرة بسبب اعتراض سورية على بعض شروط التفاوض هذه، وتمسكها بالانسحاب الإسرائيلي من كامل الجولان السوري المحتل.

إن هذا التفصيل في ذكر مخططات الولايات المتحدة تجاه الدول العربية في

مفاوضات عملية سلام الشرق الأوسط ضروري لفهم طبيعة الاتفاقات المجحفة التي عملت وتعمل لفرضها على الأطراف العربية، ولكي تحفظ ذاكرة الأجيال العربية الجديدة طبيعة ومجريات التفاوض، وتوازن القوى الذي أوجزته كلمة شيمون بيريز حين كان رئيساً للوزراء بعد مقتل اسحق رابين في خريف عام ١٩٩٥ «ليس لدى الفلسطينيين أية أوراق في هذه المفاوضات، فكأن بيريز يفاوض بيريز ويقرر ما يعطيه لهم».

انطلاق إسرائيل في تنفيذ الحل العنصري

في ظل هذا الوضع الدولي والهيمنة الأمريكية عليه وسعيها لإقامة نظامها للشرق الأوسط ودعمها المتصاعد للكيان الصهيوني، انطلقت إسرائيل في تنفيذ الحل العنصري لقضية فلسطين الذي رسمت خطوطه «عملية سلام الشرق الأوسط». وقد شهدت بداية مباشرة هذه العملية تناقضاً ثانوياً بين المستعمر المستوطن الصهيوني الذي كان يمثله اسحق شامير في رئاسته للحكومة الإسرائيلية، وقوى الهيمنة الأمريكية التي تدعمه، وكان يمثلها جورج بوش في رئاسته للولايات المتحدة الأمريكية. وهو تناقض عرفته تجارب الاستعمار الاستيطاني في عالمنا، ويعود إلى اختلاف نظرة كل من طرفي هذه العلاقة إلى كيفية ادارة عملية التسوية، وجنوح المستعمر المستوطن، بحكم طبيعته، إلى فرض رؤيته مستشعراً مكانته في مخططات القوى التي أوجدته، وتغافله من ثم عن ملاحظة مستلزمات تحركات قوى الهيمنة هذه. وقد انتهى هذا التناقض الثانوي بقبول اسحق شامير المشاركة في مؤتمر مدريد وفقاً لرغبة واشنطن، وقبول واشنطن جلّ مطالب إسرائيل واطلاق يدها في موضوعات القدس واللاجئين والاستيطان والأرض، التي أجلتها عملية التسوية لتكون «لمفاوضات الوضع النهائي».

هكذا رأينا حكومة شامير الاسرائيلية تتنكر للشعار الذي اعتمدته عملية التسوية «الأرض مقابل السلام»، ويطرح رئيسها شعار «السلام مقابل السلام». ورأينا الشروع في تكثيف الاستيطان الصهيوني في الضفة الغربية. ورأينا تصعيد العدوان الإسرائيلي على جنوب لبنان، ورأينا استمرار مصادرة الأراضي في القدس ومتابعة محاولة تهويد بيت المقدس. وحين تولى اسحق رابين رئاسة الحكومة الإسرائيلية في صيف عام ١٩٩٢ اعتمد الثوابت الصهيونية العنصرية نفسها مع اختلاف في الأسلوب وفي التعبير يميز «العمل» عن «الليكود». وهكذا رأيناه يقترف جريمة إبعاد المجاهدين الفلسطينيين إلى

مرج الزهور بلبنان أواخر عام ١٩٩٢، ويجاهر بمصادرة أراض فلسطينية في منطقة القدس لإسكان المستعمرين المستوطنين الصهاينة، ثم يقترف جريمة العدوان على لبنان بموافقة أمريكية في صيف عام ١٩٩٣، ويتابع سياسة القمع والعسف في فلسطين. وقد عمدت حكومته، بعد ابرام اتفاق أوسلو في ١٩٩٣/٩، إلى مصادرة الأراضي في الضفة الغربية، وقطع الأشجار لشق الطرق التي تربط بين المستعمرات الاستيطانية الصهيونية، ولإقامة «معازل» فلسطينية محاصرة حيث الكثافة السكانية العربية. وتابعت حكومة شيمون بيريز، بعد اغتيال رابين على يد إسرائيلي، تنفيذ هذا المخطط، والتزمت بما أعلنه رابين بشأن تطبيق اتفاق أوسلو «ليس لدينا أي موعد مقدس في تنفيذ بنود الاتفاق». وقام بيريز بموافقة أمريكية باقتراف جريمة عدوان عناقيد الغضب على لبنان في ربيع ١٩٩٦ واصدار الأمر بمذبحة قانا. وحين نجح بنيامين نتنياهو رئيساً للحكومة في انتخابات ١٩٩٦ وشكل حكومة ليكودية، سار على الدرب نفسه مع مجاهرة بالعنصرية الصهيونية وبأفكارها العدوانية التي ضمنها كتابه «مكان تحت الشمس أو بين الأمم». وتجرأ على افتتاح النفق تحت المسجد الأقصى في ١٩٩٦/٩. وتعاون مع شارون في تكثيف الاستيطان في الضفة الغربية ليشمل كل رأس تل أو جبل إن أمكن. واستهدفت حكومته جنوب لبنان بالعدوان، وشعب فلسطين في وطنه المحتل بالمحاصرة.

لقد شهد الكيان الإسرائيلي في عام ١٩٩٩ انتخابات مبكرة جاءت بيهودا باراك رئيساً للوزراء منتخباً وبحكومة يقودها حزب العمل. وبقيت الثوابت الصهيونية كما هي على الرغم من حملة اعلام ترويجي مكثفة أحاطت بتوليه وصورته واعداً بتحقيق سلام. وها هي الأخبار تتتالى منذ ذلك الوقت يومياً حول تنكّره لاتفاقات، وجرائمه العدوانية، وآخرها ضرب هياكل البنية الأساسية في محطات كهربائية ثلاث في لبنان في مطلع عام ٢٠٠٠، ثم تكرار هذا العدوان.

إن ذاكرة الأمة تحفظ هذا السجل الإجرامي الصهيوني. وسيبرز في التاريخ السياسي، عند الحديث عن «عملية سلام الشرق الأوسط» التي «صممتها» الولايات المتحدة الأمريكية «ورعتها»، مدى التناقض بين شعار السلام الذي رفعته وتسمت به، وواقع تصعيد العدوان الصهيوني في ظلها بدعم أحياناً أو سكوت أحياناً أخرى من مصممها وراعيها الأمريكي.

الاستجابة العربية للتحدي الصهيوني بالمقاومة

إذا كانت المرحلة الراهنة من الصراع العربي الصهيوني التي بدأت بمؤتمر مدريد عام ١٩٩١ حفلت بتحدي التآمر الأمريكي على حقوق شعب فلسطين العربي، وتحدي الصهيونية العنصرية وهي تصعّد عدوانها، فإنها شهدت في الوقت نفسه استجابة الأمة على هذا التحدي بالاستمرار في المقاومة. وهكذا رأينا ظهور الفكر المقاوم الذى قام، انطلاقاً من كونه «الرائد»، بشرح حقائق عملية التسوية وكشف ما خفي منها وتحليلها، والرائد لايكذب أهله. ورأينا تفجر الروح المقاومة، والانتشار التدريجي لثقافة المقاومة. ورأينا، على الصعيد الشعبي، كيف أعلن الشعب، بعد أن اختبر ما يجري على أرض الواقع، التزامه بالمقاومة ودعمه لأبنائه المقاومين. وهكذا ارتفع شعار «الاعتصام بالمقاومة» في سماء الوطن العربي الكبير.

نجحت هذه المقاومة في مواجهة محاولة قوى الهيمنة الأمريكية فرض نظام الشرق الأوسط، فتوقفت المفاوضات متعددة الأطراف بعد فترة قصيرة من الشروع فيها. ونجحت المقاومة في اخراج «النظام العربي» من التجميد الكامل الذي استهدفه بعد مؤتمر مدريد. فكان أن التقت مصر وسورية والسعودية في اجتماع الاسكندرية آخر عام ١٩٩٤، ثم في اجتماع دمشق ١٩٩٦/٦، وانعقدت قمة عربية في مطلع صيف عام ١٩٩٦. ومع أن العراق غاب عن هذه القمة، ومع أن الضغوط الدولية حالت دون تكرارها في السنوات الثلاث التالية رغم الحاح الحاجة إليها، إلا أن نداءها استمر ملحاً وازداد قوة. وبرزت المقاومة في مواجهة محاولات أمريكا فرض التطبيع على دول عربية صغيرة ومحاصرة ما نجح من هذه المحاولات. وهكذا بدأ تعثر المؤتمر الاقتصادي منذ عام ١٩٩٦، في دورته الثالثة، وتأكد هذا التعثر في دورته الرابعة عام ١٩٩٧، ثم توقف في العامين التاليين. وحاصرت المقاومة الثقافية محاولات التحالف الأمريكي الصهيوني نشر «ثقافة سلام مزعوم» بهدف تكريس الاحتلال والاغتصاب، وطرحت ثقافة المقاومة «ثقافة السلام القائم على العدل الذي لا يتحقق إلا بانتصار المقاومة والحقوق العربية الثابتة».

كان أروع تجليات المقاومة استمرار المقاومة المسلحة في جنوب لبنان، وفي عمليات فدائية داخل فلسطين. وقد أفشلت الأمة محاولات التحالف الأمريكي الصهيوني المستميتة وصف المقاومة بأنها ارهاب، وقاومت بشدة محاولات بناء حلف دولي معه

لمحاربتها. واستطاعت معركة صمود لبنان أن تفرض تفاهم نيسان الذي أجبر طرفي التحالف على التسليم بوجودها. وبدأت في الظهور صور من المقاومة لم تكن في حسبان العدو حين تم ابرام اتفاقات أوسلو، ومنها ما حدث في هبة القدس أول خريف ١٩٩٦، حين وقفت الشرطة الفلسطينية التي تحكمها هذه الاتفاقات مع المتظاهرين الفلسطينيين ضد فتح النفق تحت المسجد الأقصى، وردت باطلاق النار على جنود إسرائيليين اقترفوا جريمة قتل عشرات منهم.

تحول هام لصالح المقاومة

نتابع إمعان النظر في واقع الصراع العربي الصهيوني في مرحلته الراهنة التي بدأت بانعقاد مؤتمر مدريد في ١٩٩١/١٠/٣٠، ومباشرة عملية تسوية «صممتها» الولايات المتحدة الأمريكية «ورعتها» وأسمتها «سلام الشرق الأوسط». فيتأكد لنا ونحن في مطلع خريف عام ٢٠٠٠ أن تحولاً هاماً تحقق في هذا الصراع منذ عام ١٩٩٦، لصالح قوى الصمود والمقاومة في الأمة في مواجهتها لطرفي التحالف الاستعماري الصهيوني: الصهيونية العنصرية وقوى الهيمنة الدولية. وقد جاءت «هبة الأسرى» في فلسطين المحتلة في الذكرى الثانية والخمسين لنكبة فلسطين، وجاء انتصار المقاومة في جنوب لبنان ونجاحها في تحقيق الانسحاب الإسرائيلي منه وتحرير الشريط الحدودي المحتل يوم ٢٠٠٠/٥/٢٣، واحتفال لبنان ومعه الوطن العربي كله «بيوم التحرير والمقاومة» في ٢٠٠٠/٥/٢٥، ليقدما مثلين على هذا التحول، وليرسما صعوداً في الخط البياني للصمود والمقاومة في هذا الصراع. وما أعظم ما فعله هذا الانتصار، الذي جاء تتويجاً لنضال امتد عقدين من السنين، في صنع مناخ عربي مفعم بالثقة، انتقل بالأمة من مناخ مثقل بالاحباط أحاط بها في هذه المرحلة من الصراع.

مظاهر التحول

مظاهر هذا التحول بدأ الارهاص بها منذ آخر عام ١٩٩٤ على الصعيد العربي الرسمي بانعقاد قمة الاسكندرية بين مصر وسورية والسعودية. وقد سبق على الصعيد العربي الشعبي، إثر تبدد مفعول الاعلام المتفائل الذي رافق ابرام اتفاق أوسلو في ١٩٩٣/٩، واتفاق غزة - أريحا في ١٩٩٤/٥، واتفاق وادي عربة في ١٩٩٤/١٠، وتجلي الحقائق على أرض الواقع واستمرار العدوانية الصهيونية العنصرية في صور عدة. وكان أن عبّرت المقاومة في فلسطين وجنوب لبنان عن الارادة الشعبية في عمليات

فدائية مؤثرة. وبرز دور خاص للفكر المقاوم في تلك الفترة، وبخاصة في تصديه لمشروع نظام الشرق الأوسط الأمريكي الإسرائيلي. حتى إذا ما جاءت سنة ١٩٩٦ رأينا التحول يتجلى في أحداث متتالية مترابطة نكتفي بعناوينها: استمرار المقاومة اللبنانية في عمليات متميزة، ومثلها المقاومة الفلسطينية التي برز فيها الشهيد المهندس يحيى عياش وقيام الصهيونية العنصرية بتدبير اغتياله، ورد المقاومة القوى في عمليات بالقدس المحتلة ومواقع أخرى، وتدخل الولايات المتحدة الأمريكية في محاولة لفرض مكارثية عالمية تستهدف «المقاومة» أينما كانت باتهامها بأنها «ارهاب»، وقيام الكيان الإسرئيلي، بموافقة أمريكية، بعدوان بشع على لبنان جرت فيه مذبحة قانا، وصمود المقاومة اللبنانية البطولي ونجاحها في الوصول إلى اتفاق تفاهم نيسان / ابريل ١٩٩٦ الذى كان اعترافاً فعلياً بالمقاومة، وسقوط شمعون بيريس في الانتخابات الإسرائيلية ونجاح بنيامين نتنياهو رئيساً للوزراء منتخباً، واعلانه برنامجه العدواني الصهيوني الذي ضمنه كتابه العنصري «مكان تحت الشمس» أو «مكان بين الأمم».

منطق الفعل وتجاوب الأمة معه

تجلى في هذا التحول لصالح قوى الصمود والمقاومة في الأمة، منطق الفعل الذي بلور ارادةً سعت سعيها لتوفير القدرة على الفعل. وحين نتأمل في كيفية تكوّن منطق الفعل هذا في أوساط الأمة، نجد أن مراجعة حدثت في أوساطها لرؤيتها للطرف الصهيوني في الصراع، في ضوء ممارساته أثناء عملية التسوية الجارية، ولحقيقة توجهاته التي حكمها العدوان، ولمفهومه للسلام الذي يعني لديه فرض الاستسلام، ولعلاقاته بقوى الهيمنة الدولية وأهدافهما المشتركة، وبصفة عامة لطبيعة هذا الصراع. كما نجد أنه كان للفكر العربي دوره الخاص المتميز في هذه المراجعة انطلق في أدائه من استحضار ثوابت الأمة والنظر في حقائق الواقع القائم - وقد جرى طرح هذا الفكر في محافل قطرية وأخرى قومية مثل المؤتمر القومي العربي والمؤتمر القومي - الإسلامي - وارتفع شعار «الاعتصام بالمقاومة» في هذه المحافل.

إن من ملامح المرحلة الراهنة في الصراع العربي الصهيوني تجاوب الأمة مع «الفعل» الذي أثمره منطق الفعل. وقد رأينا هذا التجاوب مع كل عملية مقاومة جرت داخل فلسطين أو في جنوب لبنان. ورأيناه في كل «فعل مبادر» في إطار العمل

السياسي، مثل امتناع بعض الدول العربية عن المشاركة في المؤتمر الاقتصادي الشرق أوسطي عام ١٩٩٧، ونجاح انعقاد المؤتمر الإسلامي في طهران عام ١٩٩٧، وحتى التصريحات التي عبرت عن دبلوماسية المقاومة حظيت بهذا التجاوب. وقد شهد شهر شباط/فبراير لعام ٢٠٠٠ حدثين نالا تجاوباً عظيماً. جرى الأول على الصعيد الرسمي، وهو زيارة الرئيس المصري محمد حسني مبارك للبنان يوم ٢/١٩ في أعقاب قيام الصهاينة العنصريين بضرب ثلاث محطات كهربائية لبنانية. وجرى الآخر على الصعيد الشعبي، وهو قيام طلاب من جامعة بيرزيت برشق «جوسبان» رئيس الوزراء الفرنسي بالحجارة في الأسبوع الرابع من ذلك الشهر لأنه وصف المقاومة اللبنانية ضد الاحتلال الصهيوني العنصري بأنها «ارهاب».

كان لتجاوب الأمة مع «الفعل» في هذه المرحلة الراهنة تأثيره الفعال في تبديد احباط شاع، واشاعة الثقة والعزم في المناخ المحيط، وفي توليد «أفعال» دللت على ما تختزنه الأمة من حيوية، وفي ظهور «اعلام عربي فاعل».

آثار التحول

حين نركز النظر على أثر «منطق الفعل» الذي برز في الأمة على طرفي التحالف الاستعماري الصهيوني، نجد أن حكومة ليكود الإسرائيلية برئاسة نتنياهو اعتمدت العدوان وتصعيده في الرد عليه. وهكذا استهدفت اغتصاب جزء من مدينة الخليل. وكثّفت الاستيطان الصهيوني فى جبل أبو غنيم في القدس. كما نجد أن الإدارة الأمريكية تحركت لابرام اتفاق بشأن الخليل في ٩٧/١ بين السلطة الفلسطينية والحكومة الإسرائيلية عرف باسم بروتوكول الخليل. وقد تعطل تنفيذه جزئياً بسبب قيام الإسرائيليين بتكثيف الاستيطان.ووضع الصهاينة أيديهم على ٢٠٪ من المدينة العربية. وحين تولت مادلين أولبرايت وزارة الخارجية، خلفاً لكريستوفر في الولاية الثانية لادارة كلينتون، طرحت بسرية اقتراح اعادة انتشار اشتهر باسم ١٣٪ في مطلع عام ١٩٩٨. وواجهت هذه الادارة في صيف ذلك العام، إضافة إلى موقف الصمود الفلسطيني، حادثي تفجير السفارتين الأمريكيتين في نيروبي ودار السلام بافريقيا، وتململاً متزايداً في أوساط الدول الأوروبية من ادارة واشنطن لعملية التسوية، الأمر الذي دعاها إلى العمل لابرام اتفاق «نهر واي» بين الحكومة الاسرائيلية والسلطة الفلسطينية في ١٩٩٨/١٠. وهو اتفاق استهدف تنفيذ ما لم ينفذ من اتفاق أوسلو ٢ الذي تم ابرامه في ١٩٩٥/٩، والتمهيد

للبدء في مفاوضات ما أسمته «الوضع النهائي» بقضاياه الأربعة: القدس واللاجئين والاستيطان والحدود، ووضعت له جدولاً زمنياً.

لقد شهدت الأيام الأخيرة من عام ١٩٩٨ أحداثاً هامة تتعلق بالصراع العربي الصهيوني. وكان أبرز هذه الأحداث زيارة الرئيس كلينتون إلى غزة وبيت لحم يوم ١٢/١٤، بعد أن زار الكيان الإسرائيلي في اليوم السابق. وقد أكد أثناء زيارته للقاعدة الاستعمارية الاستيطانية الصهيونية العنصرية دعم واشنطن وجودها واعتمادها عميلاً لها في المنطقة وضمان أمنها. وأضاف لتأكيده هذا «لمسة» التزام «ديني» حين روى وصية مرشدة الديني له بالحرص على «اسرائيل». ولم يكن في ذلك جديد. وإنما كان الجديد الذي أثمره منطق الفعل العربي هو زيارته لأراضي الحكم الذاتي الفلسطينية لكونها أول زيارة من هذا النوع يقوم بها رئيس أمريكي. وقد حرصت الإدارة الأمريكية على أن تحدد بدقة حدود هذا الجديد سواء فيما قاله رئيسها أو فيما فعله. فعلى صعيد القول عبر عن فخره بأنه أول رئيس أمريكي يقف مع «الشعب الفلسطيني»!! وتحدث عن فرصة أمام الفلسطينيين ليقرروا مصيرهم الذين يخصهم على أرضهم، ووعد بمساعدتهم «بخلق المجتمع الذي يستحقونه». وعلى صعيد الفعل، شهد اجتماع المؤسسات الفلسطينية، وتحدث أمام أعضائها، وتابع ما جرى في الاجتماع بشأن تعديل الميثاق الفلسطيني. وكان مؤتمران شعبيان انعقدا لتأكيد تمسك شعب فلسطين بميثاقه، أحدهما بدمشق والآخر في رام الله.

لعل أبرز ما حدث على صعيد التعامل الأمريكي مع الصراع العربي الصهيوني في عام ١٩٩٩، هو اصدار الادارة الأمريكية يوم ١٩٩٩/٤/٢٦ تصريحاً حول عملية سلام الشرق الأوسط بشأن عملية السلام الإسرائيلية – الفلسطينية، تضمن استهلالاً وشرحاً لخطوات أربع للتحرك في عملية التسوية الجارية. ثم قيام الرئيس كلينتون بارسال رسالة مكتوبة إلى «الرئيس عرفات» قبيل ١٩٩٩/٥/٤ وهو الموعد الذي كانت السلطة الفلسطينية قد حددته لاعلان الدولة الفلسطينية. وقد جاءت هذه الرسالة في تسع فقرات وتمت صياغتها باسلوب دقيق وبلغة محسوبة. وتضمنت في طياتها التصريح الأمريكي بنصه الحرفي تقريباً في فقرتي ٦ و٧، وحديثاً عن العلاقة الشخصية بين المرسل والمرسل إليه، واقراراً بما اعتور عملية أوسلو من سلبيات، واعترافاً بما عاناه شعب فلسطين من جراء ذلك، واستذكاراً لما تم الاتفاق عليه في مذكرة «نهر واي»، وحثاً على متابعة التنفيذ، ووعداً بمواصلة العمل من أجل أن ينفذ الجانب الإسرائيلي التزاماته،

وصولاً إلى تحقيق تطلعات الشعب الفلسطيني في أن يقرر مستقبله على أرضه (دون تحديد لمعاني التطلعات والمستقبل والأرض)، واعترافاً بما للنشاط الاستيطاني الإسرائيلي ومصادره الأراضي وهدم البيوت من تأثير تدميري على مسعى التوصل للسلام الفلسطيني – الإسرائيلي، والتزاماً بتعزيز ما أسماه الشراكة الأمريكية – الفلسطينية. وقد بينت هاتان الوثيقتان الأمريكيتان أن الادارة الأمريكية عازمة على توفير قوة دفع لاتمام عملية التسوية في غضون عام وبعض العام قبل انتهاء ولاية كلينتون في مطلع عام ٢٠٠١.

«عام خاص» في التسوية

لقد تتالت الأحداث منذ ربيع ١٩٩٩ لتؤكد أن الصراع العربي الصهيوني يمر في «عام خاص». وكان أبرزها اجراء انتخابات إسرائيلية في شهر أيار / مايو قبل موعدها المعتاد بعام كامل. وقد ظهر أثر منطق الفعل الذي اعتمده بعض العرب فيها من خلال سقوط بنيامين نتنياهو الذريع، ونجاح يهودا باراك الذي التزم أمام الادارة الأمريكية بالمضي في عملية التسوية. وكذلك من خلال ما بدا من اهتزاز في الواقع الإسرائيلي الداخلي إبان الحملة الانتخابية. وعلى الرغم من أن باراك حاول عبثاً تأجيل تنفيذ ما ألزمته به واشنطن معتمدا التسويف أحياناً واصطناع أزمات أحياناً، إلا أنه كان آخر الأمر مضطراً إلى الانصياع للرغبة الأمريكية في متابعة عملية التسوية على المسار الإسرائيلي – الفلسطيني. وقد شهد آخر عام ١٩٩٩ تحرك عملية التسوية على المسار الإسرائيلي – السوري بعد أن أقرت الحكومة الإسرائيلية بوجود ما تعهد به اسحق رابين أثناء توليه رئاسة الوزارة بالانسحاب إلى خطوط ١٩٦٧/٦/٤. وإذا كانت المفاوضات على هذا المسار تعثرت بسبب تمسّك تسورية بحقوقها الكاملة في الجولان، وخلاف حول الخطوط يتصل بمياه بحيرة طبرية، وإذا كانت قمة جنيف بين الرئيسين كلينتون والأسد لم تحقق نجاحاً في تذليل ذلك الخلاف، إلا أن اتجاه الأحداث لا يستبعد احتمال الوصول إلى تسوية مستقبلاً. والأمر نفسه يصدق على المفاوضات الإسرائيلية – الفلسطينية التي لم تفتأ تتعثر، بينما يقترب الموعد المحدد للانتهاء منها في آخر صيف هذا العام ٢٠٠٠. وتجدر الإشارة هنا إلى أن أثر منطق الفعل تجلى إلى حد ما في سلوك المفاوض الفلسطيني الذي أبدى تمسكاً بقرارات الشرعية الدولية بشأن قضايا ما سمي بالوضع النهائي وهي: القدس واللاجئون والاستيطان الصهيوني والحدود، وإن كان من الضروري تأكيد ضرورة الابتعاد عن مخاطر التفاوض السري.

بقي أن نشير ونحن نتحدث عن الواقع القائم في المرحلة الراهنة للصراع إلى تحرك شعبي فلسطيني رفع شعار «لابديل عن عودة اللاجئين الفلسطينيين وتعويضهم»، عبّر عنه بيان حمل مائة توقيع لشخصيات فلسطينية عامة وصدر في شهر آذار/مارس من عام ٢٠٠٠.

ثانياً: نتائج وتوقعات وما ينبغي عمله

اقتناع راسخ لدى قوى النهوض في أمتنا العربية بأن السبيل لانتصارنا على المشروع الصهيوني هو بتحقيق المشروع الحضاري العربي بأهدافه كلها. فمواجهتنا لقوى الهيمنة الدولية وللصهيونية، طرفي التحالف الاستعماري الصهيوني، ذات طابع حضاري وتتطلب رؤية حضارية. ومن هنا تأتي أهمية تتبع ما بلغ إليه العمل لتحقيق كل من هذه الأهداف في المرحلة الراهنة من الصراع العربي الصهيوني.

لقد أكدت أحداث الصراع على أهمية تكثيف الجهود لتحقيق هدف الديموقراطية والشورى وكرامة الانسان. فغيابها أورث الدول العربية ضعفاً وسبب كوارث. ومع أن عقد التسعينات شهد جهوداً مخلصة لتحقيق هذا الهدف، إلا أن ما تحقق هو دون المطلوب بكثير. ومن هنا تأتي ضرورة ايلاء عناية خاصة على صعيدي الفكر والفعل لتحقيقه، ومن ثم لصياغة المشروع الوطني الذي يلتقي عليه أبناء الشعب ويعملون لانجازه. والأمر نفسه يصدق على هدف العدل الاجتماعي وهدف التنمية.

ولقد كان هدف التوحيد أكثر ما استهدفه التحالف الاستعماري الصهيوني بالتخريب في هذه المرحلة، بغية القضاء على النظام العربي واستبداله بالنظام الشرق أوسطي. واستطاعت قوى النهوض أن تحقق صمود النظام العربي ولو بحدود دنيا. وهي تحاول جاهدة اعادة الفعالية إليه، وتسعى لانتظام عقد مؤتمر القمة العربي الذي يقوده، والتغلب على قرار قوى الهيمنة الدولية بمنع انعقاده. ولاشك في أن التحول الهام الذي حدث لصالح قوى الصمود والمقاومة في الأمة على صعيد مواجهتها لطرفي التحالف الاستعماري الصهيوني في الصراع، بما صنعته من مناخ مفعم بالثقة، سوف يمكّن قوى النهوض من مضاعفة جهودها لتحقيق مشروع الأمة الحضاري.

مجموعة نتائج يمكن استخلاصها من تقويم حصاد قرن من المواجهة بين المشروعين، ومن استقراء الواقع الراهن للصراع العربي الصهيوني:

– ازدياد الاقتناع لدى الغالبية في أوساط طرفي الصراع بحتمية استمراره. وقد كان لمسار عملية التسوية الراهنة الأثر الأقوى في الوصول إلى ذلك. وعلى الرغم من أن طرف التحالف الاستعماري الصهيوني دائب على تسويق ما يسميه «ثقافة السلام»، وعلى الرغم من أن قلة من الطرف العربي تستجيب له لعدة أسباب، فإن ما حفلت به المرحلة الراهنة من تصعيد للعدوان الإسرائيلي وللممارسات الإسرائيلية العنصرية، ومن كشف لسكوت الإدارة الأمريكية عن هذا العدوان وهذه الممارسات في أحسن الأحوال ودعمها في أغلب الأحوال، جعلت من الحديث عن «ثقافة السلام»، مجرد الحديث، مدعاة للسخرية المرة لايجوز على صاحب بصيرة، وأقرب في حقيقة الأمر إلى «ثقافة استسلام». والشعوب بفطرتها لاتقبل الا استتباب العدل طريقاً للسلام.

– ادراك واسع في أوساط الطرف العربي بأن نشوب هذا الصراع، واستمراره أكثر من قرن، وحتمية استمراره في حال استمرار معطياته، وثيق الصلة باعتماد قوى الهيمنة الدولية استراتيجية عدوانية تجاه الأمة العربية لتأمين مصالحها، واعتمادها الحركة الصهيونية لتنفيذ هذه الاستراتيجية. وهكذا فإن الوصول بهذه القوى إلى الاقتناع عملياً بأن هذه الاستراتيجية وهذه الوسيلة تضر بمصالحها وتهددها، وذلك من خلال المواجهة العربية الفعالة، هو السبيل لانهاء الصراع.

– ادراك واسع مماثل في أوساط الطرف العربي بأن حتمية استمرار الصراع وثيق الصلة بتسلط الحركة الصهيونية على تجمعات اليهود في أوطانهم، وتسخيرهم لخدمة قوى الهيمنة الدولية وخدمتها، بغض النظر عما ينجم عنه من تهديد لكل يهودي بالولاء المزدوج وبتنامي حركات «المعاداة للسامية» في الغرب. وهكذا فإن السبيل إلى انهاء الصراع هو الوصول باليهود إلى نبذ الصهيونية.

– وضوح حقيقة أن التحالف الاستعماري الصهيوني لم يستهدف فلسطين بغزوته لذاتها فحسب بل لمكانها فى الدائرتين العربية والحضارية الإسلامية. وهكذا فإن الصراع ليس إسرائيلياً فلسطينياً فحسب، بل هو صهيوني عربي اسلامي تستهدف به قوى الهيمنة الأمة العربية والعالم الإسلامي والحضارة العربية الاسلامية. ومواجهته تتطلب استنفار طاقات الدائرتين العربية والاسلامية.

– اقتناع راسخ بأن المقاومة كانت ولاتزال هي السبيل لمواجهة هذه الغزوة،

وأنه لابد من اعتمادها بمعناها الواسع الشامل، وبأبعادها جميعها الروحية والفكرية والسياسية والثقافية والاقتصادية والمسلحة، وأنها تتطور بأساليبها.

– ادراك بأن لعصر العولمة حقائقه، وأن أساليب قوى الهيمنة فيه والصهيونية تتطور، الأمر الذي يتطلب تطوير أساليب المقاومة.

– ادراك بأنه على الرغم من قوة التحالف بين قوى الهيمنة والحركة الصهيونية فإن هناك تناقضات قائمة بينهما يستطيع منطق الفعل العربي أن يغذيها. وهكذا فإن سبيل السلام هو العمل لتعظيم التناقض بين القاعدة الصهيونية في فلسطين المحتلة وموجدها، وصولاً إلى اللحظة التاريخية التي يتخلى فيها الموجد عن القاعدة التي أوجدها.

– اقتناع راسخ في أوساط الأمة أن هذا الصراع صراع ممتد مرّ بمراحل، وأنه يتطلب النفس الطويل، وأن أمتنا قادرة على استمرار خوضه لأنها خبرت المواجهة، وأنها باتت أكثر خبرة به وبالتعامل معه، وأنها خبرت أيضاً العالم المحيط بها الذي يجيش بتفاعلات سوف ترهق قوى الهيمنة الدولية.

والآن، ماذا عن مستقبل هذا الصراع؟ ما الذي يمكن أن يقوله جيل الشيوخ بشأنه لأجيال الأمة على عتبة الألفية الثالثة، في عصارات؟

نستذكر أولاً أن استشراف المستقبل وتشوفه ورؤيته توطئة لصنعه تقع في نطاق علم دراسة المستقبل وفقاً لمنهج البحث العلمي، وليس مجرد تنبؤ. وأنه يأخذ في الاعتبار حقائق الواقع القائم ومجرى الحركة التاريخي، وأنه من ثم يضع في حسابه مشروع الأمة الحضاري الذي تطمح إلى تحقيقه وعزمها على العمل الدائب لتحقيقه، وبأن لله عباداً إذا أرادوا أراد، وأن هناك في المستقبل مدى قصيراً وآخر متوسطاً وثالثاً طويلاً. وهذا الاستذكار يدعونا إلى تكثيف الجهود في إقامة مراكز علمية متخصصة تتناول مختلف أطراف الصراع وجوانبه وجزئياته، وكيفية توظيف العلم لكسب المعركة والانتصار في الصراع.

* لا نستطيع أن نستبعد احتمال التوصل في مدى المستقبل المنظور إلى تسوية وفقاً «لعملية سلام الشرق الأوسط» التي «رعتها» الولايات المتحدة ووفرت قوة دفع لاتمامها. واضح مما حدث فى مفاوضات ما سمي بالوضع النهائي، (كامب ديفيد

الثانية)، حول قضايا القدس واللاجئين والاستيطان الصهيوني العنصري والأرض، أن الحل الذي قد تثمره مثل هذه التسوية، في حال حدوثها، هو حل لا يلبي الحد الأدنى من الحقوق الوطنية الثابتة للشعب العربي الفلسطيني وللأمة العربية، وأنه من ثم «هش» لأن الحلول المملاة العنصرية لا تأتي بسلام. ولكن هذا الحل قد يسفر عن إقامة دولة فلسطينية على جزء ضئيل من مساحة فلسطين لاتتجاوز ١٣٪، يجرى الاعتراف بها دولياً وبالهوية الفلسطينية، وإن كانت مجردة من كثير من خصائص «سيادة الدول». وهكذا تبرز حقيقة جديدة يجب إحسان التعامل معها في متابعة خوضنا الصراع.

* من المتوقع في ظل هذا الحل العنصري لقضية فلسطين أن تستمر قضية القدس حية بين العرب مسلمين ومسيحيين، والمسلمين بعامة، في ضوء تشبث «إسرائيل» بجعلها عاصمة أبدية (كذا!). والأمر نفسه بشأن قضية اللاجئين الفلسطينيين في ضوء تشبث «إسرائيل» برفض عودتهم وتعويضهم، وبشأن قضية المستوطنين الصهاينة في الضفة الغربية وقطاع غزة في ضوء تشبث «إسرائيل» ببقائهم في الأراضي التي اغتصبوها وتشجيعهم على العدوان. وهكذا فإن هدف استعادة القدس، وهدف عودة اللاجئين، وهدف ازالة المستعمرات الاستيطانية من الضفة والقطاع، سوف تبقى نصب العين تنفخ في روح المقاومة الفلسطينية وفي أوساط الأمة العربية والشعوب الإسلامية. ومن المتوقع أن تشهد هذه المقاومة ابداعاً في وسائلها مستنداً على قاعدة من البحث العلمي، توفرها مراكز بحث متخصصة، تبحث في كل من أبعاد المقومة بهدف احسان توجيهها وتصعيدها والاعلام عنها.

واضح في ضوء ما سبق أن التسوية التي يمكن التوصل إليها في المدى القصير لن تأتي بحالة «السلام» المنشود. وإنما تأتي بحالة ما اصطلح على تسميته «بالسلام البارد» في أحسن الأحوال، وحالة «عدم الحرب» غالباً. ولذا فإن الحاجة إلى إيجاد حل صحيح للصراع ودواء ناجع للتعامل مع التحالف الاستعماري الصهيوني تبقى أمراً ملحاً، يحث على بلورة «رؤية» تتبناها الأمة، وتصوغ بموجبها مشروعها للحل المنطلق من مشروعها الحضاري.

إن مستقبل المواجهة بين المشروع الحضاري العربي والمشروع الصهيوني يتحدد تبعاً لمدى تأثيرنا نحن العرب على العوامل التي يقوم عليها الاستعمار الاستيطاني الصهيوني، وهي: تجمّع المستعمرين المستوطنين الصهاينة في فلسطين المحتلة من

اليهود الإسرائيليين، والصلة بين الكيان الإسرائيلي بوصفه قاعدة استعمارية استيطانية وقوى الهيمنة الغربية التي أوجدته ودعمته في أوروبا والولايات المتحدة الأمريكية، والمحيط الدولي.

– بالنسبة لليهود الإسرائيليين في الكيان الاسرائيلي، استطاعت المؤسسة العسكرية الصهيونية التي تحكمت في أوضاعه أن توجد توافقاً بين غالبيتهم على «حق إسرائيل في الوجود وحقها في الأمن وضمان هذا الأمن عن طريق إسرائيل ذاتها وليس عن طريق الدول الكبرى من خلال ترتيبات أمنية» تفرض على العرب. وخارج عن هذا التوافق حركات: كاهانا وكاخ ومولیدت التي تتبنى صهيونية عنصرية سافرة، وحركات يهودية تناهض الصهيونية مثل ناطورا كارتا (حراس المدينة). ولكن التجمع اليهودي الإسرائيلي يشهد، رغم ذلك التوافق، تناقضات بين الاشكناز الغربيين والسفارديم الشرقيين، وبين علمانيين ومتدينين، وبين أغنياء وفقراء. كما يشهد خصوصية لوضع يهود الوطن العربي الذين هجّرتهم الصهيونية من أقطارهم العربية، وكذلك يشهد الكيان الإسرائيلي خصوصية لوضع عرب فلسطين المحتلة عام ١٩٤٨ الذين فرضت عليهم الجنسية الإسرائيلية ومارست الصهيونية عليهم عنصريتها. وهذه التناقضات قابلة للتفاقم إذا أحسنت الرؤية العربية التعامل معها. وقد أولتها دراسات جادة عنايتها. وهي تفسر تخوّف بعض الصهاينة من «التسوية»، «لأن المطالب الاجتماعية ستلح، وقد يشكل اليهود الشرقيون، وهم خمسون بالمائة، مع العرب وهم عشرون بالمائة، جبهة واحدة تهدد الاشكناز»، على حد قول لطيف دوري يوم ٢٠٠٠/٤/١٦ لمندوب صحيفة الاتحاد الاشتراكي المغربية.

إن آفاق العمل لاقناع قطاع من اليهود الإسرائيليين بنبذ الصهيونية سبيلاً للسلام العادل رحبة. وموضوع ما بعد الصهيونية، في ضوء ما كشف عنه «المؤرخون الجدد» من سجلها العنصري، مطروح اليوم. ويبقى أن تتبنى الدول العربية خطة علمية تنطلق من رؤيتنا الحضارية للحل، وتتعامل مع اليهود الذين كانوا مواطنين فيها، وتخاطب الآخرين بهدف الوصول إلى نبذ الصهيونية.

– بالنسبة للصلة بين الكيان الإسرائيلي وقوى الهيمنة الغربية التي أوجدته وتدعمه، تبرز من جهة مسألة تحكم الحركة الصهيونية بتجمعات اليهود في أوطانهم. وواضح من دراسات كثيرة وجود معارضة يهودية لهذا التحكم لما يسببه لليهود من

أخطار، من بينها خطر الولاء المزدوج، وخطر عزلتهم واستهدافهم بالمعاداة للسامية. وآفاق العمل رحبة أمام الدعوة بينهم لنبذ الصهيونية. كما تبرز من جهة أخرى مسألة تهديد مصالح الدول المساندة للعدوان الصهيوني في وطننا. وتبرز من جهة ثالثة مسألة العلاقة بين الصهيونية اليهودية والمسيحية الصهيونية التي تتبناها «نحل» ظهرت بين مسيحيي الغرب. وواضح أن ما تشهده دائرة الحضارة الغربية من وجود تجمعات عربية اسلامية فيها، وأن ما تراكم من خبرات متزايدة في التعامل مع الغرب ومجتمعاته، يجعل آفاق العمل رحبة لمحاصرة الصهيونية والقارونيين الجدد من قادة قوى الهيمنة.

– بالنسبة للمحيط الدولي، نجده اليوم حافلاً بالتفاعلات التي تشير إلى امكانية العمل لتأليبه على الصهيونية العنصرية وعلى قوى الهيمنة.

وبعد ...

فإذا كانت آفاق العمل رحبة لمواجهة المشروع الصهيوني في مراحل الصراع العربي الصهيوني القادمة، فإن مباشرة هذا العمل تتوقف على قدرتنا نحن العرب على القيام بقفزة في تحقيق مشروعنا الحضاري بأهدافه كلها، وأولها وأشدها الحاحاً، الشورى والديموقراطية وكرامة الانسان. وقد بلور الفكر العربي المعاصر سبيل ذلك. فمن الواضح أن مثل هذا العمل يتطلب بناء قوة عربية فاعلة قادرة. كما تتوقف مباشرة هذا العمل على اتفاق الدول العربية من خلال توافق الأمة جمعاء على الحل الصحيح للصراع في المدى المتوسط، بعد أن ينكشف فشل الحل العنصري في المدى القصير. وهذا الحل العنصري في المدى القصير. وهذا الحل الصحيح هو عيش «اليهود» في أوطانهم باعتبارهم مواطنين يدينون باليهودية التي هى دين وليست «قومية» كما تزعم الصهيونية، بما في ذلك يهود الوطن العربي، على قدم المساواة مع بقية المواطنين؛ وتحرير فلسطين من الصهيونية العنصرية، ودعوة اليهود لنبذ الصهيونية العنصرية كي يعيشوا مستأمنين في أوطانهم.

إن مواجهة مشروعنا الحضاري العربي للمشروع الصهيوني بعد مضي قرن من الصراع العربي الصهيوني أمر حتمي. ولابديل لنا فيه من الانتصار. ونضالنا فيه يقع في إطار نضالنا لبناء عالم إنساني تتعاون فيه الحضارات بدل أن تتصارع، من أجل حماية أمنا الأرض، وتحقيق كرامة الإنسان أينما كان.

الباب الثانى

قضية فلسطين و«عام خاص»

القضية الفلسطينية

فلسطين التي تنسب لها هذه القضية، هي أرض باركها الله سبحانه، بأن جعل فيها المسجد الأقصي فى بيت المقدس، وأسري بعبده محمد بن عبد الله خاتم النبيين إليه من المسجد الحرام وعرج به منه إلى السماء من آيات ربه الكبرى، وبارك حوله، وهي الأرض التي بعث الله فيها عيسى بن مريم وعدداً من النبيين، وعاش فيها أبو الأنبياء ابراهيم خليل الرحمن، عليهم جميعاً صلوات الله وسلامه. وفلسطين هذه تشكل الشطر الجنوبي الغربي من بلاد الشام وتجاور شبه جزيرة العرب ومصر.

والقضية الفلسطينية مصطلح برز قانونياً منذ عام ١٣٣٦هـ، عام ١٩١٧م، حين احتلت بريطانيا فلسطين ودخل الجنرال اللنبي مدينة القدس يوم ١٩١٧/١٢/١٨ وقال كلمته «الآن انتهت الحروب الصليبية». ويدل هذا المصطلح على جميع ما يتصل بفلسطين، شعباً وأرضاً وحضارة، وهي تواجه مع وطنها العربي ودائرة حضارتها الإسلامية تحالف قوى الهيمنة الغربية، القارونيين الجدد، مع الصهيونية العنصرية فى غزوة لها بغية اغتصابها وجعلها «وطناً قومياً لليهود» على حد تعبير تصريح بلفور، وقاعدة استعمارية استيطانية عنصرية للتسلط على الوطن العربي بخاصة والعالم الإسلامي بعامة.

كانت بريطانيا قد ركزت أطماعها على فلسطين والأقطار العربية فى الدولة العثمانية منذ أوائل القرن الثالث عشر الهجري مطلع القرن التاسع عشر الميلادي، إثر انتصار بلاد الشام ومصر على الغزوة الفرنسية التي قادها نابليون بونابرت. وعمدت فى نهاية ذلك القرن إلى تشجيع إقامة الحركة الصهيونية عام ١٨٩٧م ومساعدتها فى تهجير اليهود إلى فلسطين. كما قامت عام ١٩١٦م، ١٣٣٥هـ، بإبرام اتفاق سايكس - بيكو مع فرنسا لتجزئة بلاد الشام واستعمارها، متنكرة لوعودها للشريف حسين باستقلال بلاد العرب، ولم تلبث حكومة بريطانيا أن أصدرت يوم ١٩١٧/١١/٢ تصريحاً بالعمل على جعل فلسطين وطناً قومياً لليهود. وقامت بريطانيا بعد انهيار الدولة

العثمانية إثر الحرب العالمية الأولى باستعمار فلسطين تحت اسم «الانتداب» الذي قررته عصبه الأمم فى ١٩٢٢/٧/٢٤ وأقرت له «صكاً» لتنفيذ التصريح، وباشرت بريطانيا استعماراً قمعياً ظالماً وحشياً غير إنساني استهدفت به شعب فلسطين العربي بغالبيته المسلمة والمسيحية.

القضية الفلسطينية إذاً فى ضوء ما سبق هي قضية جهاد الشعب العربي الفلسطيني لتحرير وطنه المحتل فلسطين الذي رسم «الانتداب» حدوداً سياسية له تفصله عن بقية أقطار بلاد الشام ومصر، وتبلغ مساحته حوالي سبعة عشرين ألف كيلو متراً مربعاً. وقد برزت فيه عوامل دينية وحضارية وقومية واستراتيجية، وأبعاد محلية وإقليمية ودولية.

استمر هذا الجهاد طيلة مرحلة الاستعمار البريطاني الذي انتهى يوم ١٩٤٨/٥/١٥. وواجه فيه الشعب العربي الفلسطيني العدو المزدوج بريطانيا والحركة الصهيونية، مدافعاً عن بيت المقدس والوطن والعرض والمال وحضارته العربية الإسلامية والدين. واتبع فيه مختلف الوسائل القانونية والسياسية والانتفاضات والثورات التي منها ثورة البراق عام ١٣٤٨هـ، عام ١٩٢٩م وثورة القسام بعدها بأربع سنين والثورة العربية الكبرى بين عامي ١٣٣٥ و١٣٥٧ هـ، ١٩٣٦ و١٩٣٨م، وقد حظي هذا الجهاد بمساندة ابناء الأمة العربية والعالم الإسلامي الذين أدركوا أن تحالف قوى الهيمنة الغربية والصهيونية لم يستهدفوا فلسطين لذاتها فحسب، وانما للسيطرة على الوطن العربي وديار الإسلام بعامة. وتجلت هذه المساندة فى صور، كانت منها انعقاد المؤتمر الإسلامي فى بيت المقدس عام ١٣٥٩هـ، الموافق ١٩٣١م، وكان منها أيضا مشاركة مجاهديه فى الثورة العربية الكبرى.

وكاد هذا الجهاد أن يحقق بعض أهدافه لولا نشوب الحرب العالمية الثانية عام ١٩٣٩م، وبروز قوى الهيمنة الأمريكية التي تبنّت الحركة الصهيونية. وكان للولايات المتحدة دور خاص فى صدور قرار الأمم المتحدة الخاص بتقسيم فلسطين يوم ١٩٤٧/١١/٢٩، ثم فى إقامة «اسرائيل» فى ١٩٤٨/٥/١٥، خدمة للمصالح الأمريكية المتنامية فى الوطن العربي والعالم الإسلامي، المتطلعة للسيطرة على النفط بخاصة.

مرت القضية الفلسطينية بمراحل بعد إقامة إسرائيل، امتدت واحدة منها بين عامي ١٩٤٨ و١٩٦٧، وشهدت تدعيم الكيان الصهيوني بالمهجرين اليهود وبالسلاح، وتوظيف قوى الهيمنة الغربية له في مقاومة ثورة التحرير فى الوطن العربي والعالم الإسلامي، وأحد تجليات ذلك العدوان الثلاثي على مصر عام ١٩٥٦م، الذي دبرته بريطانيا وفرنسا وشاركت إسرائيل فى تنفيذه. كما شهدت هذه المرحلة استمرار جهاد شعب فلسطين العربي للتماسك بعد النكبة التي حلت به عام ١٩٤٨ من جهة ولإبراز كيانه من جهة أخرى. وقد قامت منظمة التحرير الفلسطينية تجسيداً لهذا الكيان فى ١٩٦٤/٥/٢٨ بدعم من الدول العربية. ومرحلة أخرى امتدت منذ نكسة حرب يونيو - حزيران عام ١٩٦٧ حتى زلزال الخليج عام ١٩٩١. وبرزت فى هذه المرحلة قضية الأراضي العربية التي احتلتها إسرائيل فى سيناء المصرية والجولان السورية إلى جانب القضية الفلسطينية التي دخل فيها احتلال اسرائيل لبقية فلسطين الضفة الغربية والقدس الشرقية وقطاع غزة. وشهدت هذه المرحلة حرب رمضان لعام ١٣٩٤هـ، عام ١٩٧٣م التي شاركت فيها مصر وسوريا وحققت لهما نصراً محدوداً، كما شهدت قيام «اسرائيل» باحتلال شريط فى جنوب لبنان عام ١٩٧٨ وبغزو الجنوب اللبناني عام ١٩٨٢. وبرزت منذ ذلك الحين المقاومة اللبنانية المباركة. واستمرت الثورة الفلسطينية فى هذه المرحلة، وحدثت الانتفاضة فى آخر عام ١٩٧٨. وشهدت المرحلة ابرام اتفاق كامب دافيد بين مصر وإسرائيل والولايات المتحدة الأمريكية عام ١٩٧٨ الذي أوصل إلى ابرام معاهدة السلام المصرية الإسرائيلية عام ١٩٧٩.

المرحلة الراهنة فى القضية الفلسطينية بدأت بعد زلزال الخليج بانعقاد مؤتمر مدريد يوم ١٩٩١/١٠/٣٠ الذي باشر ما أسمته الولايات المتحدة الأمريكية «عملية سلام الشرق الأوسط». وشهدت هذه المرحلة اعتراف قيادة منظمة التحرير الفلسطينية «باسرائيل» فى ١٩٩٣/٩/٩ وابرام اتفاقات أوسلو بإقامة «حكم ذاتي انتقالي فلسطيني محدود فى الضفة الغربية وقطاع غزة»، وابرام الأردن معاهدة سلام مع اسرائيل فى ١٩٩٤/١٠/٢٦. وباتفاقات اوسلو انحصرت القضية الفلسطينية فى مسائل اربع تتعلق بما أسمته الولايات المتحدة الوضع النهائي، هي القدس والمستعمرات الاستيطانية الصهيونية فى الضفة القطاع واللاجئون والحدود. كما شهدت هذه المرحلة المحاولة الأمريكية لإقامة «نظام الشرق الأوسط» فى دائرة الحضارة الإسلامية بقيادة إسرائيل.

دلائل كثيرة تشير إلى أن «عملية سلام الشرق الأوسط» حتى وإن وصلت إلى ابرام اتفاقات بشأن هذه المسائل الأربع، فإن القضية باقية وتدخل مرحلة جديدة يأخذ فيها الصراع العربي الصهيوني شكلاً آخر مختلفاً عما كان عليه طوال القرن الأول. وذلك لأن «الحل العنصري» للقضية الذي صممته قوى الهيمنة الأمريكية مع الصهيونية و«أملته» لم يعالج جوانب القضية بل جعلها تتفاقم وبخاصة فيما يتعلق ببيت المقدس التي يستهدف هذا «الحل العنصري» تهويدها وينذر بوقوع جريمة هدم المسجد الأقصى فيها وإقامة هيكل فى موضعه. وهكذا فإن من المتوقع أن تستمر القضية الفلسطينية وتدخل مرحلة أخرى فى صراع النفس الطويل التي تخوضها الأمة العربية والشعوب الإسلامية ضد قوى الهيمنة الغربية والصهيونية العنصرية إلى أن يتم تحرير فلسطين والقدس وينبذ اليهود الصهيونية فيعيشرا مستأمنين فى ظل الحضارة العربية الإسلامية.

الوجود اليهودي فى القدس

توظيف المنهج النقدي العلمي في دراسته

رؤية حول إعادة تحرير «تاريخ القدس» فى وجه الأدب الغربي

«القدس» فى عملية التسوية الجارية، أحد موضوعات أربع جرى تأجيلها كي تبحث فى مفاوضات ما سمي بالحل النهائي. وقد قصد «مصمم» عملية التسوية و«راعيها» فى مؤتمر مدريد تأجيل هذه الموضوعات كي يتمكن الاحتلال الإسرائيلي من فرض الأمر الواقع. وها هو ذا موعد مفاوضات الحل النهائي يقترب، وتتسلط أضواء قوية على قضية القدس من جميع جوانبها، وأحد هذه الجوانب هو «تاريخ القدس والوجود اليهودي فيها»، منذ أقدم العصور، وحاجتنا ماسة إلى استحضار هذا التاريخ والوقوف على حقيقته، لأن العدو بذل جهداً كبيراً لتعميم مزاعم باطلة تتعلق به.

واضح أن تخصيص تاريخ الوجود اليهودي فى القدس بالبحث، فى هذه الفترة، متصل بما تتعرض له القدس من اغتصاب الاستعمار الصهيوني لها بدعم قوى هيمنة دولية غربية، وقيام الحكومات الإسرائيلية بعد إقامة «إسرائيل» عام ١٩٤٨ بتهويد الجزء العربي من القدس الذي تم احتلاله اسرائيلياً، ثم قيامها عام ١٩٦٧ بتهويد الجزء الشرقي من القدس الذي احتله الجيش الاسرائيلي مع الضفة الغربية وقطاع غزة - بقية فلسطين - وسيناء المصرية والجولان السوري، كما أن هذا التوجه لبحث الوجود اليهودي فى القدس، متصل أيضاً بمجاهرة الحكومات الإسرائيلية المتعاقبة بأن القدس هي عاصمة إسرائيل الأبدية (كذا!!)، وبخاصة بعد بدء عملية التسوية السياسية فى مدريد يوم ٣٠ تشرين أول (أكتوبر) ١٩٩١ التي أطلقت عليها الولايات المتحدة حين «صممتها» اسم عملية «سلام الشرق الأوسط»، وجعلت قضية القدس واحدة من أربع قضايا يؤجل بحثها إلى مفاوضات الحل النهائي، وهو متصل كذلك بقرارات تدعم الاغتصاب الصهيوني للقدس اتخذها الكونغرس الأمريكي فى السنوات الخمس الأخيرة.

وقد دأبت الدعاية الصهيونية التي تشرف عليها الحركة الصهيونية فى الغرب على ترديد مزاعم كاذبة بشأن الوجود اليهودي فى القدس وتاريخ القدس وفلسطين بعامة، وتاريخ اليهود، بل بلغت جرأتها على الحق حداً غير مسبوق، وتجلى هذا التحرك الدعائي

فيما تجلي في ندوات نظمتها مراكز يهودية صهيونية عن الوجود اليهودي في القدس بعد إبرام اتفاق أوسلو الأول عام ١٩٩٣ بخاصة، وحاولت الايهام بأن القدس يهودية منذ نشأتها وعبر العصور والتقليل من شأن الوجود المسيحي والإسلامي في المدينة، كما تجلى أيضاً في كتب جرى تأليفها وتصريحات سياسية تتابع انطلاقها.

يقع هذا الإعلام الدعائي الصهيوني الذي يدعمه إعلام قوى هيمنة غربية في نطاق الصراع الدائر في فلسطين والمنطقة العربية منذ قرن بفعل الغزوة الصهيونية الاستعمارية الاستيطانية العنصرية لفلسطين، وهو صراع له أبعاده السياسية والاجتماعية والاقتصادية والثقافية والعسكرية، في إطار «حضاري» بين قوى الهيمنة في الحضارة الغربية والحضارة العربية الإسلامية، يحتدم فيه صراع الأفكار، ويتداعى إلى الخاطر مثل على صراع الأفكار هذا كتاب أشرف دافيد بن غوريون رئيس وزراء أول حكومة إسرائيلية، علي تحريره بنفسه وأسماه «اليهود في أرضهم» (The Jews In Their Land)، صدر عام ١٩٦٦ حاول الكتاب المشاركون فيه إثبات فكرة تعاقب «إسرائيل» منذ العصور القديمة، فعمدوا إلى صياغة تاريخ متصل لها لم يخرج في نهاية الأمر عن كونه تاريخ شعب فلسطين العربي في وطنه فلسطين، وهو شعب ضم في أوساطه أفراداً يعتنقون الدين اليهودي.

وقد كان هم بن غوريون – وهو مستعمر مستوطن يهودي صهيوني أوروبي – أن يضع تاريخاً «إسرائيليا» لفلسطين ليبعد صفة الاستعمار الاستيطاني عن حركته الصهيونية.

إن إمعان النظر وإعمال الفكر في كيفية تناول موضوع الوجود اليهودي في القدس، يدعو إلى الوقوف بداية أمام عدة أمور نعرض لها بإيجاز: الأمر الأول متصل بمصادر تاريخ القدس والوجود اليهودي فيها، وهذه المصادر تضم كتابات كثيرة قديمة وحديثة كما تضم آثاراً بقيت أو جرى التنقيب عنها واكتشافها ودراساتها. ولقد ورد الحديث عن القدس في كتب دينية منها العهد القديم والعهد الجديد ومنها القرآن، وحفلت كتب شروح هذه الكتب بأحاديث عن القدس، وتحدث عدد من المؤرخين القدامى عن القدس في العصور التاريخية المتعاقبة، وما أكثر ما كتبه مؤرخون حديثون عن القدس وتاريخها، وقد نشطت حركة التأليف عن آثار القدس في القرنين الأخيرين.

اختلفت مقاربات هذا التاريخ باختلاف من كتبوه، تبعاً للفترات التي عاشوا فيها، وللمعتقدات التي انطلقوا منها، ولقدراتهم على البحث والنظر والتأليف، ولما استهدفوه من كتاباتهم، ومن هنا تبرز أهمية النظرة النقدية العلمية التي تمحص هذا التاريخ وتنقد هذه المصادر بعد تقميشها (أي تحجيمها) ودراستها وفقاً لعلم مصطلح التاريخ الذي ظهر في الحضارة العربية الإسلامية، وكتب عنه أسد رستم، أسوة بعلم مصطلح الحديث.

تشتد الحاجة إلى هذه النظرة النقدية العلمية عند التعامل مع الكتب الغربية التي ألفها كتاب غربيون في العصر الحديث عن القدس وتاريخها. ومثل على ذلك ما كتبه الرحالة الأوروبيون، ومنهم الكونت الفرنسي فولني الذي زار القدس قبل حملة نابليون بنحو خمس عشرة سنة، فلم يذكر فيما كتبه عن رحلته الحرم الشريف ولا كنيسة القيامة «فلا غرابة بعد ذلك إن هو أهمل أيضاً ما دونهما في الأهمية مثل المدارس»... أو قدّر عدد سكان المدينة جزافاً.. كما لا يمكن قبول الغلط والمبالغة في وصف المدينة الذي أجمله بسطرين «أسوارها مهدمة والخنادق حولها مملوءة وكل أبنيتها خربة (كذا)»، كما قال عبد اللطيف الطيباوي في كتابه «القدس الشريف في تاريخ العرب والإسلام».

فكل مؤرخ يعتد به يعرف أن الأسوار لم تتهدم منذ عهد سليمان القانوني حتى يومنا هذا، وكل قارئ ينتبه للتفاصيل يعرف أنه لا يمكن أن تكون كل الأبنية، في مدينة مسكونة، خربة. وقد نبه الطيباوي بحق إلى أنه لا يمكن الاعتماد على كتب الرحالة الأوروبيين في هذا الأمر أو ما يشبهه «فمعظمهم كانوا يكرهون الإسلام ولم يروا إلا المساوئ في النظام العثماني»، ويمكن أن نضيف أيضاً أن بعضهم فيما كتب كان يمهّد للغزو الاستعماري الأوروبي للبلاد التي زارها.

لقد شهد الغرب منذ مطلع القرن التاسع عشر الميلادي حركة تأليف تاريخي نشطة وضعت نصب عينها كتابة تاريخ القدس وفلسطين والمنطقة العربية بعامة من وجهة نظر تخدم أهداف التوجه الاستعماري الأوروبي للقيام بغزو الدائرتين العربية والإسلامية، وتركز على إبراز تاريخ اليهود والوجود اليهودي في القدس وفلسطين، وذلك توطئة لتحويل الفكرة الصهيونية إلى حركة تقنع اليهود الأوروبيين بالهجرة إلى فلسطين لتكون قاعدة استعمارية استيطانية غربية هناك وفق الفكرة التي طرحها نابليون بونابرت على اليهود حين قام بغزو مصر وفلسطين، وتحمست بريطانيا لها بعد فشله وهزيمته،

ولافت مثلاً تشكيل «رابطة فلسطين» فى بريطانيا عام ١٨٠٤ لجمع المعلومات عن جغرافية فلسطين ونشرها، ثم لنمو هذا الاهتمام وهذه الجهود حتى أوصلت إلى تشكيل جمعية صندوق استكشاف فلسطين عام ١٨٦٥، وافتتاح ستة وأربعين فرعاً لها فى مختلف أنحاء بريطانيا والولايات المتحدة، كما أوضحت خيرية قاسمية فى بحثها عن نشاطات صندوق استكشاف فلسطين (مجلة شؤون فلسطينية عدد ١٠٤).

ويوجز ميشيل بريور (Michael Prior) الرأي فى حركة التأليف التاريخي الغربي عن فلسطين، بعد أن قام بتحرير كتاب حول الموضوع بقوله «إن تاريخ فلسطين جرت كتابته من قبل باحثين غربيين لهم جدول أعمالهم الخاص بهم (أجندتهم) وهو أن يجدوا جذور الثقافة الأوروبية، وقد نجم عن ذلك أنهم قدموا صورة مشوهة لفلسطين «مصممة» وفق رؤيتهم لكتابهم المقدس».

ويلاحظ بريور وزميلاه وايتلام وثومبسون مدى قوة تأثير روايات العهد القديم فى المناقشات حول المنطقة، وهم يرون ضرورة امتحان هذه الروايات فى ضوء ظروف كتابتها، وينبهون إلى تأثير مفاهيم الأوروبيين حول «الأمة» و«الدولة» فى القرنين التاسع عشر والعشرين التي شوهتا الماضي الحقيقي للتاريخ، ويركز بريور على العبء الأخلاقي الثقيل الذي تضمنه تقاليد الأراضي «فى العهد القديم ويبدو مشروعاً بل ومندوباً، فى الوقت الذي يعتبره جيلنا جرائم ضد الإنسانية»، وهو ما شرحه شاحاك فى كتاب له.

كثيرة هي الشواهد على تحيز هذه الكتابات التي أصدرتها المراكز البحثية لقوى الهيمنة الاستعمارية الغربية وقد تضمن التوجيه فى أول اجتماع لجمعية استكشاف فلسطين أن يجري البحث عما يمكن أن تلقيه الحفريات فى تلال الأرض المقدسة من أضواء على تاريخ «الأمة اليهودية (كذا) وفنونها. وأمثلة أخرى كثيرة.. وقد دعا هذا التحيز باحثين غربيين ومؤرخين مرموقين إلى نقده وتفنيد ما صدر عنه.

مجمل القول فى هذا الأمر هو أن علينا قراءة تاريخ القدس والوجود اليهودي فيها قراءة علمية موضوعية بنظرة نقدية تمحص الكتابات الكثيرة فيه، وأن علينا أيضا أن نتابع جهود علمائنا الذين باشروا كتابة هذا التاريخ بمنهج علمي يعتمد المصادر الصحيحة. ومثل على هذه الجهود ما قام به معهد البحوث والدراسات العربية علي هذا الصعيد فى الخمسينيات والستينيات والسبعينيات، ومن نشر عدد من المؤلفات شارك فيها اسحق

موسي الحسيني وحسن ظاظا وفؤاد حسنين علي ومراد كامل واسماعيل راجي الفاروقي وعائشة عبد الرحمن وآخرون، وما كتبه محمد عزة دروزة ومحمود العابدي وعارف العارف ومصطفى الدباغ صاحب موسوعة بلادنا فلسطين وكامل العسيلي وآخرون، وعادوا فيه إلى مصادر تاريخ القدس المختلفة.

وتجدر الإشارة هنا إلى ضرورة العناية بالباحثين العرب الشباب وتوفير هذه المصادر لهم، وقد لفت انتباه كاتب هذه الحديث أن باحثة عربية قدمت ورقة عمل لندوة علمية نظمتها صحيفة عربية حول قضية القدس موخراً، لم ترجع فيها إلى مصدر عربى واحد، وكانت كل مصادرها كتب صدرت حديثاً فى الولايات المتحدة، وياللشطط الذى نجم عن ذلك فى تناول القضية، ومثل آخر على جهود علمائنا ما قامت به الجامعة الأردنية من عناية بتاريخ بلاد الشام فى سلسلة مؤتمرات عقدتها، وما قامت به جامعات ومحافل علمية أخرى فى دراسة تاريخ القدس.

الأمر الثانى متصل بمصطلحات ترد فى تاريخ القدس والوجود اليهودي فيها، فوضوح هذه المصطلحات ضروري عند الحديث عن هذا التاريخ، ومن هنا تبرز أهمية استحضار هذه المصطلحات وتسليط أضواء عليها.

هناك أولاً أسماء أقوام كانت لهم علاقة بالقدس منذ نشأتها مدينة.. الكنعانيون والعموريين واليبوسيين والأراميون، وهؤلاء هم أهلوها الذين أسسوها، ويعودون جميعهم فى أصولهم إلى شبه جزيرة العرب التي تتالت منها هجراتهم إلى بلاد الشام، فهم ينتمون إلى «أرومة العرب» أو «الجنس العربي» كما يسميه محمد عزة دروزة وجواد علي وآخرون. وقد كانوا يتحدثون لغات تعود فى جذورها إلى لغة واحدة هي أقرب ما تكون إلى «العربية»، كما أوضح كارل بروكلمان، ويلاحظ من يتبنى مصطلح «الجنس العربي» أن مصطلح «الجنس السامي» لم يظهر إلا عام ١٧٨١ حين اقترحه اللغوي الألماني شلوترز للدلالة علي الشعوب التى نشأت فى غرب آسيا، وأقامت حضارات فيها، وذلك اجتهاداً منه للتيسير على الباحثين الأوروبيين، وهناك أيضاً أسماء أقوام مروا بالقدس مثل الحيثيين والحوريين فى القديم، ثم الفرس واليونان والرومان أيضا، ثم الفرنجة.

الصهيونية نشأت فى أحضان الغرب
وكونت لنفسها عقيدة عنصرية لتجميع يهود العالم

حين يصل الحديث إلى الوجود اليهودى فى القدس تبرز أسماء العبرانيين وبني إسرائيل واليهود، ثم يبرز فى القرنين الأخيرين اسم الصهيونية، ولكل من هذه المصطلحات دلالته، و«إن كانت تستخدم فى موضع بعضها البعض» كما لاحظ صاحب كتاب «تاريخ اليهود» سولومون جرايزل، وآن لنا أن نوجز ما جاء فى بحوث كثيرة عنها.

العبري أو العبراني هو أقدم هذه المصطلحات، وقد ورد فى سفر التكوين حين وصف به «أبرام»العبراني، وقد فسره بعض العلماء بمعني العبور والانتقال من مكان إلى آخر، كما رأى البعض أنه نسبة إلى «عابر» أو «عبر» أحد أجداد إبراهيم عليه السلام، ويحمل المصطلح معني «الغربة» ولذا أطلقته الأقوام الأخرى التي حلّ بينها عبرانيون عليهم بهذا المعنى، وفق ما شرح مراد كامل ودلل فى كتابه «الكتب التاريخية فى العهد القديم». وقد ظهر هذا المصطلح فى نحو الألف الثانية قبل الميلاد مع هجرة إبراهيم عليه السلام من أور الكلدانية إلى أرض كنعان. ويرى أحمد سوسة فى كتابه «العرب واليهود فى التاريخ» أن الاسم أطلق على من كان يعبر من مكان إلى آخر، فاقترن بابن الصحراء أو ابن البادية بعامة، وبهذا المعنى وردت كلمة «ابرى» أو هبرى» و«خبيرو»، أو «عبيرو» فى المصادر المسمارية والفرعونية. وقد استمر استخدام المصطلح فى وصف نسل يعقوب حفيد ابراهيم أنفسهم، مثلما فعل بولس فى رسالته إلى أهل فيلبى واصفاً نفسه بأنه «عبرانى من العبرانيين»، وحملت اللغة التى تحدث بها العبرانيون اسم اللغة العبرية، ولم يرد هذا المصطلح فى القرآن الكريم.

الإسرائيلي هو المصطلح الثاني فى الظهور بعد مصطلح العبرانى، وهو نسبة إلى «إسرائيل»، اللقب الذى حمله يعقوب بن اسحاق بن إبراهيم عليهم السلام، و«ايل» هو الإله فى اللغة الكنعانية، ويحمل اللقب معنى «المجاهدة»، وقد ورد فى القرآن الكريم مصطلح «بنى اسرائيل» للدلالة على نسل يعقوب عليه السلام، وهؤلاء هم «الإسرائيليون» فى العهد القديم وفى العهد الجديد. ويتضمن نقش مصرى قديم يشير إلى انتصار (مر ان بتاح) أو (منفتاح) فى فلسطين حوالى عام ١٢٢٩ ق.م. وهذا الاسم

للدلالة على قبائل هناك، وهذه القبائل هي من أولاد يعقوب الأثنى عشر، وقد حملت المملكة التى أنشأها داود عليه السلام فى القرن العاشر ق.م. اسم «إسرائيل» ودامت سبعين سنة ثم انقسمت إلى «يهودا» فى الجنوب «وإسرائيل» فى الشمال. وكانت نهاية مملكة إسرائيل على يد سرجون الثانى الملك الآشورى عام ٧٢٢ ق.م. وانتهت مملكة يهودا عام ٥٨٦ على يد نبوخذ نصر ملك بابل الكلدانى، وقد برز مصطلح «الإسرائيليين» حديثاً عام ١٩٤٨ بعد إقامة الكيان الصهيونى اليهودى العنصرى وتسميته «إسرائيل»، وأصبح هذا المصطلح يدل على اليهود حاملي الجنسية الإسرائيلية. وعلى عرب فلسطين الذين بقوا فى وطنهم فلسطين بعد نكبة ١٩٤٨ وفرضت عليهم الجنسية الإسرائيلية.

اليهودي هو المصطلح الثالث فى الظهور، وقد عنى فى الأصل أحد أفراد قبيلة يهوذا ثم مملكة يهوذا، ثم اطلقت الكلمة بعد ذلك على أي فرد «يهودي» رجع من السبي، وتطور المدلول ليشمل كل من دان «باليهودية» أو «الدين اليهودى»، ومصطلح الدين اليهودى أطلق على الطقوس الدينية التى كان يمارسها اليهود فى بابل أثناء سبيهم كما يقول اسماعيل راجي الفاروقى فى كتابه «أصول الصهيونية فى الدين اليهودى». وكتاب هذا الدين هو التوراة بأسفارها الخمسة: التكوين والخروج واللاويين والعدد والتثنية. و«يهود» عند العرب اسم علم كثمود، كما نقل محقق سيرة ابن هشام عن السهيلى. و«يقال إنهم نسبوا إلى يهودا بن يعقوب ثم عربت الذال دالاً فإذا قلت اليهود بالألف واللام احتمل وجهين النسب والدين الذي هو اليهودية. وفى القرآن لفظ ثالث لا يتصور فيه إلا معنى واحد دون النسب وهو قوله تعالى «وقالوا كونوا هوداً أو نصارى». ولم يقل يهوداً لأنه أراد التهود، وهو التدين بدينهم، ومعنى الدين هذا هو الذى يطلق على كل من تهوّد من غير أفراد قبيلة يهودا من الأقوام الأخرى مثل «القبيلة الثالثة عشرة» من أهل الخزر التى اعتنقت اليهودية فى القرن الثامن فى ظل ظروف دولية، شرحها أرثر كوستلر فى كتابة «امبراطورية الخزر وميراثها». وقد ورد مصطلح اليهود فى القرآن الكريم مرات كثيرة، وفى صحيفة المدينة والسنة النبوية بعامة، ودل على قبائل عربية كانت تدين باليهودية فى بعض أنحاء شبه جزيرة العرب، واعتبر هؤلاء اليهود «أهل كتاب».

الصهيونى هو أحدث هذه المصطلحات، وهو يقترن بانتعاش الفكرة الصهيونية فى

القرن التاسع عشر الميلادى وتبلور الحركة الصهيونية فى آخره، التى اصطنعت «قومية» لليهود إبان ازدهار الفكر القومى فى أوروبا وبروز «المسألة اليهودية» التى نجمت عن اضطهاد بعض الأوروبيين لليهود. وهذا المصطلح يطلق على «يهود» تصهينوا، وكذلك على «غير يهود» اعتنقوا الصهيونية وبخاصة من قوى الهيمنة الغربية التى أسهمت فى بلورة الحركة الصهيونية ودعمتها ومكنت لها. والنسبة فى المصطلح لجبل «صهيون» فى الجنوب الغربى للقدس القديمة، واللفظ عربى فى أصله ومعناه، وقد ذكره الأعشى فى قصيدة له، وهو يدل اليوم فيما يدل على معنى «ممارسة العنصرية» حيث تأكدت الحركة الصهيونية من خلال أفكارها وممارساتها حركة عنصرية.

إن وضوح مدلولات هذه المصطلحات الأربعة أمر ضروري عند الحديث عن الوجود اليهودى فى القدس قديماً وحديثاً.

الأمر الثالث متصل بانتماء الوجود اليهودى فى القدس حضارياً، والانتماء الحضارى هو دائرة ثالثة من دوائر الانتماء فى هوية فرد أو مجموعة، له علاقته الوثيقة بدائرتى الانتماء الديني والانتماء القومى، وهو انتماء لحضارة ازدهرت ساهم فى ازدهارها أقوام وملل عاشوا فى كنفها، لها لغتها «الحضارية» التى يعبر بها جميع المنتمين إليها على اختلاف ألسنتهم، ومعلوم أن تاريخ العالم شهد ازدهار عدد من الحضارات قديماً وحديثاً. ومعلوم أيضاً أن «اليهودية» ديناً انتشرت فى أنحاء مختلفة من العالم، وانتمى معتنقوها للحضارات التى عاشوا فى ظلها. فاليهود القدامى انتموا لحضارة المنطقة العربية القديمة التى شملت «حضارات» وادى النيل والرافدين ووديان شبه جزيرة العرب وبلاد الشام. وقد قاوموا الحضارة الإغريقية والهلنستية بخاصة حين جرت محاولة فرضها عليهم، وحين نشأت الحضارة العربية الإسلامية ساهم يهود المنطقة فى ازدهارها وانتموا إليها وتأثروا بأجوائها فكراً وأدباً وفناً، وبرز منهم أعلام فى مختلف أنحاء ديار الإسلام حيثما وجدوا، فى علوم وفنون.

وكانت صحيفة المدينة التى أملاها محمد بن عبد الله رسول الله (صلى الله عليه وسلم) قد أرست قواعد هذا الانتماء الحضارى بعد أن اعتبر القرآن الكريم اليهود والنصارى أهل كتاب لهم ما للمسلمين وعليهم ما على المسلمين، ما داموا يحترمون العهد، وهؤلاء هم يهود الحضارة الإسلامية الذين يطلق عليهم جدع جلادى فى كتابه «إسرائيل نحو الانفجار الداخلي» «يهود الإسلام»، ومنهم يهود عرب هو أحدهم، ويهود

فرس ويهود أتراك، وهناك يهود انتموا للحضارة الغربية وساهموا فى ازدهارها منذ عصر النهضة، وتبادلوا التأثير مع أجوائها فكراً وأدباً وفناً. وفى أوساطهم وفى ظل حضارة الغرب نشأت الحركة الصهيونية العنصرية متأثرة بالتيار العنصرى الذى برز بقوة فى أوروبا فى القرن التاسع عشر، وقد أسهب جدع جلادى فى كتابه فى شرح الصدام الحضارى بين اليهود الإشكناز الغربيين واليهود السفارديم المنتمين لحضارة الإسلام فى الكيان الصهيوني منذ إقامته عام ١٩٤٨.

لقد دأبت الحركة الصهيونية منذ قامت على الحديث عن الحضارة اليهودية فى العالم، ونجحت فى إنشاء كراسي لها فى عدد من جامعات الغرب، فى محاولة منها لفصل اليهود عن انتمائهم الحضارى واستبداله بانتماء لها، ويذكر كاتب هذا الحديث كيف التقى في محفل علمي بأستاذ بريطاني يهودي عرّف نفسه بأنه أستاذ الحضارة اليهودية في جامعة بريطانية مرموقة، فسأله كاتب هذا الحديث «وهل هناك حضارة يهودية؟ وبأي مفهوم؟ أم أن هناك يهوداً ينتمون إلى حضارات أوطانهم حيث يعيشون؟ وهذا لا ينفى وجود خصوصية وتنوع فى ظل الوحدة الحضارية». وتابع قائلاً «أين تضع القرائين وموسى بن ميمون والفيومي وعشرات الأعلام اليهود الذين برزوا فى الحضارة الإسلامية؟ هل هم منتمون إليها أم هم ينتمون لحضارة خاصة بهم؟ والأمر نفسه بالنسبة إلى اراثموس وفرويد واينشتين وغيرهم فى الحضارة الغربية».

إن تحديد الانتماء الحضارى للوجود اليهودى فى القدس أمر لا غنى عنه عند تناول هذا الموضوع بالبحث.

إن الحديث عن الوجود اليهودي فى القدس منذ أقدم العصور يقتضي منّا أن نتعرف على هذه المدينة، موقعاً ونشأة وأهلاً وأسماءً ومكانة، قبل بدء الوجود اليهودى فيها.

لقد عُني المؤرخون قديماً وحديثاً بالبحث فى تاريخ القدس. وهناك مؤلفات صدرت عنه تعد بالآلاف فى لغات كثيرة، اعتمدت فيما أوردته على الروايات القديمة والوثائق وما كشفت عنه التنقيبات الأثرية. ويمكن أن نتبين مما كتبوه أن ظهور المدينة في التاريخ كان في بدايات العصر البرونزي حوالي ثلاثة آلاف سنة قبل الميلاد، وذلك حين بناها الكنعانيون العرب في موقع متميز من أرض فلسطين قرب عين ماء. وكانت

القدس واحدة من مجموعة مدن كنعانية أقيمت على طريق المياه بين شمال فلسطين وجنوبها في بلاد الشام.

كان الكنعانيون والعموريون أول شعبين حملتهما هجرات متتالية من جزيرة العرب إلى بلاد الشام. وقد ميز العلماء بين هذين الشعبين لأن الكنعانيين اتخذوا مركزهم في الساحل بينما اتخذ العموريون مركزهم في الداخل حيث عاصمتهم ماري قرب مدينة بوكمال. وكان الكنعانيون بحكم ذلك على مقربة من مصر بينما كان العموريون على مقربة من سومر وبابل في العراق.

لقد كشفت التنقيبات الأثرية عن حقيقة أن موقع القدس كان مأهولاً في عصور قديمة، فقد سكن الإنسان القديم فيه، وهناك من آثار له تم كشفها ما يعود إلى العهد البلستوسيني، والعهد الباليوليثي وقد استقر المناخ في هذا الموقع في العهد الميسوليثي وبدأت الزراعة فيه في العهد النيوليثي. وحين اختار الكنعانيون الموقع لبناء المدينة بدا واضحاً أنه يخدم غرضاً دفاعياً وآخر دينياً، وقد جعل منها «سرّة» أرض كنعان، أول اسم عرفت به فلسطين، وقد بدأ بناؤها على تل الضهور قرب عين جيحون ثم امتدت إلى تلال موريا وصهيون وبزيتا.

عرفت القدس أول ما عرفت باسم «سالم» الجد المؤسس أو الإله الأعلى فهي أورسالم بمعنى «ميراث السلام»، كما يقول حسن ظاظا في كتابه «القدس مدينة الله، أم مدينة داود؟» وقد أطلق هذا الاسم عليها اليبوسيون وهم عشيرة كنعانية، وجعلوها مملكة مدينة كغيرها من المدن الكنعانية، وكان من ملوكها «قدوم سالم» و«ملكي صادق» و«أودوني صادق». وأول ذكر لها ورد في نصوص مصرية قديمة تعود إلى القرنين التاسع عشر والثامن عشر قبل الميلاد، باسم «يوروشاليم». كما جاء ذكرها في رسائل تل العمارنة في القرن الرابع عشر قبل الميلاد باسم «يوروسالم». وذكرت في النقوش الأشورية باسم «أوروسليمو». وأقدم اسم لها في «العهد القديم» هو «شاليم» وقد ورد في سفر التكوين بمناسبة قدوم «ابرام العبراني إلى أرض الكنعانيين». وجاء ذكرها في سفر القضاة باسم «يبوس». كما وردت في العهد القديم باسم «صهيون». وهناك تفصيل لأسماء القدس القديمة في بحث «القدس وفلسطين في التاريخ» لكاتب هذا الحديث وهو منشور في كتابه «عروبة وإسلام معاصرة». واشتهرت المدينة بعد الفتح الإسلامي لها باسم بيت المقدس، ووردت لهذا الاسم صور مختلفة منها البيت المقدس، وبيت

القدس، والقدس الشريف، والمدينة المقدسة، ولقبت المدينة بألقاب منها دار السلام ومدينة السلام وقرية السلام، كما أوضح اسحق موسى الحسيني في كتابه عروبة بيت المقدس.

تكشف هذه الأسماء والألقاب عن مكانة القدس الدينية منذ أقامها أهلها اليبوسيون الكنعانيون، الذين اعتبروها «سرة الأرض». وقد وصفها الله سبحانه والأرض التى حولها بالبركة فى القرآن الكريم في خمسة مواضع فصلها يوسف القرضاوي فى رسالته «القدس قضية كل مسلم». واقترنت هذه المكانة الدينية بالمكانة الحضارية للمدينة باعتبارها إحدى منائر العلم والحضارة في دائرتها الحضارية التى تشمل فضلاً عن المنطقة العربية أقطاراً أخرى في آسيا وافريقيا.

ما نخلص به من التعرف على موقع المدينة ونشأتها وأهلها وأسمائها ومكانتها قبل بدء الوجود اليهودي فيها، هو أن بناءها سبق ظهور العبرانيين بألف ومائتي سنة على الأقل وسبق دخول النبي داود عليه السلام إليها بألفي سنة، وأن شعب فلسطين الكنعاني العربي الجذور هو الذى أسسها وأطلق عليها اسم أورسالم وأقام فيها بيتاً للعبادة يذكر فيه اسم الله فأصبحت قبلة ومحجاً للمؤمنين. كما يتضح لنا أن القدس كانت أهم مراكز حضارة الكنعانيين التى ازدهرت في فلسطين واحدة من حضارات المنطقة. وقد أحاطها أهلها اليبوسيون بسور وبلغت مساحتها خلال الألف الثاني قبل الميلاد حوالي أربعين دونماً، فكانت مدينة متكاملة ذات قاعدة ملكية وهياكل دينية ومكانة روحية.

متى يبدأ التاريخ اليهودي؟

حين نركّز على الوجود اليهودي في القدس، فإننا نجده مقترناً بالوجود اليهودي في فلسطين وجزءاً منه. ذلك أن القدس هى حاضرة فلسطين، وتاريخها جزء من تاريخ فلسطين، واسمها ينصرف فضلاً عن المدينة المسوّرة إلى المنطقة المحيطة بالأسوار التى شملت دائرة واسعة من ضفتي نهر الأردن مركزها موقع المسجد الأقصى الذى جاء ذكره مع موقع المسجد الحرام في مكة في سورة الإسراء.

درج مؤرخو اليهود على أن يبدأوا التاريخ اليهودى بعبور ابراهيم عليه السلام من

بلاد الرافدين إلى أرض كنعان حوالي ١٨٥٠ ق.م. وقد سار سيرتهم كثير من المؤرخين الغربيين في القديم والحديث واعتبر هؤلاء مجيء ابراهيم وعائلته الهجرة العبرانية الأولى، ولكن ابراهيم عليه السلام جاء من أور الكلدانية وهي عربية الأصول، وأنجب كما تروي التوراة من هاجر المصرية ابنه اسماعيل، ومن سارة قريبته ابنه اسحق، ثم من قطورة الكنعانية ستة بنين هم يقشان وزمران ومديان ويشق وشرخ، ويضيف مجير الدين الحنبلي صاحب الأنس الجليل في تاريخ القدس والخليل امرأة أخرى تزوجها ابراهيم فولدت له خمسة بنين «فكان جميع أولاد ابراهيم ثلاثة عشر ولداً مع اسماعيل واسحق، فكان اسماعيل أكبر أولاده فآثر اسماعيل أرض الحجاز، واسحق أرض الشام، وتفرق سائر ولده في البلاد والله أعلم». ولافت أن أبناء شعب فلسطين نظروا إلى ابراهيم عليه السلام واحداً ن أجدادهم، شأن كثير من العرب، وهي نظرة نراها عند المسعودي ومؤرخين عرباً آخرين، ويرى أحمد سوسة أن عصر ابراهيم عليه السلام هو عصر عربي قائم بذاته سابق لعصر موسى عليه السلام الذي يعتبره مؤرخو اليهود ومن سار سيرتهم الهجرة العبرانية الثانية، بسبعة قرون. ويلاحظ العلماء أن مؤرخي اليهود أزالوا اسماعيل وأبنائه من تاريخهم واقتصروا على اسحق وأبنائه ثم أزالوا عيسو ابن اسحق من تاريخهم واقتصروا على يعقوب.

كانت القدس حين نزل ابراهيم عليه السلام في منطقتها مدينة كنعانية مزدهرة اسمها يبوس. وقد رحبّ به «بنو حث» واستقر به المقام في الخليل بعد أن تجول في المنطقة وزار مصر والحجاز. وبلّغ الرسالة الحنيفية.

ويتضح في ضوء ما سبق أنه لا مجال للحديث عن أي وجود يهودي في القدس وفلسطين في عصر ابراهيم عليه السلام لأن أبا الأنبياء لم يكن يهودياً وإنما كان حنيفاً مسلماً لله، ولم تكن اليهودية قد ظهرت بعد. وبين عصر ابراهيم وظهورها اثنا عشر قرناً على الأقل. والقدس كانت كما جاء وصفها في التوراة (حزقيال ٦:٣) على لسان الرب «نخرجك ومولدك من أرض كنعان. أبوك عموري وأمك حيثية». كما يتضح أن التفسير اليهودي الصهيوني لما زعمه كتبة العهد القديم من وعد الله سبحانه ابراهيم بأن يعطي لنسله أرض كنعان فلسطين، بأنه وعد لبني اسرائيل يعقوب، دون غيرهم، وهو دعوى لا تستقيم من وجوه عدة.

فنسل ابراهيم فيهم بنو اسماعيل من العرب وفيهم بنو أولاده من زوجتيه

الكنعانيتين العربيتين من جهة، أولاً، وإذا كان معنى «النسل» بالمفهوم الديني فهو يعاني «أتباع» طريق ابراهيم لأن «أولى الناس بابراهيم للذين اتبعوه وهذا النبي والذين آمنوا» كما جاء في سورة آل عمران «الآية ٦٨». وهذا المعنى يخرج من دائرة «النسل» من تنكّب طريق اتباع ابراهيم وظلم حتى وإن كان من ذريته، كما أوضحت الآية ١٢٤ من سورة البقرة، «وإذا ابتلى ابراهيم ربه بكلمات فأتمهن، قال إنى جاعلك للناس إماماً، قال ومن ذريتى، قال لا ينال عهدى الظالمين».

وابراهيم عليه السلام والذين آمنوا معه أعطوا المؤمنين في كل العصور الأسوة الحسنة حين تبرأوا ممن كفر من قومهم. كما جاء في الآية ٤ من سورة الممتحنة «قد كانت لكم أسوة حسنة فى ابراهيم والذين معه إذا قالوا لقومهم إنا براءاؤا منكم ومما تعبدون من دون الله كفرنا بكم وبدا بيننا وبينكم العداوة والبغضاء أبداً حتى تؤمنوا بالله وحده». وكما جاء فى الآية ١١٤ من سورة التوبة «وما كان استغفار ابراهيم لأبيه إلا عن موعدة وعدها إياه، فلما تبين له أنه عدو الله تبرأ منه». ناهيك عن وعد الله لابراهيم عليه السلام ولكل المؤمنين فى كل العصور هو أن الأرض يرثها عباد الله الصالحون. فهذا ما كتبه الله فى الزبور من بعد الذكر، كما قررت الآية ١٠٥ في سورة الأنبياء، «ولقد كتبنا فى الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عبادي الصالحون»، تصديقاً للعدل الإلهى، وهناك مناقشة مستفيضة للزعيم اليهودي الصهيوني بشأن هذا الوعد وبشأن «أرض الميعاد» تفنّده، تناولتها كتب كثيرة من بينها كتاب الشيخ د. يوسف القرضاوي «القدس قضية كل مسلم».

إن الحرص على هذه الوقفة أمام الرؤية التاريخية والرؤية الدينية لعلاقة ابراهيم عليه السلام بأرض كنعان «فلسطين» وقضية «الوعد»، نابع من ضرورة استحضار جوهر الإيمان الديني والحقيقة التاريخية أولاً، ومن كون الإعلام الصهيوني دائب التأكيد على نشر التفسير اليهودي الصهيوني للوعد في أوساط الغرب بخاصة والعالم بعامة، ثانياً، وقد أدى هذا الدأب إلى تأثر كثيرين من العامة والخاصة الغربيين به، ويذكر كاتب هذا الحديث كم بدا هذا التأثر قوياً عند جيمى كارتر رئيس الولايات المتحدة الأسبق حين التقى به في أعقاب انتهاء فترة رئاسته، وكيف وقف كارتر والدهشة تعتريه متأملاً فيما سمعه عن مفهوم «النسل» بمعنييه. وسبب ثالث للحرص على هذه الوقفة هو أن بعض من تناول هذا الموضوع في أوساطنا العربية انساق في إطار موقف رد الفعل على الزعيم

اليهودي الصهيوني إلى نسيان علاقة شعب فلسطين العربي بأبي الأنبياء ابراهيم عليه السلام، والنظر إليه وكأنه مجرد غريب وافد، وهو أمر لا تصدقه الحقيقة التاريخية ولا يقبله المؤمنون.

أول وجود واضح لبنى إسرائيل في القدس، جاء بعد ظهورها بألفي سنة، حين تغلب داود عليه السلام على الكنعانيين ودخل «يبوس» وجعلها عاصمة لحكمه، حوالي ١٠٠٠ سنة قبل الميلاد، وكان اسم «إسرائيل» قد ظهر حين لقّب به يعقوب بن اسحق ابن ابراهيم عليهم السلام. كما ظهر اسم «آدوم» لقباً لأخيه عيسو بن اسحق الذى أسقطه مؤرخو اليهود من تاريخهم كما سبق أن ذكرنا، وحمل أولاد يعقوب الأثنا عشر اسم «بني إسرائيل» وانتقلوا إلى مصر بعد أن بزغ نجم أحدهم يوسف عليه السلام فيها. وخرج أحفادهم من بني إسرائيل من مصر بقيادة موسى عليه السلام أواخر القرن الثالث عشر قبل الميلاد، واتجهوا لدخول أرض كنعان ونجح يوشع فى احتلال بعض المدن الكنعانية ومنها أريحا التى أحرقها «وكل ما بها». ولم ينجح بنو إسرائيل فى احتلال مجدو الكنعانية إلا بعد قرن. وأمكن لهم أن يتغلغلوا فى أرض كنعان «أرض اللبن والعسل» ببطئ إلى أن دخل داود القدس.

تحدث مؤرخو اليهود عن أخبار داود التى كتبوها بعد عدة قرون، فذكروا أنه بنى قصراً فى عاصمة حكمه شارك فى إنشائه معماريون من صور أرسلهم ملكها الكنعاني «الفينيقي حيرام»، وتحدثوا عن أخبار سليمان بن داود عليهما السلام الذى ورث أباه وحكم حوالي ثلاثين سنة (٩٦٣ - ٩٣٣ ق.م) وكيف بلغت «أورشليم» في عهده درجة عالية من المجد والإلهية بعد أن بنى فيها هيكلاً وتحصينات، واختلطت فيما كتبوه أساطير وقصص خيالية. وقد خلفه في حكم مملكة داود ابنه رحبعام الذى كان فتى في السادسة عشرة من عمره متهوراً قاسياً، فكان أن رفضت عشر قبائل من بني إسرائيل الاعتراف به وشكلت مملكة «إسرائيل» في الجزء الشمالي من المملكة، وشكلت القبيلتان الباقيتان مملكة يهوذا التى بقيت أورشليم عاصمة وجاءت نهاية الأولى على يد سرجون الثاني ملك آشور عام ٢٢ ق.م، ونهاية الأخرى على يد نبوخذ نصر ملك بابل الكلداني عام ٥٨٦ ق.ق، وكانت المملكتان منذ نشآتا واقعتين تحت نفوذ فراعنة مصر حيث قام شيشنق بغزوهما حوالي ١٢٠ ق.م.

استمرت القدس طوال الفترة بين حكم داود عليه السلام لها وتخريبها على يد

نبوخذ نصر، مدينة كنعانية الطابع والحضارة، وقد أخذ بنو إسرائيل هذه الحضارة، فتعلموا من الكنعانيين الزراعة، واقتبسوا طقوس الكنعانيين وفنهم وعاداتهم بعد أن تزاوجوا معهم وتأثروا بلغتهم. وبعث الله فى بني إسرائيل أنبياء وبرز فيهم معلمون دينيون، أسهموا فى ازدهار الحياة الروحية، وجاء تسجيل تاريخ هؤلاء وهؤلاء في أسفار العهد القديم وشروحه ليحفظ أثراً أدبياً توارثته الأجيال. وقد شارك في تسجيله عبر قرون مؤرخون ومعلمون. ومرت مادته بأطوار شهدت كثيراً من الانتقاء والحذف والتحقيق والضبط قبل أن تتخذ شكلها النهائي، كما يلاحظ علماء التاريخ. وبعد التوراة جاء تأليف التلمود، ومعناه دراسة أو عقيدة، ليشرح الشرائع. وقد كتب جزء منه بالأرامية، لغة الأراميين الذين هاجروا من شبه جزيرة العرب إلى أرض كنعان في هجرة تزامنت مع ظهور بني إسرائيل، حاذين حذو الكنعانيين والعموريين من قبل.

جاء تخريب نبوخذ نصر القدس عام ٥٨٦ ق.م ليقضي على وجود بني إسرائيل فيها، حيث تعرضوا للسبي البابلي، وحين سقطت بابل في أيدي الفرس بقيادة قورش عام ٥٣٨ ق.م أصبحت أرض كنعان «فلسطين جزءاً من امبراطوريتهم التى امتدت من مصر وآسيا الصغرى إلى البنجاب في الهند. ودخلت فلسطين بعد تنظيم الامبراطور دارا (٥٢٦ -٥٨٦ ق.م) للامبراطورية في المقاطعة الخامسة مع سوريا وقبرص «مرزبانة عبر نهراً»، أى عبر نهر الفرات، وتمتعت بحكم ذاتى ساعد على الاستقرار فيها فعادت المدن الكنعانية ومنها القدس إلى الازدهار. وأخذت مكانها مراكز للتجارة العالمية القائمة آنذاك.

بدأ الوجود اليهودى في القدس باسم اليهود، حين أصدر الامبراطور الفارسى قورش مرسوماً بعد دخوله القدس يسمح لسبي بنى إسرائيل الموجودين في بابل بالعودة إلى فلسطين، فكان أن عاد من حمل اسم «يهود» فيما بعد. وقدر مؤرخو اليهود عددهم باثنين وأربعين ألفاً من بين ثمانية وخمسين ألفاً «يهودى»، وكان زعيم العائدين زروبابل من سلالة أحد ملوك «يهودا»، فاعترفت به جماعته حاكماً عليهم. وقد أعاد هولاء بناء الهيكل في عهد الامبراطور دارا سنة ٥١٥ ق.م على نفقة الدولة بعد صعوبات. وبعد نصف قرن عاد فريقان آخران من سبي بني إسرائيل أحدهما برئاسة نحميا والآخر برئاسة عزرا، وتبنيا برنامجاً عنصرياً تضمن وجوب طلاق الزوجات غير اليهوديات وإعلان أبنائهن غير شرعيين، وأدخلاه العقيدة الدينية «اليهودية» وقد حلت اللغة الأرامية محل اللغة

العبرية في تعامل هؤلاء اليهود اليومي، وبقيت الأخرى مستخدمة فى العبادة.

نتتبع تاريخ هذا الوجود اليهودى في فلسطين بعامة وفي القدس بخاصة منذ حمل بنو إسرائيل العائدون من السبي في بابل إلى أرض كنعان اسم اليهود حتى بروز الصهيونية السياسية في القرن التاسع عشر الميلادى، ونتناوله في ثلاث مراحل يفصل بينها ويصل، ظهور المسيحية ثم ظهور الإسلام.

استمرت المرحلة الأولى خمسة قرون ونيّف، وتتابع على حكم فلسطين فيها الفرس حتى عام ٣٣٣ ق.م، فالإغريق اليونانيون حتى عام ٦٤ ق.م، فالرومان، وكان الكنعانيون ومن خلفهم من العموريين والأراميين هم غالبية سكان فلسطين في هذه المرحلة. وقد بدأت أسفار العهد القديم تطلق على سكان الجنوب والساحل أسم «العرب»، وتابع هؤلاء العيش في ظل حضارتهم الكنعانية والتفاعل مع حضارات حكامهم، وكانت لهم ديانتهم الكنعانية، وجاء اليهود ليعيشوا إلى جوارهم ويأخذوا من حضارتهم.

حفلت هذه المرحلة بأحداث، نشير من بينها إلى انتهاء الحكم الفارسى لفلسطين والمنطقة، إثر انتصار الاسكندر المقدونى على دارا الثالث الفارسى في معركة أيسوس عام ٣٣٣ ق.م. وإلى دخول فلسطين والقدس عام ٣٠١ ق.م. في حكم مملكة البطالسة اليونانيين التى قدمت في مصر على يد بطليموس أحد قادة جيش الاسكندر، وقد اتصف هذا الحكم في الغالب باحترام حرية الاعتقاد والسماحة الدينية فلم يتعرض لعقائد أهل فلسطين وعقائدهم من الكنعانيين واليهود وعلى السواء، وجرت في عهد بطليموس فيلادلفيوس «محب العلم» ترجمة التوراة إلى اليونانية على أيدي سبعين عالماً يهودياً دعاهم إلى مصر، وحاول البطالسة شأن الاسكندر وورثته عموماً نشر الحضارة الإغريقية في فلسطين والبلاد التى حكموها، واشتد أحدهم وهو بطليموس الرابع في هذه المحاولة فضاق بذلك أهل فلسطين بعامة ومنهم اليهود.

نشير أيضاً إلى الحرب التى نشبت بين البطالسة اليونانيين والسلوقيين الذين أقاموا مملكة في شمال سوريا، ودخول فلسطين والقدس في حكم السلوقيين الذين انتصروا بقيادة ملكهم انطيوخس الثالث الملقب بالكبير عام ١٩٨ ق.م. وكانت البلاد قد عانت الويلات والشدائد خلال فترة هذه الحرب التى استمرت عشرين سنة.

اليهود في القدس في عصر «الهلنستية»

شهدت القدس «يبوس» التى شاع اسم «أورشالم» للدلالة عليها، في عهد السلوقيين تدافعاً حضارياً يلفت الانتباه، وذلك بفعل حماس السلوقيين لنشر حضارتهم «الهلنستية»، وقد ذهب انطيوخس الثالث في حماسته حدّ الفرض، وأعلن نفسه «الإله الظاهر» قرين «زفس» كبير آلهة اليونان، وشجع اليهود على أن يعتبروا «يهوه» إلههم مساوياً لزفس، فأما عامة الكنعانيين فقد بقوا متمسكين بحضارتهم في المعيشة والعادات والديانة، يتكلمون لغتهم الآرامية، وقد امتصوا حماس الملك السلوقى لفرض «الهلنستية» بأن قرنوا «زفس» بشخصية إلههم «بعل» واسبغوا عليه صفات كنعانية عربية.

وأما خاصة اليهود في القدس فقد تجاوبوا مع رغبات الحكم السلوقى وتبنوا العادات اليونانية وتحدثوا اللسان اليونانى، فشاع اللباس اليونانى بين الشباب الذين مارسوا أيضاً الألعاب اليونانية. ولكن معارضة قوية تفجرت في أوساط عامة اليهود ورجال الدين، وكانت شرارتها خلافاً بين أخوين على شغل وظيفة الحبر الأعظم، أدت إلى ثورة في عام ١٦٨ ق.م. وقد قامت الثورة أول الأمر على خاصة اليهود الذين مثلوا طبقة عليا استغلت العامة، ثم أصبحت ثورة على الحكم حين أعلن انطيوخس الحكم العرفي وأباح مدينة القدس وأمر بإلغاء الدين اليهودي.

وقاد الثورة يهوذا ابن الكاهن ماتاتياس مع إخوته الأربعة، واتخذ فيما بعد لقب «المكابى»، وأمكن لانطيوخس التغلب عليهم أول الأمر لأن المتشددين منهم رفضوا القتال يوم السبت تمسكاً حرفيا بشرعهم، ولكن يهوذا ما لبث أن نظّم مع إخوته عصابات في التلال نجحت في إنزال ضربات بجنود انطيوخس، ثم في السيطرة على القدس، وأصبح ذلك اليوم عيداً يهودياً يحتفل به سنوياً باسم عيد هنوكه «التكريس».

لم تكن ثورة المكابيين هى الوحيدة ضد الحكم السلوقى في فلسطين والقدس والمنطقة، فقد تزامنت معها انتفاضة الأنباط العرب في منطقة البتراء في الجنوب، ولم يمض طويل وقت حتى امتد حكم الأنباط إلى دمشق عام ٨٥ ق. كما استقل الأيطوريون العرب بالبقاع واللجاة واستقلت كذلك بعض المدن الفينيقية. وبرزت سلالة عربية في الرها شمال سورية حوالى عام ١٣٠ ق.م. عرفت باسم الفرتيين وامتد حكمها

من الفرات إلى السند ومن جيحون حتى المحيط الهندى. وقد تتالت هذه الأحداث في فترة الحكم السلوقى بسبب ما أصابه من ضعف، ثم من هزيمة، على يد الدولة الرومانية الفتية في آسيا الصغرى عام ١٨٨ ق.م. أدت إلى تخلّيه عن ممتلكاته وراء جبال طروس.

استطاع المكابيون اليهود في ظل هذه الأوضاع فرض وجودهم في فلسطين والقدس. ولم يجد الملك السلوقى ديمتريوس الثانى مناصاً من الاعتراف بالأمر الواقع فمنحهم نوعاً من الاستقلال الذاتى بقيادة سمعان شقيق يهوذا الذى انتخب كاهناً أعظماً وحاكماً عام ١٤١ ق.م. وبقى هذا الوضع قائماً ثمانين سنة إلى أن جاء الرومان واحتلوا فلسطين عام ٦٤ ق.م. بقيادة «بومبي»، وقد اتسمت فترة تمكن المكابيين بسيطرة التعصب، حيث حاربوا أهل البلاد من غير اليهود. وقام يوحنا بن سمعان الملقب هيركانوس الأول (١٣٥ – ١٠٥ ق.م.) بإكراه الأدوميين سكان جنوب فلسطين على التهود والاختتان حوالى عام ١٢٦ ق.م. كما هاجم السامريين من اليهود الذين تجنبوا الصدام مع السلوقيين وهدم معبدهم، وتابع خلفاؤه السير في طريق التعصب فأكرهوا سكان الجليل من الايطوريين العرب الذين يتكلمون الأرامية على التهود والختان.

ويشير المؤرخ أرنولد توينبى في كتابه «دراسة في التاريخ» إلى هذا الحادث باعتباره أقدم حادث تاريخى معروف من حوادث التعصب الدينى، كما يلاحظ فيليب حتى فى كتابه «تاريخ لبنان وسوريا وفلسطين» أن سكان الجليل هؤلاء هم الذين دعاهم السيد المسيح عليه السلام، واتخذ منهم أكثر تلاميذه، فكانوا من أصل غير يهودى ويتكلمون العبرية برطانة، وكان اليهود ينظرون إليهم بأنهم أدنى من اليهود القدماء وغير أهلٍ لظهور نبى فيهم، وقد اعتبر «حتى» تصرف يوحنا هيركانوس وولديه اريسطو بوليس (١٠٥ – ١٠٢ ق.م)، واسكندر جناديوس (١٠٢ – ٧٦ ق.م)، في التخيير بين التهود والإبادة سابقة اتبعها آخرون من هذه الأسرة في معاملتهم للمدن والشعوب التى قهروها، وتكثر في تاريخ هذه الأسرة قصص الجرائم التى اقترفها ملوكها، فقد ترك أريسطو بوليس أمه تموت جوعاً في السجن وقتل أحد إخوته، وحين استولى اسكندر جناديوس على غزة عام ٩٦ ق.م. قام بتدبير مذابح مخيفة أدت إلى تحول الشاطئ المزدهر بين غزة وعسقلان إلى صحراء بلقع، كما سجل سفر المكابيين وأورد حتى في الفصل السابع

عشر من كتابه، وقد أتى إلى القدس أورشليم عام ٨٦ ق.م. إثر قهره إحدى المدن بـ ٨٠٠ رجل صلبهم في يوم واحد وسبى نساءهم وأطفالهم.

يمكننا في ضوء ما أوردناه من حديث عن هذه المرحلة الأولى من تاريخ القدس والوجود اليهودى فيها أن نقرر أولاً أن هذا الوجود كان إلى جانب الوجود الكنعانى، وتعرض على صعيد العدد إلى صعود ونزول فارتفع عددهم في فترات وانخفض إلى درجة بالغة في فترات. وأن نقرر ثانياً أن فترة ضعف الحكم السلوقى شهدت بروز اليهود المكابيين الذين فرضوا التهود بالقوة على بعض أهل فلسطين من غير بنى إسرائيل، وهذا يعنى أن معنى النسب تجاوز بنى إسرائيل إلى آخرين، كما نقرر ثالثاً أن الموقف الحضارى للكنعانيين غلبت عليه الاستجابة الفاعلة للتفاعل مع حضارات الأقوام التى جاءت إلى أرض كنعان فلسطين وحكمتهم، وآخرها حضارة الإغريق.

وقد لخص العالم بريستد حصيلة التأثير اليونانى على البلاد بقوله «ان هذا التأثير لم يسر على السواء في جميع أنحاء البلاد بل إنه كاد أن يكون محصوراً في المدن فقط، ولم يتأثر به سكان القرى والدساكر الذين آثروا البقاء على عاداتهم القديمة والتكلم بلغات أبائهم والاحتفاظ بتقاليدهم وأفكارهم». بينما غلب على الموقف الحضارى لليهود رد الفعل انكماشيا أحياناً وانغماسياً أحياناً أخرى. ولافت أن قادة المكابيين اليهود الذين بدأوا انكماشيين لم يلبثوا حين مارسوا الحكم أن غدو انغماسيين يتسمون بأسماء يونانية ويتشبهون بالإغريق.

وهذا التوزع بين الانكماش والانغماس وحدة الخلاف بين الفئتين نراه اليوم في التجمع اليهودى في فلسطين الذى جاءت به الصهيونية السياسية. ونقرر أخيراً أن سلوك بنى إسرائيل واليهود من بعد جمع بين سلوك «مؤمن» مارسه بعضهم وسلوك «كافر» مارسه بعضهم الآخر، فكان منهم مؤمنون ومنهم كافرون اقترفوا جرائم بشعة.

المرحلة الثانية من الوجود اليهودى في القدس استمرت من احتلال الرومان للمدينة والمنطقة عام ٦٤ ق.م. إلى الفتح الإسلامى لبيت المقدس عام ٦٣٨ م الموافق ١٥ هجرية، على مدى سبعة قرون، وقد شهدت القدس خلالها أحداثاً كثيرة كان لها تأثيرها على حياة أهل المدينة والبلاد والمنطقة وعلى الوجود اليهودى فيها، وبخاصة في أول قرن منها.

نشير أولاً، إلى زحف القائد الروماني بومبي على فلسطين عام ٦٤ ق.م.، وقد جاء في وقت كان الصراع محتدماً في القدس «واليهودية» من حولها بين المكابيين، واستوجب الأمر محاصرة المدينة ثلاثة شهور كي يستسلم اريسطوبوليس المكابى وأنصاره، وهذا ما سبب معاناة لأهل القدس مضاعفة.

نشير ثانياً إلى قيام الوالى أولوس غابينوس (٥٧ - ٥٥ ق.م) الذى ولاه بومبي على سورية، بتجريد كاهن اليهودية الأعظم هيركانوس الثانى حفيد أريسطوبوليس رتبته الملكية، وفرض ضرائب ثقيلة على أهل القدس وفلسطين، والعمل على إنعاش الحضارة الهيلينية، وإعادة بناء مدن فلسطينية - يونانية (هلنستية) كان المكابيون قد هدموها، مثل السامرة وبيسان ودورا وغزة.

نشير ثالثاً إلى بروز انتيباتر الأدومى الذى عمل مستشاراً لهيركانوس الثانى المكابى، حين دعم يوليوس قيصر في خلافه مع بومبى، ومنحه حقوق المواطنة الرومانية وتعيينه نائباً ووكيلاً لقيصر عام ٤٨ ق.م.، وقد أقام انتيباتر ابنه البكر «فصايل» والياً على القدس وابنه الآخر «هيرود» والياً على الجليل، ولم يلبث أن قتل بإيعاز من هيركانوس إثر اغتيال قيصر عام ٤٤ ق.م.

نشير رابعاً إلى قيام الفرس بغزو البلاد بين عامى ٤٠ و٣٨ ق.م، وتحالف انتيجونس الهسمونى اليهودى معهم وإعلانه نفسه ملكاً على القدس واليهودية، ثم إعدامه حين استتب الأمر للرومان مرة أخرى عام ٣٧ ق.م وبموته انتهى عهد المكابيين الذى دام ١٢٥ سنة.

نشير خامساً إلى تولى هيرود بن انتيباتر الأدومى حكم اليهودية عام ٣٧ ق.م واتخاذه القدس مقراً بعد أن عيّنه مارك انطوان، وقد اشتهر بموالاته للرومان وبحماسه للحضارة الهيلنية، وبما أنشأه من أبنية عامة، وإعادته بناء المعبد، وقد عاش في بلاطه المؤرخ الفيلسوف نيقولاوس الدمشقى الذى ولد بدمشق عام ٧٤ ق.م وكان صديقاً له، ولقب بالكبير لما قام به من أعمال، ولكن اليهود حنقوا عليه لانغماسه في الحضارة الهلنستية، وكانت وفاته عام ٤ ق.م، وتقاسم أولاده الثلاثة مملكة أبيهم بقرار من أغسطس قيصر الذى عزل أحدهم عام ٦ ميلادى لسوء سيرته ووضع اليهودية تحت الحكم المباشر للنواب الرومان الذين كان خامسهم بيلاطس، وقد حكم هيرود انتيباس

الولد الثانى حتى عام ٣٩ ميلادى، وهو الذى بنى طبرية وسماها على اسم طيبريوس قيصر، وتزوج هيروديا ابنة أخيه الماجنة، وتلوثت يداه بدم يحيى بن زكريا عليه السلام الذى انتقد هذا الزواج، وقد استمرت أسرة الهيروديين الأدوميين في الحكم حتى عام ١٠٠ ميلادى، ثم حكمت روما فلسطين حكماً مباشراً.

شهد حكم الهيروديين الأدوميين لفلسطين في العهد الرومانى حدثاً كبيراً مثل نقلة تحول في تاريخ القدس والمنطقة والعالم، ذلك هو مولد عيسى بن مريم عليه السلام وظهور الدين المسيحى، وقد ولد السيد المسيح في بلدة بيت لحم قرب القدس، ونشأ في الناصرة إحدى مدن الجليل، وباشر دعوته حين بلغ الثلاثين من العمر فأخذ يتجول في فلسطين داعياً إلى محبة الله ومحبة الإنسان، وتبعه عدد من الحواريين بدأوا حياتهم حاذين حذوه، وقد سجل بعضهم فيما بعد تعاليمه وأعماله في كتب عرفت باسم الأناجيل (الأنجيل كلمة يونانية معناها البشارة)، وكان تأكيد هذه التعاليم على وحدة الإنسانية، وعلى خدمة الإنسان، وعلى صفاء الروح عوضاً عن المبالغة في الطقوس والمظاهر الخارجية، وانطلقت من نظرة عالمية، وعنيت بالأخلاق، وبشرت بالحياة الأخرى.

واستمر المسيح يدعو قومه ثلاث سنوات، وتابع الحواريون الدعوة من بعده للدين الذى عرف باسم النصرانية والمسيحية، وانتشر هذا الدين أولاً بين عدد قليل من فلاحى فلسطين الذين كانوا يدينون باليهودية، ثم شق طريقه بين سكان فلسطين كافة وسورية عامة. وبدأ تداول الأناجيل التى يرجح أنها كتبت في القرن الأول للميلاد، كما دونت أعمال الرسل من الحواريين ونشاطهم في التبشير في سبعة وعشرين سفراً، كما يقول أسد رستم في كتابه «الروم وصلاتهم بالعرب».

اليهود في القدس بعد ظهور المسيحية

احتلت القدس مكانة دينية عظيمة لدى النصارى المؤمنين بالدين المسيحى الذى بدأ ينتشر بين اليهود وغير اليهود من أهل فلسطين والمنطقة. واستمر الرومان فى محاولتهم صبغ أقطار امبراطوريتهم بالصبغة الهيلينية الرومانية فاستجابت لهم السلالات المحلية التى سمح لها الرومان بالبقاء في «اليهودية» والبتراء وتدمر، بينما احتفظت العامة بحضارتها، وترأس اليهود الكاهن الأعظم بعد أن فقد لقب الملك. وبقيت اللغة

العبرية لغة ممارسة العبادة بينهم، بينما تكلم عامتهم الأرامية شأن بقية أهل فلسطين. وكان عدد سكان سورية الكبرى آنذاك حوالى سبعة ملايين نسمة منهم حوالى مليون نسمة في فلسطين.

وقد شهدت القدس في تلك الفترة احتدام الخلاف بين اليهود «الصدوقيين» المصطبغين بالصبغة الهيلينية واليهود «الفريسيين» المتمسكين بتقاليد ديانتهم (والاسم يعنى بالعبرية الاعتزال والفرز والتجنيب)، ثم قيام الفريسيين بثورة ضد الرومان عام ٦٦م. استمرت أربع سنوات، وأرخ لها المؤرخ «يوسيفوس» الذى ولد في القدس عام ٣٧م. وانتهت هذه الثورة بعد أن قام طيطوس بن نيرون بحصار القدس مدة خمسة شهور واحتلال المدينة وهدمها وإحراق المعبد الذى بناه «هيرود» عام ٧٠م. ولجأ نفر ممن فروا من القدس إلى قلعة مصعدة على شاطئ البحر الميت بقيادة «اليعازر بن يائير» إلى الانتحار الجماعى حين اشتد عليهم حصار الرومان عام ٧٣م، وغدت «اليهودية» مقاطعة امبراطورية.

أصبحت القدس بعد قمع هذه الثورة خالية من اليهود، كما خلت منهم أكثر المدن الهلينية في فلسطين فتركزوا في الساحل الغربى. وعمد الامبراطور الرومانى هادريان (١١٧ - ١٣٨م) إلى بناء مستعمرة رومانية في القدس أطلق عليها اسم «ايليا كابتولينا» بدلاً من «أورشليم» (وكان اسمه الأول ايليوس) وأصدر مرسوماً يحرم فيه الختان، فنقم اليهود على سياسته وثاروا مرة أخرى بقيادة سمعان باركوخبا سنة ١٣٢م الذى نجح في احتلال القدس وبعض المراكز الرومانية. فكان أن كلف هادريان القائد الرومانى جوليوس سيفروس بقمع الثورة، فنجح في ذلك عام ١٣٥م، واحتل القدس. وأعاد هادريان بناء المدينة وأصدر عدة مراسيم تحرم على اليهود دخولها وممارسة طقوسهم فيها وأطلق على البلاد اسم «فلسطين سورية». وباتت الجماعة اليهودية أقلية في البلاد بفعل ما فقدته خلال الثورتين وتحول بعض اليهود إلى المسيحية.

وقد تعرض المسيحيون في القدس وفلسطين لاضطهاد الرومان الشديد في عهد نيرون الذى شهد استشهاد الحوارى بطرس وبولس عام ٦٧م في روما. ثم عهد درمتيان عام ٩٥م، وفي عهد تراجان الذى أصدر مرسوماً عام ١٩٢م ينص على معاقبة كل مسيحى يرفض تقديم مراسيم الاحترام لآلهة الدولة. وفي عهد دينيوس الذي أكد هذا المرسوم عام ٢٥٠م، ولكن المسيحية صمدت أمام الاضطهاد وانتصرت على ديانات

الأسرار في الامبراطورية. وتزايد عدد معتنقيها في القدس وفلسطين على الرغم من الاضطهاد الكبير في عهد الامبراطور ديوكليتيان عام ٣٠٣م. وانتشرت بين الأنباط الذين لم تتمكن «اليهودية» من تهويدهم وعبور نهر الأردن شرقاً، كما انتشرت في مملكة تدمر. ولم تلبث أن نفذت إلى قمة الحكم في الامبراطورية، حين اعتنقها الامبراطور قسطنطين سنة ٣١٢م الذى أسس عاصمة جديدة في موقع بيزنطة القديم في آسيا الصغرى، حيث تلتقي آسيا بأوروبا، دشنها عام ٣٣٠م وحملت اسمه «القسطنطينية».

ازدهرت المسيحية في القدس وفلسطين بعد اعتراف قسطنطين بها ديانة رسمية جديدة للامبراطورية، وقامت والدته هيلانه بزيارة إلى القدس، اقترنت ببناء قسطنطين كنيسة القيامة هناك وكنيسة المهد في بيت لحم. وانتشر بناء الكنائس والأديرة في فلسطين وسورية ومصر التى ظهر فيها نظام الرهبنة لأول مرة على يد مؤسسه انطوان الذى اعتزل في الصحراء ومات بين عامى ٣٥٦ و٣٦٢م. وتتحدث بعض المصادر اليهودية عن معاداة قسطنطين لليهود، وعن انتفاضة قام بها اليهود عام ٣٥١م، احتجاجاً على بناء الكنائس، كما أورد كتاب «اليهود في أرضهم» الذى حرره بن غوريون. وقد حذا خلفاء قسطنطين حذوه في دعم المسيحيين عدا جوليان المرتد (٣٦١ - ٣٦٣م) الذى سمح لليهود بالإقامة في فلسطين ولكن عهده لم يطل أكثر من عشرين شهراً.

استمر انتشار المسيحية في فلسطين بين اليهود، وشهدت القرون الثلاثة الأخيرة من حكم الرومان لفلسطين إبان العهد البيزنطي انحسار اليهودية. وقد ثار السامريون عام ٤٨٥م، ثم عاودوا الثورة في عهد جوستيان عام ٥٢٩م، على قرارات أصدرها الامبراطور تمنعهم من بناء معابدهم، فأخمد الحارث الغسانى هذه الثورة. وقد قاتل اليهود مع جيش الفرس الذى زحف به كسرى ابرويز (الظافر) على فلسطين عام ٦١٤م، وكان عددهم حوالى عشرين ألفاً، الأمر الذى يشير إلى أن عدد اليهود الإجمالى في فلسطين كان حوالى ٢٠٠ ألف. ونجح كسرى في احتلال القدس وأشعل جنوده النار في كنيسة القيامة، وهدموا الكنائس ونهبوا ونكلوا بالأهالي، ونقلوا الصليب إلى فارس.

وتتحدث المصادر اليهودية عن سيطرة اليهود في القدس طوال ثلاث سنوات وانتقامهم من المسيحيين وقيامهم بالتحضير لبناء الهيكل. كما تتحدث عما تسميه خيانة الفرس لليهود، حيث عينوا أسقفاً لحكم القدس وأصدروا أوامرهم بطرد اليهود منها. ولم يلبث أن استطاع هرقل امبراطور الروم أن يجمع قواه ويطرد الفرس من القدس

وفلسطين وسورية بعامة وينتصر على كسرى في معركة فاصلة عند نينوى عام ٦٣٧م، واستعاد الصليب ورفعه في القدس يوم ٦٢٣/٩/١٤م. الذى أصبح عيداً مسيحياً. وتشير المصادر اليهودية إلى انتقام هرقل من اليهود. وتذكر أن عدداً منهم تحول إلى المسيحية بينما اعتزل آخرون إلى أن كان الفتح الإسلامى لفلسطين عام ٦٣٤م. وقد جاء ذكر هذه الحرب بين الفرس والروم في مطلع سورة الروم في القرآن الكريم «ألم.. غلبت الروم في أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيغلبون في بضع سنين، لله الأمر من قبل ومن بعد».

يمكننا في ضوء ما أوردناه من حديث عن هذه المرحلة الثانية من تاريخ القدس والوجود اليهودى فيها، أن نقرر أن هذا الوجود استمر إلى جانب الوجود الكنعانى الأرامى، وأن حكم المكابيين اليهود في ظل العهد السلوقى اليونانى شهد تهويد الأدوميين والأيطوريين من شعب فلسطين بالقوة، وأن أكثر هؤلاء وغيرهم من شعب فلسطين لم يلبث أن تحول إلى اعتناق المسيحية بعد ظهور السيد المسيح عيسى بن مريم عليه السلام، وقد بقيت البلاد كنعانية الطابع والحضارة، وتحدث أهلوها اللغة الأرامية.

كما نقرر أن الوجود اليهودى في القدس كاد أن ينعدم بعد قيام هادريان بقمع ثورة باركوخبا عام ١٣٥م. وقد تضاءل الوجود اليهودى في فلسطين بعامة بسبب هجرة أعداد من اليهود إلى الأقطار المجاورة أولاً ثم بسبب تحول أعداد أخرى إلى اعتناق المسيحية. وجرى تحريم الإقامة في القدس على اليهود بعد أن أخرج الرومان الفرس منها عام ٦٢٨م، لأنهم عاونوا الفرس على احتلال المدينة عام ٦١٤م. ونلاحظ أيضا أن شعب فلسطين عانى خلال الحكم البيزنطى من تعصب بعض الحكام البيزنطيين ومن محاولاتهم فرض مذاهبهم الدينية على الناس. وقد حرص المسيحيون من أبناء هذا الشعب على التمسك بمذهبهم، واعتبروا كنيستهم مؤسسة دينية وقومية يعبر التمسك بها عن توق إلى التعبير عن الذات الحضارية.

نصل إلى مرحلة أخرى من تاريخ القدس والوجود اليهودي فيها، بدأت مع الانطلاقة العربية بالإسلام في القرن السابع الميلادى الموافق الأول الهجرى، وهى مرحلة شهدت قيام حضارة عظيمة هى الحضارة العربية الإسلامية التى جرى التعبير في ظلها باللسان العربى، وكان الإيمان بالله سبحانه والإسلام له، حاكماً رؤيتها الكونية

المؤمنة. وقد شارك في بنائها وأسهم في أزدهارها مع العرب أقوام وملل أخرى. وتمثلت هذه الحضارة حضارات المنطقة القديمة وتفاعلت مع حضارات أخرى في الشرق والغرب. ومثَّلت لكل من عاش في كنفها دائرة انتماء تكاملت مع دائرة الانتماء للقوم وللدين، ووضعت نصب عينها العمران.

دخلت فلسطين والمنطقة العربية عموماً مرحلة جديدة من تاريخها بفعل هذه الانطلاقة، متصلة بما سبقها من مراحل، وإن تميّزت بما شهدته من تصورات أوصلت إلى بلورة صورة فلسطين العربية التى استمرت طوال القرون الثلاثة عشر التالية. ودخلت القدس أيضاً مرحلة جديدة، استمرت خلالها في كونها مركزاً روحياً مزدهراً، واتصل تاريخها على مدى طويل، تعرضت خلال قرن منه لغزو الفرنجة وتسلطهم عليها، وغدت القدس مركزاً من مراكز الحضارة العربية الإسلامية، وإحدى منائر العلم في ديار الإسلام.

كان العرب قبل هذه الانطلاقة قد عرفوا فلسطين والقدس، فمن جزيرتهم خرجت موجات هجرات الكنعانيين والعموريين والأراميين. وقد أشارت التوراة إلى سكان الجنوب والساحل باسم «العرب» منذ القرن السادس قبل الميلاد كما سبق وذكرنا. وجاء أن بعض القبائل العربية حاربت مع الفلسطينيين الذين هاجموا أورشليم في سنة ٨٥٠ ق.م. وجاء أيضا أن بعض العرب اشتركوا في الدفاع عن غزة أمام الاسكندر المقدونى، وأن قبيلة عربية أقامت قرب ايلياء بعد ظهور المسيحية واعتنقت النصرانية وعلا شأنها حتى أصبح شيخها مطراناً. ففلسطين كانت بالنسبة للعرب هى «أدنى الأرض». ومنذ القديم وصلة عرب الحجاز بها وبسورية بعامة قوية في رحلة الصيف التى كانت محطتها الكبرى والبتراء ومنها إلى دمشق أو غزة التى توفى فيها جد النبى (صلى الله عليه وسلم) هاشم، فنسبت إليه «غزة هاشم». وكان العرب أيضاً قبل هذه الانطلاقة قد عرفوا في جزيرتهم العربية الدين اليهودى واليهود، حيث لجأ بعض اليهود بعد تنكيل الرومان بهم إلى مواقع في الحجاز، وتهود بعض العرب. وحين هاجر رسول الله (صلى الله عليه وسلم) إلى المدينة شمل في «الصحيفة» التى نظمت أمور العلاقات، اليهود، الذين اعتبرهم القرآن الكريم أهل كتاب.

نتتبع الوجود اليهودي في القدس منذ الفتح العربى الإسلامى لها عام ٦٣٨م الموافق ١٥ هـ، في ظل العمران الحضارى العربى الإسلامى، في عهوده المتتالية. وقد جاء هذا الفتح بعد أن كان الله جل وعلا قد رفع شأن بيت المقدس بإسراء عبده ونبيه

ورسوله محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم إليها، والعروج به إلى السماء منها، ونزول الوحي بالخبر في سورتي الإسراء والنجم، وتضمنت قصة الإسراء والمعراج معان عظيمة حكمت نظرة الحضارة العربية الإسلامية إلى المدينة، منها ما شرّف الله به القدس من وجود المسجد الأقصى فيها منذ أقدم العصور. والمسجد هو مكان السجود والأقصى هو بالنسبة لأول مسجد وضع للناس ببكة هدى للعالمين والمعنى الآخر هو الصلة بين المسجدين التى رمز لها الإسراء وعززها.

ومعنى ثالث تجلى في قيام محمد صلى الله عليه وسلم بالصلاة بمن سبقه من الرسل عليهم الصلاة والسلام إماماً، وفيهم إبراهيم وموسى وعيسى، تعبيراً عن الإسلام لله وترابط الرسالات حلقات في سلسلة. ومعنى رابع هو هذه الصلة بين الإنسان وغيره من المخلوقات في الأرض بالخالق الواحد الصمد موجد كل شئ في السماء، كما تجلى في المعراج وقد أنزل الله على نبيه في القدس، كما أورد الطبرى في تفسيره، آية من سورة الزخرف هي «واسأل من أرسلنا من قبلك من رسلنا، أجعلنا من دون الرحمن الهة يعبدون». وهذه المعاني جميعها اقترنت بكون القدس القبلة الأولى.

القدس لدى المسلمين.. مكانة دينية وعراقة تاريخية وحضارية

تجلت مكانة القدس عند العرب المسلمين حين انطلقوا بالإسلام، في تهليل جنود جيش الفتح وتكبيرهم لحظة أن أطلوا عليها من مشارفها الجنوبية من الجبل الذى حمل بعد ذلك اسم «جبل المكبر»، واستذكروا ما جاء في الحديث الشريف «لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد: المسجد الحرام ومسجدى هذا والمسجد الأقصى» كما أشار عبد اللطيف الطيباوى في كتابه «القدس الشريف في تاريخ العرب والإسلام».

أول حقيقة تتعلق بالوجود اليهودى في القدس عند بداية هذه المرحلة، هى ما كشفت عنه العهدة العمرية من عدم وجود أحد من اليهود في «ايليا» في يوم الفتح، وطلب أهلها الذين كانوا يدينون بالنصرانية «ألا يسكن بإيلياء معهم أحد من اليهود» واستجابة الخليفة الراشد عمر بن الخطاب رضى الله عنه لهذا الطلب الذى تقدم به باسم أهل ايلياء البطريرك صفرونيوس، وكان هذا البطريرك قد اشترط حين اشتد حصار المسلمين للمدينة أن يسلمها للخليفة نفسه، وقد استجاب عمر وجاء بنفسه وأعطى

عهده الشهير أميراً للمؤمنين إلى أهل ايلياء من الأمان «لأنفسهم وأموالهم وكنائسهم وصلبانهم.. ولا يكرهون على دينهم، ولا يضار أحد منهم». ولطلبهم أن لا يسكن بإيلياء معهم أحد من اليهود، الذين كانوا كما مرّ بنا قد حالفوا الفرس ضد الروم وآذوا النصارى.

لقد بقيت القدس خالية من اليهود تنفيذاً لما جاء في هذا العهد فترة من الزمن لم تطل، لأن الحكم الإسلامى الذى كفل حرية الاعتقاد فلا إكراه في الدين، واحترم أهل الكتاب من اليهود والنصارى، وترك لكل ملّة أن تنظم شؤونها الدينية، ورحب بمشاركة جميع الأقوام والملل في الحياة العامة، سمح لليهود بزيارة القدس، ثم بالعمل فيها وسكناها، ويذكر اسحق موسى الحسينى في كتابه «عروبة بيت المقدس» نقلاً عن مجير الدين الحنبلى «أن عبد الملك بن مروان الأموى أتاح لعشرة من اليهود أن يخدموا صناعاً في المسجد الأقصى» يعملون القناديل والأقداح والثريات وغير ذلك، لا يؤخذ منهم جزية.. جارياً عليهم وعلى أولادهم، وقد انتهت خدمتهم في عهد عمر بن عبد العزيز» ويقول عبد اللطيف الطيباوى في معرض وقوفه أمام هذا الأمر «وكذلك لا يوجد سند تاريخى يثبت نقض ما جاء في العهد العمرى لنصارى إيلياء يمنع إقامة اليهود فيها، كلا ولا بيّنة تفسر سبب إهمال العمل بهذا النص. والغالب أن الشرط لم يلغ، بل قلّ الالتفات إليه تدريجيا في جوّ التسامح العام». وكان هناك عدد من اليهود في مدن فلسطين الأخرى، اللد وعسقلان وقيسارية وغزة وطبرية، وقد رأوا سماحة الحكم العربى بالإسلام، فرحبوا به وهللوا له، وكتب عراف يهودى عن هذا الحكم فجعل ملاكاً يقول لكاهن «لا تخف يا ابن يهوه، فالخالق تبارك اسمه لم يضع مملكة اسماعيل إلا ليخلصكم من هذا الشر (ويقصد حكم الروم البيزنطيين)». كما نقل برنارد لويس في كتابه العرب في التاريخ، وكان اليهود يطلقون على دولة العرب المسلمين اسم مملكة اسماعيل.

في ظل هذا الحكم عاش في القدس نفر من اليهود إلى جانب أهلها من النصارى والمسلمين. وقد تزايد عدد العرب المسلمين فيها لما اتصفت به من جاذبية لهم بحكم قدسيتها جذبت مهاجرين منهم إليها، ولأن الدين الإسلامى كان ينتشر تدريجياً في أوساط المسيحيين واليهود. وتشير مصادر يهودية اعتمد عليها بن زيون دينور في بحثه المنشور في كتاب «اليهود في أرضهم» إلى أن سبعين أسرة سكنت القدس

في العصر الأموى. وذلك بعد أن عبّرت «سماحة العرب تجاه الجماعات الدينية عن نفسها في العهد الأموى» على حد قوله، «وبوضوح أشد في العهد العباسي». وقد سجل دينور هذه الحقيقة وحاول إلقاء ظلال عليها بإيراد تعليلات غير موضوعية لها جعلت حديثه حافلا بالمتناقضات. ويستدل من حديث الرحالة المسلم ناصر خسرو الذى زار القدس سنة ٤٣٨هـ. الموافق ١٠٤٧م. أن عدد سكان المدينة كان ٢٠ ألفاً، وأن مثل هذا العدد من الحجاج كان يزورها سنوياً.

استمر الوجود اليهودى في القدس منذ الفتح العربى الإسلامى لها إلى أن احتلها الفرنجة عام ١٠٩٩م. وفي فلسطين والمنطقة التى أصبحت تعرف بدار الإسلام بعامة. وساهم في هذا الاستمرار هجرات أفراد من اليهود إلى فلسطين طلباً للأمن أو للعلم أو بغرض التعبد، سواء من دار الإسلام أو من خارجها، وقد لاحظ باركس في كتابه «تاريخ فلسطين من ١٣٥م إلى الزمن الحديث»، أن «الحكام المسلمين لم يرفضوا في أى فترة السماح ليهود من بلاد أجنبية أن يدخلوا فلسطين ويقيموا فيها، وبدون هذه الهجرة ما كان لوجودهم أن يستمر». وذلك لأن أعداداً منهم كانت تعتنق الإسلام بكامل رغبتها، والحق أن هذا السماح الذى يشير إليه باركس كان لليهود «المستأمنين» الذين يأتون مسالمين، وهو نابع من تعاليم الدين الحنيف.

عاش يهود القدس ودار الإسلام في ظل الحكم الإسلامى مع غيرهم من الملل التحول العظيم الذى حدث في القرن الأول الهجرى بفعل نشوء العمران الحضارى العربى الإسلامى، وشاركوا في ازدهار هذا العمران الحضارى من موقع الانتماء الحضارى إليه. وهذه ظاهرة يوقف أمامها، وقد كانت لها تجلياتها في طابع حياتهم في القدس ودار الإسلام. ومن الذين وقفوا أمام هذه الظاهرة أحد «يهود الإسلام» كما يصف نفسه إلى جانب كونه «أحد يهود العرب» جدع جلادى الذى كتب «إسرائيل نحو الانفجار الداخلى»، وخصص الفصل الأول من كتابه هذا لتأمل هذه الظاهرة واختار عنواناً للفصل «الوئام بين يهود العالم الإسلامى والأمة الإسلامية». وقد أحسن جلادى الإحاطة بالظاهرة فيما كتب وتتبع جذورها، فعرض بداية تعامل الرسول (صلى الله عليه وسلم) مع اليهود وحلل مضمون الصحيفة، ثم تحدث عن اليهود والفتوحات الإسلامية وترحيبهم بها، ثم شرح نظام الملل الإسلامى وأطلق عليه مصطلحاً حديثاً هو الحكم الذاتى اليهودى، ثم فصل الحديث عن اليهود فى الحكم الإسلامى وإسهامهم في ازدهار

الاقتصاد، ثم وقف أمام تعرب اليهود في الإسلام لساناً وثقافة وحضارة، وعرض أسماء من برزوا منهم في مختلف العلوم والآداب، وفصل الحديث عن «التسامح الإسلامي»، وختم بحديث عن يهود المغرب ويهود العراق. وكان كاتب هذا الحديث قد وقف أمام هذه الظاهرة في بحثه تطور حياة اليهود في فلسطين، وفي بحثه عن التعددية الدينية في الإسلام المنشور في كتابه وحدة التنوع. كما تناولت كتابات عربية وأجنبية الظاهرة بالدراسة، ولافت أن الكتابات الصهيونية حين وقفت أمامها حارت في كيفية التعامل معها، فحفلت بالتناقض مع نفسها، ومثل عليها الفصل الذى كتبه بن زيون دينور في كتاب «اليهود في أرضهم».

إن هذه الظاهرة تفسر خلو تاريخ «يهود الحضارة الإسلامية» من أى ثورات على الحكم على غير ما رأيناه في تاريخ اليهود في ظل حضارتى اليونان والرومان، كما تفسر الإسهام الإيجابى لليهود في هذه الحضارة، وانعكاسها الإيجابى على حياتهم. وقد عرض فؤاد حسنين علي في كتابه «المجتمع الإسرائيلي منذ تشريده حتى اليوم» مثلاً على ذلك، ظهور مذهب القرائين الذى هو «ولاشك وليد الإسلام والمجتمع الإسلامى».

وكان اليهود قبله يخضعون دينياً لنظام تلمودي شديد يقيد حريتهم، فإذا بالحضارة العربية الإسلامية تهزهم وتزعزع ثقتهم في التلمود، فكان أن ظهر هذا المذهب الجديد وطور «الربانيون» منهم مذهبهم. وهكذا برز عنان الذى أسس القرائين في العصر العباسى وتأثر بتيارات الفكر الإسلامى، وبرز أيضاً سعيد يوسف الفيومى الذى دافع عن اليهودية «السنية» ضد القرائين وألف عدداً من الكتب. وفيما يخص موضوع حديثنا «الوجود اليهودى في القدس» نجد أن بيت المقدس صارت مركزاً لحركة القرائين، فقامت فيها مدرسة لهم، وبرز فيهم دانيال بن موسى القمصى. وانتشر نفوذ القرائين من هذا المركز إلى مختلف تجمعات اليهود في أوطانهم في أوروبا ودار الإسلام على السواء. ولكن المذهب لم يلبث أن ضعف، مع ما أحدثه تطور «السنية اليهودية» من انتعاش فيها. والحديث عن انتماء يهود الإسلام إلي الحضارة العربية الإسلامية وإسهامهم فيها يغرى بالاستطراد. ولكن مجال هذا الحديث يضيق عنه. ونكتفى بالإشارة إلى إعلان يهود برزوا من أمثال موسى بن ميمون وابن كمونة والسمؤل بن حنفى وغيرهم.

محو الوجود اليهودى في القدس إبان الغزو الفرنجى

تعرض الوجود اليهودى في القدس للمحو التام حين غزا الفرنجة الذين رفعوا شعار «الصليب» دار الإسلام، واحتلوا القدس عام ١٠٩٩م، ٤٩٢هـ. وكان هذا الوجود اليهودى يعيش في ظل السماحة الإسلامية، وقد تحدث المؤرخون عما حظى به أهل الكتاب من يهود ونصارى من رعاية الحكم الفاطمى في عهد العزيز بالله، حيث قربهم واستخدمهم في وظائف عليا، وكانت محنة اليهود إبان الاحتلال الفرنجى جزءاً من محنة أهل المدينة بعامة، وغالبيتهم من المسلمين، ومحنة العمران الحضارى، وقد أوجز مجير الدين الحنبلى وصف هذه المحنة في كتابه «الأنس الجليل في تاريخ القدس والخليل» بقوله «لم ير في الإسلام مصيبة أعظم من ذلك» ونقل عن ابن الأثير «لبث الأفرنج في البلدة أسبوعاً يقتلون المسلمين. وقتلوا في المسجد ما يزيد عن السبعين ألفاً، منهم جماعة كثيرة من أئمة المسلمين وعلمائهم وعبادهم وزهادهم ممن فارق الأوطان وجاور بذلك الموقع الشريف»، فأضاف الحنبلى «حصروا المسلمين في الحرم الشريف واعطوهم ثلاثة أيام للخروج من المدينة، والمتأخرون يقتلون». وأما من كان في المدينة من اليهود فقد جمعهم الفرنجة في «الكنيس وأحرقوه عليهم» كما جاء في ذكر تاريخ دمشق للقلانسى وفي النجوم الزاهرة لابن تغرى بردى. وأما أهل القدس العرب النصارى فقد أبقاهم الفرنجة، ولكن جردوهم القيادة الدينية بإلغاء البطريركية الأرثوذكسية وإقامة أخرى لاتينية مكانها.

إذا ما ركزنا النظر على محنة اليهود في القدس، في نطاق موضوع هذا الحديث، نجد أن مؤرخين يهوداً تناولوها بحديث تفصيلى أوجزه بن زيون دينور بعنوان فرعى وصف فيها ما قام به الفرنجة بأنه «رخصة للقتل»، وأشار فيه إلى قيامهم بقتل اليهود في أوروبا وهم في طريقهم إلى القدس، وسلبهم الممتلكات اليهودية في مطلع الحروب التى أطلقوا عليها «الحملات الصليبية». وقد نقل ما جاء في رسالة بعث بها «جودفرى» قائد الحملة الأولى إلى البابا باسم «جيش الله في فلسطين» من وصف لجنوده على خيولهم وهم يخوضون في دماء المسلمين في الحرم حتى قوائم لخيول. وذكر ما أدلى به شهود عيان نجوا.. «أن الفرنجة قتلوا كل الإسماعيليين (يقصد العرب المسلمين) وكل الإسرائيليين في المدينة تقريباً، عدا نفر أخذوا أسرى. وقد «عومل اليهود معاملة خاصة» على حد تعبير دينور «حيث جمعوا داخل كنيسهم وأضرمت فيه

النار». وحدث أن عدداً من اليهود لجأ إلى المسجد بعد المذبحة الكبيرة فيه، فأخذوا مع أسرى المسلمين، وحين عرف الفرنجة أنهم يهود باعوهم أرقاء. «وكان ثمن ثلاثين منهم قطعة ذهب واحدة» وتم أخذ عدد من يهود المدن الفلسطينية الأخرى الذين جرى استرقاقهم إلى ما وراء البحار. وينقل دينور أن المطران الفرنجي الذى سجل ذلك تحدث عن أن بعضهم غرق أو قطع رأسه «وهكذا تمت تنقية مدينة القدس بكاملها من التلويث والفساد» على حد قول ذلك المطران الفرنجي.

استمرت محنة حروب الفرنجة ١٩٢ عاماً. ويدعو ما قام به الفرنجة والغزاة من فظائع خلالها إلى الخاطر كيف تم الفتح العربى الإسلامى لبيت المقدس من باب تداعي الأضداد، ويصل بنا إلى المقارنة بين سلوك العرب المسلمين الفاتحين حين انطلقوا بالإسلام وفي ظل الحضارة العربية الإسلامية وسلوك الفرنجة الأوروبيين الغزاة حين انطلقوا طامعين بمغانم الشرق رافعين شعار التعصب الأعمى في ظل حضارتهم الغربية. كما يدعو قتل الفرنجة اليهود في القدس وقبل ذلك في طريقهم إلى القدس إلى الخاطر قيام أحفادهم بعد سبعة قرون بتنظيم اضطهادات لليهود في أوروبا، ثم باستغلال اليهود الأوروبيين في إقامة قاعدة استعمارية استيطانية لهم في فلسطين واستخدامهم للتسلط على دائرة الحضارة العربية الإسلامية.

الوجود اليهودى في القدس بعد تحريرها..

انتهت محنة القدس بعد تسعين عاماً من احتلال الفرنجة لها، حين حرّرها صلاح الدين الأيوبى بعد انتصاره في موقعة حطين الفاصلة، ودخل المدينة في ذكرى الإسراء والمعراج يوم ٢٧ رجب سنة ٥٨٣ هجرى، الموافق الثانى من تشرين أول (اكتوبر) ١١٨٧ ميلادى، وأعطى هذا الفاتح المسلم نموذجاً رائعاً في الرحمة والتسامح، حين عفا ورحم وأعطى الأمان لأنفس الفرنجة وأموالهم حتى بلغوا مأمنهم في الساحل. وقد سجل ستانلى لين بول في تأريخه لصلاح الدين «إذا كان أخذ القدس هو الحقيقة الوحيدة التى نعرفها عن صلاح الدين، فإن ذلك كاف لإثبات أن صلاح الدين هو أكثر المنتصرين فروسية، وأعظمهم قلباً في زمانه، ولعله في كل زمان». والحديث عما قام به صلاح الدين لتعمير بيت المقدس من جديد بعد تطهيرها من رجس الاحتلال ذو شجون، ويغرى بالاستطراد، ولكن له مجالاً آخر، لنبقى مع موضوع الوجود اليهودى في القدس.

لقد سمح صلاح الدين لليهود بالإقامة في المدينة، فأقام فيها نفر منهم، تماماً كما أعاد للبطريركية الأرثوذكسية التى ألغاها الفرنجة اعتبارها، ويفيض المؤرخون في الحديث عن سماحة صلاح الدين مع اليهود في فلسطين. وقد نقل بن زيون دينور عنهم ما كتبه يهودي من القدس إلى يهودا الحريزى «لقد رفع الله روح ملك الاسماعيليين (أى العرب المسلمين) في سنة أربعة آلاف وتسعماية وخمسة من الخلق، لتنزل فيه روح الحكمة والشجاعة، وهكذا جاء هو وجيشه من مصر وحاصروا أورشليم (القدس). فسلمهم الله المدينة بين أيديهم. وأمر الملك (أى صلاح الدين) أن ينادى بصوت عالٍ في المدينة، للكبار والصغار، معلماً أهل القدس أن أي واحد يرغب من أبناء أفرايم من الذين بقوا بعد المنفى الأشورى والذين توزعوا في أنحاء الأرض يمكنهم العودة إلى المدينة». وينقل علي السيد علي في كتابه «القدس في العصر المملوكي» عن بعض المراجع أن عدداً من اليهود وفد إلى بيت المقدس من البلاد العربية وأوروبا فزادوا بضعة مئات، وأن صموئيل بن سيمون وهو يهودى زار فلسطين سنة ١٢١٥ ذكر أن أكثر من ٣٠٠ من الربابنة من جنوب انجلترا وفرنسا ذهبوا إلى الأرض المقدسة. ويقول دينور إن الملك العادل أخا صلاح الدين أحسن استقبالهم وسمح لهم ببناء الكنيس والكلية. وقد برز في عهد صلاح الدين من اليهود موسى بن ميمون (١١٣٥ – ١٢٠٤) الذى أصبح طبيباً من أطبائه، وهو عند اليهود موسى الثانى، لعلمه وفقهه، وأشهر كتبه الفقهية «دلالة الحائرين» باللغة العربية. لم يلبث الوجود اليهودى في القدس بعد أن عاد في عهد صلاح الدين، أن تضاءل في آخر العصر الأيوبى وبداية عصر المماليك، فقد ذكر الرحالة اليهودى نحمانيدس الذى زار بيت المقدس عام ١٢٦٧م أنه وجد فيها اثنين من اليهود كانا يعملان في الصباغة وهما أخوان. وتعلل المراجع اليهودية ذلك بأنه كان بفعل ما تعرضت له بلاد الشام من أخطار أثناء غزوات المغول. ولكن لم يلبث أن زاد عدد اليهود في القدس فبلغ عشرات، ونهج المماليك نهج الأيوبيين في سماحتهم مع أهل الكتاب نصارى ويهوداً. وقد ذكر مسلم الفولتيرى الذى زار القدس عام ١٤٨١ أنه وجد فيها ٢٥٠ يهودياً يسكنون بيوتاً يملكونها، وبعد عامين زارها الرحالة فابرى فذكر أن عدد اليهود كان أكثر من ٥٠٠ نسمة. ثم زارها الرحالة اليهودى عوبديا من بلدة بير تينور عام ١٤٨٨ فذكر أن سبعين عائلة يهودية تسكنها، وأن فيها معبداً لا يدخله الضوء إلا من الباب.. وهو ملاصق لمسجد للمسلمين. وتؤكد رسالة بعث بها رهبان الفرنسيسكان إلى البابا مارتن الخامس حول خلاف نشب

بينهم وبين اليهود في القدس على تملك القبو الذى يوجد به قبر داود سنة ١٤٢٩، أن أعداداً من يهود أوروبا كانوا يأتون لزيارة القدس والإقامة فيها، حيث طلبوا منه أن يحرم على المسيحيين نقلهم على سفنهم ففعل وأصدر منشوراً بذلك.

عاش اليهود فى بيت المقدس في عصر السلاطين المماليك في حي عرف باسمهم «حارة اليهود». وإليها نسب أحد أبواب المدينة، وقد نقل على السيد على عن الباحث مارمورش وصفه للحارة التى كان فيها شارع رئيسى على جانبيه منازل يسكنها اليهود، قريب من بوابة صهيون. ويذكر مجير الدين أنها بجوار حارة الصلتين من جهة الغرب وضمنها حارة الريشة وحارة صهيون الجوانية. ولم يتجاوز عددهم بضع مئات، وكانوا من القرائين والربانيين والسامرة، المذاهب اليهودية الثلاثة. أما سامرة نابلس فكانوا يزورون القدس ولا يعيشون فيها تبعاً لمعتقداتهم. وكان يرأس كل فئة «راباي» وعلى رأس مجموعة الربابنة «حاخام». وقد عملوا مرشدين سياحيين للحجاج المسيحيين إلى جانب أعمال أخرى اشتهر بها اليهود في المجتمع مثل التجارة وصناعة الدباغة والخياطة والأحذية وسك النقود والصيرفة. وينقل على حسن الخربوطلى في كتابه «العرب واليهود» عن ابن حوقل أنهم احتكروا تجارة الأصباغ فترة. وكان على رأس يهود الدولة الإسلامية رئيس يحمل اسم «رأس الجالوت».

وفى عام ١٥١٦م ضمت الدولة العثمانية بلاد الشام بعد انتصار السلطان سليم على قونصوه الغورى في معركة مرج دابق قرب حلب. وأصبحت القدس سنجقاً من ولاية دمشق. وقد عرج عليها السلطان سليم فاستقبله علماؤها ووجهاؤها وأولوا له في ساحة الحرم الشريف. وحين تولى ابنه السلطان سليمان (١٥٢٠ - ١٥٦٠م) عنى بالقدس فرمم قبة الصخرة وأعاد تبليط المسجد وعمرّ جدران الحرم الشريف وأبوابه، وأنشأ عدداً من السبل، وأصبح يعرف بخادم الحرمين فى القدس والخليل إضافة إلى لقب خادم الحرمين في مكة والمدينة. وزارت زوجته السلطانة القدس وأوقفت أوقافاً عليها، وأمن السلطان سليمان الطريق بين يافا والقدس حماية للحجيج. واستمر الوجود اليهودى في القدس في العهد العثمانى شأنه في عهود الحكم الإسلامى السابقة. ويذكر اسحق بن زفى في بحثه في كتاب «اليهود في أرضهم» أن عدد اليهود عام ١٥٢٦م كان ٢٠٠ نسمة حسب إحصاء رسمى، وأنه أصبح تبعاً لأحد المصادر ٣٢٤ رب أسرة و١٩ عازباً سنة ١٥٥٥، وترجع هذه الزيادة إلى هجرة أعداد من يهود الأندلس «السفارديم» إلى الدولة العثمانية بعد نكبة المسلمين في الأندلس سنة ١٤٩٢م.

وينوه المؤرخون اليهود بسماح العثمانيين للاجئين اليهود بالإقامة في دار السلام، في الوقت الذى رفضت بعض الأقطار الأوروبية استقبالهم. ويقول اسحق بن زفى «إن حارة اليهود ضمت سفارديم، وأشكناز، ويهود مغاربة ويهود مستعربين». وهو يعنى بالمستعربين، اليهود العرب الذين عاشوا في فلسطين والأقطار العربية». و قد تحسنت أحوالهم في عهد السلطان سليمان الذى بنى السور العظيم، وفي عام ١٥٥١ أصدر السلطان فرماناً ولّى فيه الشيخ أحمد الدجانى أمر خدمة ضريح النبى داود الذى كان الخلاف احتدم بشأنه بين الفرنسيسكان الرهبان واليهود في عهد سلاطين المماليك، فتولت العائلة الدجانية هذا الأمر حتى نكبة فلسطين ١٩٤٨.

ويسهب المؤرخون اليهود في الحديث عن ازدهار الوجود اليهودى في صفد شمال فلسطين التى استقبلت أعداداً من اللاجئين السفارديم وقام فيها مركز علم يهودى، ولكنهم يعودون ويتحدثون عن انتعاش يهود القدس في مطلع القرن السابع عشر الميلادى، ثم عن معاناتهم بفعل تسلط بعض المتنفذين، ثم عن انتعاشهم مرة أخرى بفضل قدوم يعقوب حاجز من المغرب عام ١٦٥٨م وتأسيسه «بيت يعقوب»، ثم عن معاناتهم أثناء تعرض القدس لأحداث محلية بسبب ضعف الإدارة العثمانية في القرن الثامن عشر.

قصدنا الاستشهاد ببعض ما كتبه المؤرخون اليهود الصهاينة وهم يقرأون تاريخ الوجود اليهودى في القدس إبان الحكم الإسلامى، لنلمس توزعهم وتخبطهم في كيفية التعامل معه. والحق أن القراءة الموضوعية لما كتبوه تقف أمام تركيزهم على اليهود بمعزل عن المجتمع الذى يعيشون فيه، وكأنهم وحدهم في هذا المجتمع، الأمر الذى يودى إلى أن تكون قراءتهم معنية بما صادف هؤلاء اليهود من مخاسر أو مكاسب، وهم ينطلقون دوماً من محاولة تأكيد سعي اليهود إلى ما يسمونه «استعادة القدس» بالمصطلح الصهيونى، مغفلين حقيقة انتماء اليهود المقيمين في الوطن العربى إلى الحضارة العربية الإسلامية.

وهذا ما جعلهم يولون عناية خاصة لتتبع الاشكناز اليهود الذين لجأوا إلى الدولة العثمانية مهاجرين، والانطباع الذى تخرج به القراءة الموضوعية لكتاباتهم هو أن الوجود اليهودى في القدس والمنطقة بعامة كان يتأثر سلباً بفعل قدوم هؤلاء الأشكناز وسلوكهم.

وإذا ما عدنا إلى المصادر العربية للعهد العثمانى نجد أن الحديث عن اليهود في القدس كان باعتبارهم من الرعايا العثمانيين يعيشون مع بقية الرعايا وفق نظام الملل، ونجد أن الوجود اليهودى في القدس بقى محدداً شأنه في العهود التى سبقت، كما بقى مطبوعاً بطابع الحضارة العربية الإسلامية في غالبه.

بدأ التحول في الوجود اليهودى في القدس عن هذا الطابع يحدث تدريجياً مع تنامى النفوذ الأوروبى في الدولة العثمانية في القرن الثامن عشر الميلادى، بعد أن اعتورها ضعف. فقد احتفظ من جاء من الاشكناز بجنسياتهم الأوروبية لكى يستفيدوا من الامتيازات الأجنبية، وعمدوا إلى العزلة فلم يمتزجوا بالمحيط العربى أو حتى باليهود العرب أو بالسفارديم وغالوا في تعصبهم، فأصبحوا محل اهتمام قوى الهيمنة الأوروبية التى خططت للقضاء على الدولة العثمانية واحتلال القدس والوطن العربى، وهكذا رأينا نابليون بونابرت يوجه نداءه أثناء غزوته الاستعمارية لمصر وفلسطين بعد ارتداده أمام أسوار عكا إلى ما أسماه «الأمة اليهودية»، داعياً اليهود للنهوض، وعارضاً عليهم إقامة دولة لهم في فلسطين، وقد باشرت بريطانيا بعد أن هزمت بونابرت في وضع مخطط توظيف يهود أوروبا لسيطرتها على فلسطين والمنطقة. وهكذا جعلت القنصلية البريطانية في القدس إحدى وظائفها حماية اليهود. وبدأت تظهر بوضوح في أوروبا «الصهيونية السياسية» التى اثرت على الوجود اليهودى في القدس طوال القرن التاسع عشر الميلادى، واضعة نصب عينها إخضاعه بالغزو الحضارى المسلح إلى حضارة الغرب بهدف اغتصاب القدس.

وبعد...

فإننا نستطيع في ختام هذا الحديث عن الوجود اليهودى في القدس منذ وجوده حتى بروز الصهيونية السياسية أن نرى بوضوح بطلان مزاعم اليهود الصهاينة بشأنه، وحقيقته في حجمه الحقيقى وفي وسطه الحضارى، وحقيقة تاريخ بيت المقدس، فالقدس نشأت وترعرعت ونمت مدينة «كنعانية عمورية أرامية عربية»، قبل بداية ظهور اليهود بعد السبى البابلى لبنى إسرائيل بخمسة وعشرين قرناً. وقد استمرت إحدى المنائر الحضارية لحضارات المنطقة العربية القديمة، وبرزت منذ نشأتها قبلة روحية للمؤمنين بالله سبحانه وحملت اسم «السلام» أحد اسمائه واسم «القدس» نسبة لاسم آخر من اسمائه. واستقر في جوارها في الخليل أبو الأنبياء ابراهيم عليه السلام وفي أريحا لوط

عليه السلام، وعدد من الأنبياء من ذرية ابراهيم واسحق ويعقوب الذى حمل اسم إسرائيل، إلى أن دخلها النبى داود وحكمها ومن بعده ابنه سليمان عليهما السلام، وهؤلاء الأنبياء جميعاً كانوا مسلمين لله، وهذا التراث الروحى هو جزء من تراث شعب فلسطين وأمته العربية، محل اعتزاز المؤمنين واحترامهم، وقد عبّر شعب فلسطين العربى عن ذلك فيما عبر بإطلاق اسماء هؤلاء الأنبياء على مواليده وصيانة أضرحتهم وزيارتها.

نرى بوضوح أيضاً أن الوجود اليهودى حين بدأ في القدس كان جزءاً من وجود عربى أكبر، وقد تأثر اليهود بالحضارة الكنعانية وأخذوها، شأن كثير من الذين وفدوا إلى فلسطين وامتزجوا بشعبها، ثم اسهموا فيها. وقاوم هؤلاء اليهود محاولات الإغريق والرومان فرض الحضارة الهلنستية الرومانية عليهم، وكذلك التسلط السياسى، فكانت ثوراتهم التى أدت إلى قيام الرومان بإخراجهم من القدس عام ١٣٥م حين ظهرت المسيحية قبل ذلك، تحول كثير من اليهود إلى الإيمان بها، وبخاصة بعد أن اعتنقها قسطنطين وخلافؤه في بيزنطة. وأصبح الوجود اليهودى في القدس ضئيلاً، وتلاشى حين أمر هرقل بعد انتصاره على الفرس في مطلع القرن السابع بإخراج اليهود من القدس لأنهم عاونوا الفرس.

ثم نرى بوضوح كيف كانت انطلاقة العرب بالإسلام في القرن السابع الميلادى الأول الهجرى، بداية مرحلة جديدة في تاريخ القدس والمنطقة، حيث حررت المدينة من تسلط الروم عليها، وأمّنت أهلها من النصارى، وأعطتهم حقوقهم، وأفسحت المجال لوجود يهودى في القدس في إطار الحضارة العربية الإسلامية.

وقد أسهم اليهود شأن الملل الأخرى في ازدهار هذه الحضارة، وانتموا إليها، فعادت عليهم بالخير، ويقول سولومون جرايزل في كتابه تاريخ اليهود «إننا مدينون ليهود فلسطين بين القرن السادس والقرن العاشر الميلادى، فإذا كنا نقرأ التوراة بسهولة هذه الأيام، ونصب في قلوبنا أجمل الصلوات فإن الفضل لهم، وقد أعطاهم حكم الإسلام دفعة جديدة من الحياة». وقد استمر الوجود اليهودى في القدس طوال عهود الحكم الإسلامى محاطاً بسماحة الإسلام، فكانت له مدارسه التي أغنت اليهودية. ولا تزال آثار بعضها قائمة إلى جانب عشرات الآثار الإسلامية والمسيحية، مثل كنيس القرائين وكنيس المغاربة ومدرسة التوراة التى ذكرها رائف نجم في كتابه «كنوز القدس».

وتعرض هذا الوجود للمحو التام إبان الاحتلال الفرنجي للقدس، ثم عاد بعد أن حررها صلاح الدين.

ونرى بوضوح أخيراً أن هذا الوجود اليهودى في القدس الذى كان منتمياً للحضارة العربية الإسلامية، بدأ يتغير انتماؤه جزئياً بفعل، انضمام اشكناز يهود أوروبيين له في التاريخ الحديث بدءاً من القرن السادس عشر الميلادي، وقد تنامى التأثير السلبى لهؤلاء منذ القرن الثامن عشر بفعل تحالفهم مع قوى الهيمنة الأوروبية.

وظهرت مع بروز الصهيونية السياسية في أوروبا في القرن التاسع عشر إرهاصات صراع حضارى بين الاشكناز الغربيين والسفارديم ويهود الحضارة العربية الإسلامية، هو جزء من الصراع الحضارى بين الحضارة الغربية والحضارة العربية الإسلامية. ودائرة الحضارة العربية الإسلامية تستنفر اليوم طاقاتها للانتصار في هذا الصراع وتحرير بيت المقدس التى نجحت الصهيونية السياسية مع قوى الهيمنة الغربية في احتلالها وباشرت في تغيير معالمها الحضارية وممارسة حكم عنصري فيها. ذلك أن تحرير القدس هو رمز الانتصار في هذا الصراع، وهو الكفيل بالوصول إلى السلام الحقيقى الذى يعيش فيه اليهود مستأمنين بعد أن ينبذوا الصهيونية العنصرية في ظل الحضارة العربية الإسلامية كما عاش أجدادهم قبلاً.

وثيقتان أمريكيتان بشأن التسوية، وعام «خاص»

يستطيع مؤرخ الصراع العربى الصهيونى، وهو يتشوف ما تحمله الأيام القادمة على صعيد عملية التسوية الجارية، أن يرى بوضوح أن الفترة بين صيف ١٩٩٩ وصيف ٢٠٠٠ سوف تكون «عاماً خاصاً» بما يحفل به من تحديات لنا نحن العرب، وبما يمكن أن يشهده من استجابات عربية لتلك التحديات.

هو عام خاص تضافرت في إكسابه «الخصوصية» عوامل دولية ومحلية وتتجلى خصوصيته في أنه سوف يكون عام استئناف إسرائيل المفاوضات على المسار الفلسطيني للوصول إلى ما يسميه مصمم التسوية الأمريكي «الحل النهائي»، وفي أنه من المتوقع أن يكون عام استئناف التفاوض الإسرائيلى على المسارين السورى واللبنانى أيضاً.

كان للعوامل الدولية النصيب الأكبر في إكساب هذا العام خصوصية، وبخاصة موقف الولايات المتحدة الأمريكية وموقف الاتحاد الأوروبى. وليس بمستغرب أن يكون للبعد الدولى هذا التأثير الكبير وعملية التسوية الجارية هى عملية دولية تقودها واشنطن. ولذا فإن من المفيد استحضار هذا البعد والتأمل فيه.

لقد برز العامل الامريكى من جديد في خريف عام ١٩٩٨، عاملاً فاعلاً في عملية التسوية الجارية، حين أحضر الجانبين الإسرائيلى والفلسطينى إلى «واي بلانتيشن» وأوصلهما إلى الاتفاق على «مذكرة نهر واي» التى نص البند الرابع فيها على «أن يستأنف الجانبان فوراً مفاوضات الوضع النهائى بوتيرة متسارعة، وعليهما بذل جهود ماضية للتوصل إلى اتفاق قبل ١٩٩٩/٥/٤، وسوف تجرى هذه المفاوضات بلا انقطاع. وقد أبدت الولايات المتحدة استعدادها لتسهيل هذه المفاوضات».

ما أسرع ما اصطدم هذا العامل الفاعل الامريكى الذى يمثل قوى الهيمنة الموجدة للكيان الاستعمارى الاستيطانى الصهيونى بمحاولات الحكومة الإسرائيلية التى تعوِّد المستعمرين المستوطنين الصهاينة عرقلة ما التزمت به في مذكرة نهر واى

والاقتصار على تنفيذ حد أدنى منه. ثم عمدت إلى تأجيل «نبضات» إعادة الانتشار الاخرى في الضفة الغربية انسجاماً مع برنامجها الليكودى وإرضاء للدفعة الجديدة من المستعمرين المستوطنين الذين اقاموا هناك. وهكذا لم يبق أمام بنيامين نتنياهو رئيس تلك الحكومة المنتخب إلا الدعوة إلى انتخابات إسرائيلية مبكرة على أمل أن يفوز فيها مرة أخرى بمنصب رئيس الوزراء، فيستطيع من خلال ذلك أن يضغط على واشنطن بحجة منطق «الديمقراطية العنصرية» كى تعدل من موقفها من مذكرة نهر واى. وقد ارتاحت الإدارة الامريكية لفكرة الانتخابات المبكرة التى عمل لها حزب العمل الإسرائيلى المعارض، ورمت بكل ثقلها لإنجاح رئيسه ومرشحه لمنصب رئيس الوزراء ايهودا باراك واسقاط بنيامين نتنياهو وفق خطة محكمة وشريط شاهد يستحق حديثاً خاصاً ويوضح «العامل الامريكى» في الانتخابات الإسرائيلية الكامن فى الجزء المختفي من جبلها الجليدى، وما يجرى فيها يصطلح على تسميته «الانتخابات الخفية». وهذا هو عنوان كتاب امريكى صدر في اعقاب انتخاب رونالد ريجان للرئاسة الأمريكية عام ١٩٨٢.

لقد جرت الانتخابات الإسرائيلية يوم ١٩٩٩/٥/١٧ وتمت هزيمة نتنياهو، وأعلن استقالته من رئاسة ليكود وعزمه على الانسحاب فترة من الحياة العامة. وهكذا تكرر ما حدث من مناحيم بيغين إثر معركة بيروت الكبرى في الثمانينات حين انسحب من الحياة العامة بحجة وفاة زوجته في أعقاب تجاوزه الخط الامريكى الأحمر المرسوم له في لبنان. وهذه جزئية لها حديثها الخاص وتتعلق أيضاً بالعلاقة الامريكية الإسرائيلية، علاقة قوى الهيمنة الموجدة للاستعمار الاستيطانى الصهيونى بهذا المستعمر المستوطن الصهيونى. وها هى جريدة معاريف الإسرائيلية تنشر يوم كتابة هذا الحديث - كما اذاعت إذاعة لندن في ١٩٩٩/٦/٢٠ - نص أول مقابلة مطولة مع نتنياهو بعد هزيمته تكشف عن مرارته وتتضمن اتهامه الإسرائيليين بإنكار جميله (كذا !) وتخليهم عن القيم الصهيونية (كذا !) إلى آخر ما يمكن أن يقوله هذا المستعمر المستوطن الصهيونى الذى كتب «مكان بين الأمم» ومارس افكاره العنصرية، وهكذا طويت صفحة أخرى في عملية «تسوية مدريد»، ونجح ايهودا باراك، وفتحت صفحة جديدة لعام خاص قادم.

مهدت الإدارة الأمريكية لهذا «العام الخاص» القادم بإصدار وثيقتين بشأن عملية

التسوية شرحت فيهما أفكارها حول ما ترى إنجازه خلاله. واختارت أن يكون توقيت اصدارهما قبل انتهاء الفترة الانتقالية للحكم الذاتي في ١٩٩٩/٥/٤، وقبل يوم واحد من اجتماع المجلس المركزى الفلسطينى في غزة يوم ٤/٢٧ الذى تقرر له أن ينظر في أمر اعلان الدولة الفلسطينية الذى اعلنت قيادة السلطة والمنظمة عزمها عليه، فماذا نجد في الوثيقتين؟

الوثيقة الأولى صدرت يوم ١٩٩٩/٤/٢٦ في صورة «تصريح امريكى حول عملية سلام الشرق الأوسط» عن البيت الأبيض بشأن «عملية السلام الإسرائيلية - الفلسطينية». وقد جاء فيها «بينما نحن نقترب من موعد ١٩٩٩/٥/٤ المحدد لإنهاء خمس سنوات الفترة الانتقالية، ومن أجل إكمال محصلة المفاوضات حول الوضع الدائم، تتخذ الولايات المتحدة عدة خطوات للتقدم بمساعى السلام الإسرائيلية - الفلسطينية» وتلا هذا الاستهلال ذكر خطوات أربع، أولها «تدعو الولايات المتحدة كلا الطرفين إلى الالتزام بإخلاص بمرجعية عملية السلام كما جرى تحديدها في مدريد وأوسلو، فهدف عملية التفاوض هو تنفيذ قرارى مجلس الأمن ٢٤٢ و٣٣٨، المتضمنين الأرض مقابل السلام، وجميع الاتفاقيات الاخرى المبرمة في عملية أوسلو»، وثانيها «تدعو الولايات المتحدة الطرفين ليتابعا حمل جميع مسؤولياتهما فيما يخص الفترة الانتقالية، بما فى ذلك التنفيذ الكامل وبدون أى تأخير آخر للاتفاق الانتقالى لمذكرة «نهر واى»، والتعاون المستمر بين السلطة الفلسطينية والحكومة الإسرائيلية». وثالثها «تدعو الولايات المتحدة الطرفين كليهما لمباشرة مفاوضات الوضع النهائى، وذلك من موقع اعتقادها أن عملية أوسلو لم يكن المقصود منها أن تكون «مفتوحة النهاية» (أي بلا نهاية). وتدعو الولايات المتحدة الطرفين لإعادة إلزام نفسيهما ببلوغ هدف الوصول إلى اتفاقية خلال عام. ولبلوغ هذه النهاية، ومن أجل تسهيل تلك العملية، فإن الولايات المتحدة مستعدة للمساعدة في المفاوضات بعد الانتخابات الإسرائيلية وحالما تشكل حكومة اسرائيلية، وأن تعيد النظر في تلك العملية وتوفر التوجيه لها. وهى مستعدة أيضاً برضا الطرفين أن تجمعهما معاً في غضون ستة أشهر لاستعراض ما تم وتسهيل بلوغهما اتفاقية. وأخيراً «إذا كان الإسرائيليون والفلسطينيون عازمين على الوصول لاتفاق فإن من الضرورى أن يقوما بما عليهما لايجاد بيئة جادة عادلة لها صدقها من أجل التفاوض. وهذا يعنى أن يتابع الفلسطينيون

جهودهم لمحاربة الإرهاب، وأن يحفظ الإسرائيليون والفلسطينيون تعاونهم الأمنى، وأن يتجنبا الاعمال الانفرادية والتصريحات التى تؤثر على المسائل الباقية في الوضع النهائى. لأن المفاوضات وعملية سلام صادقة توفران السبيل الأوحد لبلوغ اتفاقية حول الوضع النهائى قابلة للاستمرار». ويختم هذا التصريح بالقول «إن العمل بروح الشراكة والابتعاد عن عقلية «صفرية» يمكن للإسرائيليين والفلسطينيين أن يعملا معاً لتحقيق سلام عادل ودائم».

ما هو الجديد في هذا التصريح الأمريكى؟

إن الإجابة عن هذا السؤال موضوعيا تدعونا إلى استحضار آخر وثيقة سبقت تتضمن خطوط السياسة الامريكية تجاه عملية تسوية الصراع العربى الصهيونى، وتلك هى مذكرة نهر واى التى تم توقيعها يوم ١٩٩٨/١٠/٢٥. وعند المقارنة بين ما جاء في المذكرة وما جاء في هذا التصريح على صعيد المضمون، لا نجد أى جديد. وهكذا فإن تصريح يوم ١٩٩٩/٤/٢٦ الامريكى استهدف في المقام الأول مدّ فترة تنفيذ مذكرة نهر واى عاماً بعد إجراء الانتخابات الإسرائيلية، وكانت المذكرة قد نصت في بند «رابعا» على أن يبذل الطرفان جهوداً ماضية للتوصل إلى اتفاق قبل ١٩٩٩/٥/٤. ومع أن النقطة الثانية في التصريح الجديد تتحدث عن التنفيذ الكامل وبدون أي تأخير آخر للاتفاق الانتقالى لمذكرة «نهر واى»، فإن النقطة الثالثة فيه تعطي مهلة أقصاها ستة أشهر لجمع الطرفين على مائدة التفاوض. وهكذا نخلص من قراءة الوثيقة هذه إلى اننا أمام «عام خاص» على وشك أن يبدأ.

الوثيقة الأخرى التى اصدرتها الإدارة الامريكية بشأن عملية التسوية جاءت متزامنة مع الأولى وفي صورة رسالة مكتوبة من «الرئيس كلينتون إلى الرئيس ياسر عرفات» حسب العنوان الذى جاء في الاهرام يوم ١٩٩٩/٦/٢. فماذا في هذه الرسالة التى تم إرسالها قبيل ١٩٩٩/٥/٤.

– الرسالة جاءت في تسع فقرات، وتمت صياغتها بأسلوب دقيق وبلغة محسوبة. وقد تضمنت فى طياتها التصريح الأمريكى الأخير بنصه الحرفى تقريباً، شاغلاً فقرتين هما ٦ و٧. وحين نتأمل في الفقرات الخمس الأولى نجد أن «الفقرة ١» خصصت لحديث العلاقة الشخصية بين المرسل والمرسل إليه، وقد جاء حافلاً بالمجاملة

والعاطفة، فيه إشارة إلى لقاء سبق كتابتها بشهر في البيت الأبيض وتثمين فرصته بما تضمنه من تبادل آراء، وفيه وصف الواقع الراهن بأنه «وقت التحدى والفرصة» في السعي للسلام الفلسطيني الإسرائيلي، وفيه دعوة «لمواصلة التحلى بالشجاعة والرزينة» «لزعيم الشعب الفلسطيني الذى اتخذ قرارات تاريخية من أجل السلام»، وللتمسك بهذا المسار بغية الاقتراب من هذا الهدف. وفيه اقرار بأن الولايات المتحدة «شريك كامل» تدعم الطرفين في مسعى السلام. وأخيراً فيه قول كلينتون لياسر عرفات «ومن المهم على وجه خاص أن نعمل أنا وأنت معاً وبشكل وثيق في الفترة القادمة». وتكشف هذه الفقرة الاستهلالية عن نظرة الإدارة الامريكية ورئيسها للدور الخاص الذى يمكن أن يقوم به رئيس السلطة والمنظمة، وعن العلاقة القوية التى قامت معه خلال الفترة الماضية.

– الفقرة ٢ من الرسالة خصصت لحديث تقويم عملية اوسلو الذى أخذ فى الاعتبار رؤية الشعب الفلسطيني لها. وفيها يقول كلينتون لياسر عرفات «أعلم أن شعبك واجه مصاعب كبيرة جداً في السنوات الأخيرة، ومن الواضح أن عملية اوسلو لم تحقق التقدم الذى كنا نأمله. لقد أُهدر وقت ثمين وضاعت فرص كثيرة». ثم يشرح كلينتون كيف أن اتفاق اوسلو يستند إلى مبدأ التبادلية وإلى الدور الجوهرى للتفاوض في تحقيق تطلعات الفلسطينيين، ويقر بأن ما يسميه «الشراكة الفلسطينية – الإسرائيلية» «الحيوية جداً من اجل صنع السلام، اهتزت بشكل عميق»، والحق أن اقرار رئيس الولايات المتحدة بهذه الحقيقة وتقويمه لعملية اوسلو السلبي واعترافه بما عاناه شعب فلسطين من جراء ذلك، امور يجب الوقوف أمامها في كل حوار عربى رسمى مع واشنطن بهدف حث الإدارة الأمريكية على مراجعة سياستها.

– خصص كلينتون الفقرة ٣ من رسالته للحديث عن «مذكرة نهر واى» وما جرى بشأن تنفيذها. فهذا «الاتفاق الذى ساعدنا على ابرامه بينك وبين رئيس الحكومة نتنياهو في واى، حمل معه وعوداً كبيرة في المستقبل. لقد طبقت المرحلة الأولى، ولكن لمزيد من الأسف لم تنفذ المرحلتان الثانية والثالثة. ولقد نفذ الفلسطينيون الكثير من التزاماتهم في هذه المرحلة الثانية، وأنا اقدر جهودك خاصة في المجال الأمنى، حيث يقوم الفلسطينيون ببذل جهد كبير في مكافحة الإرهاب». وينتهى كلينتون بعد

هذا التعريض غير المباشر بأن حكومة نتنياهو لم تنفذه إلى القول «من المهم أن تواصل هذه الجهود وأن تنفذ كل التزاماتك» مخاطباً ياسر عرفات و«نحن نواصل العمل من اجل التنفيذ من قبل الجانب الاسرائيلي».

– حديث مفاوضات التسوية الدائمة جاء في الفقرة ٤، «فمن المهم أيضاً أن يتقدم الفلسطينيون والإسرائيليون في العمل الحيوي» لانجازها وفقاً لما اتفقا عليه في وثيقة إعلان المبادئ. و«تغطي هذه المفاوضات القضايا العالقة بما في ذلك القدس واللاجئون والمستوطنات والترتيبات الأمنية والحدود والعلاقات والتعاون مع جيران آخرين، إضافة إلى قضايا ذات اهتمام مشترك». ولما كانت مذكرة نهر واى التى وقعها كلينتون بنفسه مع الطرفين قد حددت ٩٩/٤/٥ موعداً متوقعاً للانتهاء من هذه المفاوضات، وعمدت حكومة نتنياهو إلى عرقلة ذلك، نجد رئيس الولايات المتحدة يقر بأنه يدرك أن ياسر عرفات واجه ضغوطاً مع اقتراب ذلك الموعد «لتجسيد التطلعات الفلسطينية»، قاصداً بذلك إعلان قيام دولته، ويقول له «في محاولاتك مواجهة هذه التحديات أدعوك إلى مواصلة الاعتماد على المسيرة السلمية كطريقة لتحقيق تطلعات شعبك». وهكذا نراه مطالباً أياه مره أخرى بالالتزام بعملية تسوية لا يلتزم بها الطرف الآخر.

– يدرك كلينتون أن ما طالب به ياسر عرفات في الفقرتين السابقتين من تنفيذ كل التزاماته ومن الاعتماد على التفاوض مع طرف تحكمه «العقلية الصفرية»، لن يكون أمراً منطقياً ولن يقنع شعباً رازحاً تحت الاحتلال يكتوي بناره يوميا، ولذلك نرى رئيس الولايات المتحدة يخصص الفقرة ٥ ليشرح رؤيته للمفاوضات وموقف بلاده فيها، مدركاً أن هذا الموقف هو الورقة الوحيدة التى يغرى رئيس المنظمة بها. فماذا قال في هذه الفقرة التى اعتبرها كثيرون أهم ما في الخطاب؟ لقد قال كلينتون «حقاً أن المفاوضات هي الطريق الواقعية الوحيدة لتجسيد هذه التطلعات. وفي هذا الصدد ومثلما قلت في غزة، فإننا نؤيد تطلعات الشعب الفلسطيني في أن يقرر مستقبله على أرضه. ومثلما قلت في غزة، أنا مؤمن بأن الفلسطينيين يجب أن يعيشوا أحراراً اليوم وغداً وإلى الأبد». فموقف الولايات المتحدة هو «تأييد تطلعات الشعب الفلسطيني في أن يقرر مستقبله على أرضه». وكان كلينتون قد حرص في خطابه في غزة على استخدامه هذه الجملة الغامضة التى صاغتها إدارته، وذكر «التطلعات» بدل «الحقوق» و«تقرير المستقبل» دون أى شرح، «وعلى أرضه» بغير تحديد واضح للأرض.

– عمد كلينتون بعد أن اورد في الفقرتين التاليتين ٦ و٧ مضمون التصريح الامريكي إلى تخصيص الفقرة ٨ لحديث عن المناخ الذى ينبغي أن تجرى فيه المفاوضات، ليكون «ذا مصداقية وعدل». وهكذا أورد جملة تتعلق بممارسات الاحتلال الإسرائيلى التى تخرب هذا المناخ، قائلاً فيها «ان الولايات المتحدة تدرك مدى التأثير التدميرى للنشاطات الاستيطانية ومصادرة الأراضي وهدم البيوت على مسعى التوصل للسلام الفلسطيني – الإسرائيلى. وفي هذا المجال سنواصل العمل بأقصى جهودنا من أجل دفع الطرفين للامتناع عن خطوات أحادية الجانب، أو نشاطات هدفها أن تغير مكانة الضفة الغربية وغزة، وأن تحدد سلفاً أو تبطل قضايا محفوظة للمفاوضات حول التسوية الدائمة». ثم أعلن كلينتون «إننى أيضا ملتزم بالاستمرار في تعزيز الشراكة الامريكية – الفلسطينية. وسأبذل كل مستطاع من أجل تقوية هذه الشراكة، وبمساعدة اللجنة الثنائية الامريكية الفلسطينية سنعمل على إزالة العقبات التى تعترض علاقتنا». ويلفت هنا وصف أثر الممارسات الإسرائيلية على صعيد الاستيطان وهدم البيوت ومصادرة الأراضي بأنه «تدميرى» وكذلك هذا الحديث عن الشراكة الامريكية – الفلسطينية.

– في الفقرة ٩ الأخيرة فى هذه الرسالة عاد الرئيس كلينتون إلى التذكير «بأن الطريق نحو سلام فلسطيني – إسرائيلى عادل ودائم لن يكون سهلاً». ويلفتنا هنا تحديد هذا السلام بأنه عادل ودائم، ويوضح الرئيس الأمريكى «أن الأمر يحتاج قيادة وشراكة والتزاماً بفكرة أن السلام هدف استراتيجى لرفاهية الشعبين»، ثم يؤكد مرة أخرى للرئيس عرفات «أننى ملتزم شخصياً بهذا الهدف وبأن افعل كل ما استطيع فعله من أجل مساعدة الشعب الفلسطينى والشعب الإسرائيلى في التوصل إلى السلام والأمن اللذين حرما منهما طويلاً». ويختم قائلاً «ومن خلال العمل معك وشركائك الإسرائيليين ادرك أننا نستطيع تحقيق هذا الهدف».

نستطيع بعد أن تعرفنا على مضمون «رسالة الرئيس كلينتون إلى ياسر عرفات» أن نتأكد من أننا أمام «عام خاص» في الصراع العربى الصهيونى وعملية التسوية الجارية له، ومن المتوقع أن يكون للعامل الأمريكى الرسمى دور فاعل فيه. وتتضح ملامح هذا الدور من خلال ما قرره الرئيس الامريكى من أنه معنى بإتمام عملية التسوية هذه، وأنه

متفائل بامكان ذلك، وأنه يراهن على تفهم رئيس السلطة والمنظمة على عملهما معاً، وأنه حدد عاماً لتحقيق الهدف.

لعل أبرز التحديات التى سوف تواجهنا نحن العرب في هذا «العام الخاص» هو «الرؤية الأمريكية للوضع النهائى» في المسائل الأربعة الباقية، وهى رؤية لا تزال قاصرة عن الوفاء بحدٍ أدنى من حقوق الشعب الفلسطينى، وتخضع لضغوط امريكية داخلية من بينها تحركات مركز القوة الصهيونى في الكونجرس، وقد برز مثل عليها وقت كتابة هذا الحديث في تحرك عددا من أعضائه لإثارة موضوع نقل السفارة الامريكية من تل أبيب إلى القدس الذى قررت الإدارة تأجيله ستة شهور. ومن بين هذه الضغوط توجهات اعضاء صهاينة في الإدارة، وقد برز مثل عليها في تصريحات مارتن انديك غير البناءة. والاستجابة العربية لهذا التحدى ممكنة، وهى تتطلب صياغتها فى «بيت عربى مرتب» تحضر فيه الأوراق العربية ويدرس فيه كيفية استخدامها ويحدد فيه اسلوب التحرك وخطواته دوليا وبخاصة على صعيد الاتحاد الأوروبى الذى بلور موقفه في هذا «العام الخاص»، وهو يستحق حديثاً آخر.

الاتحاد الأوروبى والتسوية والقدس

استحضار موقف الاتحاد الأوروبى من تسوية الصراع العربى - الصهيونى، وقضايا مفاوضات الوضع النهائى في عملية سلام الشرق الأوسط أمر حيوى لنا نحن العرب، مسئولين وأهل رأى وجماهيرا، وحيوية هذا الأمر لا تعود إلى ما يمثله الاتحاد الأوروبى من قوة فاعلة على صعيد البعد الدولي للتسوية فحسب ولكن إلى الرسالة التى يتضمنها هذا الموقف بالنسبة لشريحة من مثقفينا العرب لا يرون إلا الموقف الصهيونى والموقف الامريكى، وهم بفعل ذلك باتوا مهيئين للإذعان وقبول اتفاقات «املاء»، وما أشد خطر هذا الحال في هذا «العام الخاص» الذى بدأ مع مطلع صيف ١٩٩٩، وخاصة مع ما شرع رئيس الوزراء الإسرائيلى المنتخب ايهود باراك يردده حول «اللاءات» بشأن قضايا الوضع النهائى الأربع، وبشأن تأجيل تنفيذ الاتفاقات التى تم ابرامها مع الفلسطينيين بإشراف الولايات المتحدة الامريكية، وكذلك مع ما ظهر من مسايرة امريكية له.

لقد أعلن الاتحاد الأوروبى موقفه من التسوية في بيان رئاسة المجلس الأوروبى الذى صدر في برلين يوم ١٩٩٩/٣/٢٦ حول عملية سلام الشرق الأوسط وجاء فيه «أن رؤساء الدول والحكومات يؤكدون دعمهم لتسوية تفاوضية في الشرق الأوسط تعكس مبدأ الأرض مقابل السلام». وتؤكد الأمن الجماعى والفردى لإسرائيل وللشعب الفلسطينى وتضمنه، وتضمن هذا البيان القول «ان الاتحاد الأوروبى مشغول بالطريق المسدود الذى وصلت اليه عملية السلام، وهو يدعو الأطراف إلى التنفيذ الكامل الفورى لمذكرة نهر واي. كما يدعو الاطراف أيضا لتأكيد التزامهم بالمبادئ الرئيسية والاتفاقات وفق قرارى مجلس الأمن رقمى ٢٤٢ و٣٣٨ والموافقة على مد الفترة الانتقالية في اتفاق اوسلو».

بعد أن أكد الاتحاد الأوروبى في بيانه هذا مبدأ «الأرض مقابل السلام» وعبر عن انشغاله لتوقف المفاوضات، وطالب بتنفيذ الاتفاقات، دعا على الخصوص إلى استئناف المفاوضات النهائية في الشهور المقبلة على أسس متصاعدة وبدون إطالة، وعبر عن اعتقاده ان هذا ممكن خلال عام، وابدى استعداده للمساعدة، ثم حث الاتحاد الأوروبى الاطراف على عدم القيام بنشاطات تؤثر في نتيجة المفاوضات أو بتصرفات تخالف

القانون الدولى بما في ذلك جميع اشكال النشاط الاستيطانى ومحاربة التحريض والعنف.

نلاحظ هنا أن الاتحاد الأوروبى حدد مدة عام للفراغ من مفاوضات الوضع النهائى، وهى المدة التى لم يلبث بيان الخارجية الامريكية أن حددها حين صدر بعد شهر من بيان الاتحاد الأوروبى، ولا عجب في ذلك، فالتنسيق قائم بين الحليفين الامريكى والأوروبى، وكثيراً ما تعهد واشنطن إلى بروكسل بالمبادرة بالطرح لأمور متفق عليها. كما نلاحظ لغة البيان الحاسمة في دعوته لايقاف الاستيطان وأى تصرفات اسرائيلية تخالف القانون الدولى، وفي محاربة التحريض والعنف.

لم يلبث الاتحاد الأوروبى بعد هذا التحديد لأساس المفاوضات ومدته أن طرح رؤيته لما ينبغى أن تسفر عنه المفاوضات بشأن قيام دولة فلسطينية، وقد تميز طرحه باعتماد لغة واضحة لا لبس فيها، فالاتحاد الأوروبى يعيد تأكيد ممارسة حق تقرير المصير الفلسطينى غير المقيد، بما في ذلك خيار الدولة، وهو ينظر قدماً إلى الوفاء بهذا الحق مبكراً، ويدعو الاطراف للنضال بنية صادقة من أجل التوصل إلى حل تفاوضى على أساس الاتفاقات القائمة، بدون أى تعصب إزاء حق إقامة الدولة الذى لا يجوز أن يخضع لحق النقض (الفيتو)، وان الاتحاد الأوروبى مقتنع بأن ايجاد دولة فلسطينية ديمقراطية قابلة للحياة مسألة تقوم على اساس الاتفاقات القائمة ومن خلال المفاوضات سوف تكون خير ضمان لأمن إسرائيل ولقبول إسرائيل كشريك مساو في المنطقة، وواضح أن هذه الجملة جاءت لتطمين اليهود الصهاينة الأوروبيين. وانتهى بيان الاتحاد الأوروبى إلى القول إنه «يعلن استعداده للاعتراف بدولة فلسطينية تبعاً للمبادئ السابقة، كما دعا إلى استعادة مبكرة للمفاوضات السورية واللبنانية على المسارين لتنفيذ قرارات مجلس الأمن أرقام ٢٤٢ و٣٣٨ و٤٢٥».

إن هذا الموقف الأوروبى من عملية سلام الشرق الأوسط يدعو إلى الخاطر الموقف الامريكى الراهن منها، كما اوضحه بيان الخارجية الامريكية ورسالة الرئيس كلينتون لرئيس منظمة التحرير الفلسطينية.. وحين نقارن بين الموقفين نجد أن لكل منهما تميزه عن الآخر، وهما فى الوقت نفسه متكاملان. فالموقف الأوروبى أوضح لغة ويتطرق لموضوعات تعتبرها واشنطن حساسة وتؤثر الالتفاف حولها، وهو أيضا يشير بوضوح إلى القانون الدولى، وتكامل الموقفين نابع من حقيقة التنسيق القائم بين

الحليفين ومن اتفاقهما على توقيت تحرك كل منهما، وهذا أمر خَبره كل من تعامل مع دول الاتحاد الأوروبى في سياساتها تجاه الصراع العربى- الصهيونى.

يتضمن هذا الموقف من عملية التسوية في طياته رأياً أوروبيا واضحا في بعض قضايا الوضع النهائى، خاصة قضية القدس وقد جرى إعلان هذا الرأى في مطلع ربيع عام ١٩٩٩، في سياق أزمة دبلوماسية حدثت حين احتجت الحكومة الإسرائيلية برئاسة نتنياهو على قيام الدبلوماسيين الأوروبيين بحضور اجتماع فى «بيت الشرق» في القدس الشرقية، ونذكر كيف رفض سفير ألمانيا لدى الكيان الإسرائيلى هذا الاحتجاج، وكتب رسالة باسم الاتحاد الأوروبى للخارجية الإسرائيلية جاء فيها «نحن نوكد مجدداً موقفنا المعروف بخصوص المكانة الخاصة لمدينة القدس باعتبارها كياناً خاصاً Corpus Separatum. وهذا الموقف ينسجم مع القانون الدولى. وإن الاتحاد الأوروبى لا يعتزم حاليا تغيير موقفه من لقاءات الأوروبيين مع الفلسطينيين في مدينة القدس». وقد هاجمت الدوائر الصهيونية الاتحاد الأوروبي بسبب هذا الرد الذى جرى تسريبه للصحف، واصدر مجلس الوزراء الإسرائيلى بيانا رسمياً يرد فيه على موقف الاتحاد الأوروبى، وصادق على مشروع قرار يؤكد أن إسرائيل لن توافق على تقسيم القدس تحت أى ظروف ولا على تدويلها كلياً أو جزئياً، ورفض القرار موقف الاتحاد الأوروبى القاضى بأن القدس لا تخضع للسيادة الإسرائيلية، وكرر الزعم بأنها ستبقى العاصمة الأبدية لإسرائيل، وجاهر بمتابعة الاستيطان في جبل أبى غنيم.

كانت هذه الأزمة الدبلوماسية مناسبة لقيام الاتحاد الأوروبى بالتذكير بما جاء في بيان البندقية الذى صدر فى ١٩٨٠/٦ بشأن القدس من أن «المجموعة الأوروبية لا تقبل أى مبادرة تتخذ من جانب واحد لتغيير وضع القدس»، انطلاقاً من الاعتراف بالدور المهم الذى تحتله مسألة القدس وللتذكير أيضا بالبيانات الأوروبية التالية، ومنها ذلك الذى صدر في ٩٦/١٠/١ عقب حادث النفق وهى في مجملها تدعو إلى إنهاء الاحتلال الإسرائيلى للقدس الشرقية.

لقد قامت كل دولة من دول الاتحاد الأوروبى بالتعبير عن موقفها من قضية القدس انطلاقاً من هذا الموقف الموحد، وفق اسلوبها. وكان لبريطانيا موقف لافت بحكم كونها الدولة التى استعمرت فلسطين باسم الانتداب ومكنت الصهيونية من إقامة وطن قومى، استعماراً استيطانياً.

وأعلن هذا الموقف مالكولم ريفكند وزير الخارجية البريطانى في وزارة المحافظين برئاسة جون ميجور، أمام جمعية العون للفلسطينيين Map يوم ١٩٩٦/٥/٢٣، ومعلوم أن ريفكند يهودى بريطانى، وقد قال في خطابه «وكما تعلمون أوضحت بريطانيا منذ سنوات عديدة، مثلها مثل المجتمع الدولى انها تعتبر إسرائيل تحتل القدس الشرقية عسكرياً، وانها تملك السلطة بحكم الواقع على القدس الغربية. إن الحل الدائم الذى يمكن المجتمع الدولى أن يصادق عليه يجب أن يحترم الطموحات الشرعية للاطراف، وأن يحترم الطبيعة الخاصة للأماكن المقدسة التى هى موضع اهتمام العديدين في العالم أجمع»، وخطاب ريفكند هذا يستحق حديثا خاصاً يعرض لموقف بعض اليهود الأوروبيين ولظروف اعلان الموقف، ولدور دبلوماسية هادئة قام بها السفراء العرب ومنهم سفير فلسطين في لندن ، وقد اصدرت الخارجية البريطانية بياناً في ابريل ١٩٩٩ تحدث عن بيان قمة برلين للاتحاد الأوروبى، وأضاف أن بريطانيا سوف تدرس بعناية القرار الذى ستصدره المحكمة العليا الإسرائيلية بخصوص مصادرة هويات المقدسيين ووسائل ابعاد أهل القدس العرب عن مدينتهم. وذلك إشارة إلى متابعة لندن للانتهاكات الإسرائيلية لحقوق ابناء فلسطين.

واضح مما سبق أن موقف الاتحاد الأوروبى من قضية القدس في مفاوضات الوضع النهائى يرفض التسليم بالاحتلال الإسرائيلى، وبالزعم الصهيونى انها عاصمة ابدية لإسرائيل، ويتمسك بما جاء بشأن القدس في قرار التقسيم رقم ١٨١ يوم ١٩٤٧/١١/٢٩ اساساً، ويعتبر القدس الشرقية تحت الاحتلال العسكرى الإسرائيلى، وأن إسرائيل تملك السلطة بحكم الواقع على القدس الغربية، فالقدس كلها شرقيها وغربيها العتيقة والجديدة، المدينة وقراها مطروحة للبحث.

إن هذا الموقف ينبه أسرى الرؤية الأمريكية - الإسرائيلية للتسوية إلى أن بإمكانهم أن يتحرروا منها، ويدعوهم إلى التمسك بحقوقنا الوطنية الثابتة غير القابلة للتصرف في القدس، وإلى فتح ملف القدس بكامله، وهو ما يقول به الموقف الشعبى، ولا يلتفتون إلى الجعجعة الإسرائيلية حول العاصمة الأبدية، ويرفضون ما تم التوصل إليه من تفاهم بين طرف إسرائيلى وآخر فلسطينى في مباحثات سرية غير رسمية لم تقره مؤسسات المنظمة أو الحكم الذاتى، ويوطنون أنفسهم على صراع النفس الطويل.

ويبقى أن نتذكر أن للاتحاد الأوروبى مواقفه الأولية من بقية قضايا الوضع النهائى

الخاصة باللاجئين والاستيطان والحدود. وهي مواقف قابلة للتطوير وتستحق منا نحن العرب أن نعنى ببذل جهود مع الدول الأوروبية فرادى وجماعات، لكى تتطور في اتجاه احترام الشرعية الدولية وتأييد حقوقنا، وواضح أن ما ينطبق على الاتحاد الأوروبى يصدق على القوى الدولية الأخرى الفاعلة، وواضح أيضاً أن ما يصدق على المسار الفلسطينى يصدق على المسارين السورى واللبنانى.

إن هناك الكثير مما يمكن عمله عربيا وإسلامياً في هذا «العام الخاص»، وهو يتطلب أول ما يتطلب استلهاماً لإرادة الأمة وثقة بقدرتها على المواجهة وإحاطة بمواقف القوى الدولية الفاعلة وعزما على تطوير هذه المواقف وتصديا لأساليب شيلوك في «تاجر البندقية» التى نرى باراك يجاهر بها حين يطلب من واشنطن تأجيل تنفيذ «النبضة الثالثة» من اتفاق مذكرة نهر واى كى يستخدم استمرار احتلال الأرض ورقة مساومة في المفاوضات «هكذا عينى عينك» كما يقول المثل الشعبى في وصفه للمجاهرة بالسوء من القول أو الفعل.

اللعنة النووية الإسرائيلية

«اللعنة النووية الإسرائيلية» هو المصطلح الذى تبلور لديّ للدلالة على الخطر الجاثم في قلب وطننا العربى على أرض فلسطين الغالية، بعد أن عشت شهرين كاملين مع موضوع انتشار الأسلحة النووية، بمناسبة مناقشته في أكاديمية المملكة المغربية يومى ٦ و١٩٩٩/٥/٧.

مجموعة أخبار وتقارير ودراسات تتصل «باسرائيل النووية» مع عدد من الكتب مع سماع آراء مختصين والحوار معهم، جعلتنى أقف أمام هذا الخطر الجاثم وما يمثله من «لعنة». وقد تداعى إلى خاطرى شريط سينمائى أخرجه «جافراس» – على ما أذكر – في نهاية الخمسينيات أو مطلع الستينيات عرفناه باسم «الرقص فوق الهيدروجين» تناول تهديد الإشعاع النووى لمصطافين في أحدى الجزر اليونانية فى بحر أيجة، بينما هم مندمجون في مرحهم، ولكن ما خرجت به من قراءاتى وما سمعته وتأملاتى وضعنى أمام «واقع» نعيشه يفوق الخيال، يهيب بنا أن نعمل كى لا تصيبنا «اللعنة النووية الإسرائيلية»، وألاّ نملّ من التنبيه إلى الخطر الجاثم ودق جرس إنذار.

إن أشد ما يقلق في أمر هذه «اللعنة النووية الإسرائيلية» أن هؤلاء الصهاينة العنصريين وقوى الهيمنة الغربية الداعمة لهم، وغالبية اليهود المستعمرين المستوطنين، سادرون في غيِّهم النووى غير آبهين بما قد يلحق بهم حين تصيبهم «اللعنة»، على الرغم من تتالى التحذيرات لهم، ومنها تحذيرات «يهود» استشعروا الخطر وجهروا بالحق.

يكفى لأخذ فكرة عن هذا الخطر الجاثم أن نقرأ آخر ما تسرب من معلومات عن مفاعل ديمونا الإسرائيلى بصحراء النقب الفلسطينية، ومعلوم أن اللعنة النووية الإسرائيلية مقترنة بهذا المفاعل الذى اكتمل بناؤه أوائل الستينيات بعون فرنسى ثم بدعم امريكى. وقد سبق للفنى النووى اليهودى «فاعنونو» أن أدلى بمعلومات كثيرة عنه عام ١٩٨٦ لصحيفة صنداى تايمز البريطانية بعد أن عمل فيه بين عامى ١٩٧٧ و١٩٨٥، فكان أن لاحقه «الموساد» واعتقله. كما تتبع الباحث الصحفى سيمور هِيرش أخبار هذا المفاعل في كتابه «الخيار شمشون».

آخر ما تسرب من معلومات عن «ديمونا» ضمنّه الباحث هارولد هاو في مقالة «إسرائيل تعيد النظر في سياسة الردع النووى» الذى نشره في مجلة «جينز انتليجانس ريفيو الامريكية» في ١٩٩٨/١١/١ . وقد جاء في المقال بالنص «اليوم بعد مرور ما يقرب من خمسة وثلاثين عاماً على تشغيل المفاعل، يسود قلق متزايد في دوائر الحكومة الإسرائيلية بأن مفاعل ديمونا لم يعد قادراً على تلبية احتياجات الترسانة النووية المتزايدة. وقد أشارت تقارير داخلية صدرت عن ديمونا، إلى أن هذا المفاعل يعاني من اضرار وأعطال حادة بسبب تشغيله هذه المدة. ونتجت هذه الأضرار عن انبعاث النيوترون من قلب المفاعل. كما أدى استمرار الاشعاع إلى تغيير التركيب الذرى للمفاعل، وأصبحت الأعمدة المعدنية هشة ومغطاة بالرواسب بسبب الفقاعات الغازية التى احدثتها النيوترونات فيها. وقد تم استبدال أجزاء في المفاعل، ومع ذلك فهناك جدل يدور حول ما إذا كان الواجب يقتضى اغلاق المفاعل برمته قبل أن تحل به كارثة».

هكذا يشير هذا المقال صراحة إلى احتمال أن تحل كارثة بالمفاعل، فتنزل «اللعنة النووية» ويتابع هارولد هاو حديثه مبيناً أن خطر المفاعل لا يقف عند هذا الحد، ذلك أن عدداً من الفنيين العاملين فيه أصيبوا بأمراض تشأت من جراء حوادث وقعت بالمفاعل. وقد قاضوا هم وأسرهم الحكومة. كما أن تحليلات صور الأقمار الصناعية الروسية التى أخذت للمفاعل عام ١٩٨٩ أظهرت أنه يعانى من مشكلة تلوث كبيرة، «وأن المنطقة التى تقع إلى الغرب منه تظهر قاحلة بشكل غير طبيعى». ويعزو العلماء ذلك إلى إنتاج البلوتونيوم، ويضربون مثلاً بمجمع هانفورد في ولاية واشنطن حيث جرى تلويث مئات الأفدنة. وهم يحذرون من أن النفايات النووية لها آثار تبقى في مكان المفاعل وتصيب العاملين فيه، بينما يمكن لبعض المواد الملوثة المشعة أن تنتقل بعيداً عن المفاعل عبر المياه الجوفية أو بفعل الرياح.

لقد أوضح هارولد هاو في مقالة هذا أن المسؤولين الإسرائيليين يسعون بقوة إلى توفير مادة «التريتوم» الضرورية لصناعة الأسلحة النووية في إسرائيل، بما في ذلك الأسلحة الانشطارية المتطورة والقنابل النيوترونية. ولذا فإن الحكومة الإسرائيلية ترفض فكرة اغلاق مُفاعل ديمونا رغم معرفتها وجود مشاكل فيه. وقد ذكرت بعض التقارير أن إسرائيل تحاول الاستفادة من طرق جديدة لإنتاج التريتوم تم تطويرها في الهند.

إن المسؤولين الإسرائيليين مشغولون بمراجعة استراتيجية اسرائيل النووية التى

تمت بلورتها في الستينيات بإشراف الولايات المتحدة الأمريكية لردع الاتحاد السوفيتى عن التدخل في حرب إقليمية في منطقتنا، ولمحاولة بث الرعب النووى في قلوب المسؤولين العرب. وتركز إسرائيل اليوم، بالإشراف الامريكى نفسه، على الوصول بسلاحها النووى إلى عواصم دول عربية وإسلامية ضمن دائرتنا الحضارية مثل بغداد وطهران وإسلام آباد شرقاً وطرابلس الغرب غرباً. وذلك إلى جانب تركيزها على «صناعة اسلحة نووية ذات أثر محدود يمكن استخدامها بصورة آمنة قرب الحدود الإسرائيلية» تستهدف دول الجوار العربى لفلسطين، وهى من أجل الهدف الأول تطور صواريخها بعيدة المدى وتعمل على نشر منظومة أرو المضادة للصواريخ الباليستية. وهنا نصل إلى تتبع «اللعنة النووية الإسرائيلية» على صعيد هذه الصواريخ.

لقد تضمن مقال هارولد هاو شرحاً لواقع صاروخ اريحا، الموجود في منطقة زكريا بين الخليل وبئر السبع. «فطول هذا الصاروخ الناقل للقذائف النووية يبلغ ستة عشر متراً، وعرضه أربعة أمتار، وارتفاع ثلاثة أمتار، ويتم تحريكه بواسطة ثلاث ناقلات تتحرك من ثلاثة مداخل لغرف تحت الأرض لتصل إلى مواقع على امتداد الريف في ممرات غير نافذة». وهذه المداخل محاطة بجبال. ويتحسب الخبراء الاستراتيجيون «من احتمال تدمير المداخل، ومن التواء الأنفاق عند حدوث انفجار نووى أرضى». وهم يدركون أن حرص الصهاينة على امتلاك السلاح النووى جعل عدداً من دول منطقتنا حريصاً على امتلاكه هى الأخرى، إذ لا يمكن أن تكون هناك دولة واحدة في المنطقة تنفرد بكونها نووية، كما أكد تشارلزماينز رئيس تحرير فورين بوليسى في كتاباته. وتجدر الإشارة هنا إلى أن خبراءنا الاستراتيجيين العرب ومنهم امين هويدى خرجوا من دراساتهم بأن السلاح النووى الإسرائيلى لم يكن عامل ردع على الصعيد الإقليمى. وهذا ما اثبته الباحث محمد عبد السلام في كتابه الذى صدر حديثاً عن الاهرام، وآخرون عرضنا آراءهم في بحثنا «تأملات في الردع النووى» الذى قدمناه في اكاديمية المملكة المغربية. وهنا وجه المفارقة الذى يبرز «اللعنة النووية الإسرائيلية». فالسلاح النووى الإسرائيلى لم يمنع نشوب حروب عربية إسرائيلية، وهو لا يردع حركات التحرير وقوى المقاومة، ولكنه حافل بالأخطار على مالكه أولاً وعلى منطقتنا ثانياً، منذر بلعنة نووية.

في نطاق مضي المسؤولين الإسرائيليين في طريقهم هذا خططت إسرائيل لتنفيذ ثلاثة تفجيرات تجريبية في البحر الميت، كما نشرت وكالة اسوشيتد برس يوم

١٩٩٩/١/١٣. «وذلك كجزء من مشروع بدأته الولايات المتحدة لتحسين (كذا) أساليب مراقبة النشاطات النووية وأنشطة الزلازل في المنطقة». وقد ذكرت صحيفة هاآرتس أن التفجيرات يتم تنفيذها من على متن قارب في وسط البحر الميت، وأن أولها يتضمن تفجير نصف طن من مادة تى. إن.تى، وثانيها تفجير طنين وثالثها تفجير خمسة اطنان. وكما هو شأن المخربين النووين لبيئة أمنا الأرض في عالمنا، فقد حرصوا على أن يقرنوا هذا الإعلان عن التفجيرات بتصريح نائب وزير البيئة الاسرائيلى «أن الاختبارات لن تلحق أى ضرر في البيئة»، وبتصريح آخر لأستاذ في معهد إسرائيل الجغرافى – الفيزيائى وينبه إلى أن الانفجارات «ربما تحدث بعض الأمواج في البحر الميت لكنها لن تشكل خطراً على السياح الموجودين على شواطئه». ويصادفنى وأنا أكتب هذا الحديث ما نشرته جريدة «الأسبوع» القاهرية يوم ١٩٩٩/٥/١٧ عن مطالبة البرلمان الأردنى الحكومة الأردنية بالقيام بتحرك سريع لإجبار الكيان الصهيونى على الحد من التسرب الإشعاعى من مفاعل ديمونا لتأثيرها على المناطق الجنوبية في الأردن حيث تكثر هناك الإصابة بالسرطان.

إن مخاطر «اللعنة النووية الإسرائيلية» جاثمة وماثلة. وهذه «اللعنة» حين تقع لا تصيب الذين ظلموا خاصة بل تتجاوزهم إلى من قصروا في محاصرة هذه المخاطر والقضاء عليها. وهذا لا يتحقق إلا بمتابعة جهودنا على هذا الصعيد، للتوعية بالخطر وفضح الممارسات الإسرائيلية النووية وحشد رأى دولى عام لتنفيذ شعار نزع السلاح النووى وأسلحة الدمار الشامل الأخرى من منطقتنا وجعل اراضينا «منطقة مجردة من اسلحة الدمار الشامل». ويصادفنى وأنا أكتب هذا الحديث ما جاء في أهرام ١٩٩٩/٥/١٦ من قيام مصر بتحذير «إسرائيل من استمرارها في رفض الانضمام لمعاهدة حظر الانتشار النووى» وذلك فى بيان القاه رئيس وفد مصر أمام الدورة الثالثة للجنة التحضيرية لمؤتمر مراجعة معاهدة منع انتشار الأسلحة النووية لعام ٢٠٠٠ أثناء مناقشة تنفيذ القرار الصادر عن الشرق الأوسط القاضى بجعله مجرداً من السلاح النووى. وكانت مصر قد بادرت منذ ربيع عام ١٩٩٠ على لسان رئيسها برفع هذا الشعار.

مطلوب إذاً أن نداب على التحذير من «اللعنة النووية الإسرائيلية» أن تحل بالمنطقة. وعلينا أن نخصص جزءاً من حملة التحذير هذه لأفراد التجمع الإسرائيلى نفسه، وفيه وعى متزايد بأخطار هذه اللعنة بفضل فاعنونو وأمثاله. وقد اشار إلى هذه

الظاهرة «اسرائيل شاحاك» في كتابه «اسرار مكشوفة: سياسات إسرائيل الخارجية والنووية» الذى صدر عام ١٩٩٧ . واستهل شاحاك كتابه بفصل شرح فيه طبيعة الصحافة الاسرائيلية، وما يفرض عليها من رقابة عسكرية، وما طورته من سبل ناجحة لمقاومة هذه الرقابة المفروضة عليها. كما أن علينا أن نوجه جزءاً من حملة التحذير هذه إلى الولايات المتحدة الامريكية التى لا تزال تعتمد استرايجية «اسرائيل النووية» في منطقتنا، ونصب أعيننا أن نعمل بكل السبل للوصول بواشنطن إلى تغيير هذه الاستراتيجية كما فعلت مع النظام العنصرى الأبيض في جنوب افريقيا. ولابديل عن فضح القارونيين الجدد من قوى الهيمنة الذين مصيرهم أن يخسف الله بهم وبدارهم الأرض حين تحل اللعنة عليهم.

حوار

التاريخ وحده ليس كافياً لنبلغ المستقبل

في هذا الحوار يتحدث المؤرخ والباحث والمفكر الفلسطيني والعربي الكبير الدكتور احمد صدقي الدجاني في التاريخ، وفي الفكر على السواء. في الغزوة الفرنجية القديمة، وفي الغزوة الإسرائيلية الحديثة الآتية أيضا من بلاد الافرنج. وبصورة خاصة في مستقبل هذه الغزوة في ضوء التاريخ، وانطلاقاً من الواقع الراهن، قلت للدكتور الدجاني: في أواخر القرن التاسع عشر اطلق مفكر من لبنان هو نجيب العازوري نبوءة ترى أن الصراع العربي - الصهيوني هو الذى سيطبع القرن العشرين بطابعه، فكيف يتصور مفكر من فلسطين مستقبل هذا الصراع في القرن المقبل، القرن الواحد والعشرين؟ هذا السؤال وغيره كان في الحوار مع الدكتور الدجاني.

ولكن الحوار بدأ بكلام في العشق، تحدث الدكتور عن دارين من ديار العرب لهما مكانة خاصة في قلبه هما: لبنان وفلسطين. وقد بدأ بالحديث عن لبنان.

- الدكتور الدجاني: عندما اتحدث عن لبنان وحبي له أحاول التحدث بلسان كل عربي. كل عربي في هذا الوطن الكبير للبنان مكانة خاصة في قلبه. وقد تساءلت دائماً ما أسباب ذلك وأنا أضرب المثل الآن بنفسي. ابدأ بعامل النشأة، أنا ولدت في يافا من أسرة يافاوية قديمة جاءت من بيت المقدس. مجموع ما سمعته في طفولتي كان للبنان فيه مكان خاص على صعد عدة، أولها صعيد اللحمة والقرابة، لا تكاد توجد أسرة مسيحية أو مسلمة في فلسطين ألا ولها امتداد في لبنان بخاصة وبقية بلاد الشام. ولكن نحن الذين كنا نعيش على الساحل، الصلة كانت أوثق. فبين يافا وطرابلس صلة وثيقة كنت أراها من خلال الأقارب الذين يأتون من ناحية الخال غالباً، وكذلك من صيدا. وسمعت من أخوة آخرين من مدن أخرى، ان الأمر ينطبق على اجزاء أخرى من لبنان، بيروت والقدس مثلا المصاهرة التي جرت بينهما.

نحن إذن أسرة كبيرة ولكن منذ الطفولة كان الحديث عن جمال لبنان وروعته. فتأملت يوما أن احظى برؤية هذا الجمال. منذ الطفولة كنت أسمع اسماء أعلام

لبنانيين في الثقافة، واسمع عن مؤسسات علمية كان عدد من ابناء مدينتي يذهبون إليها. بل إن والدى بعد أن انتهى من دراسته في الروضة المقدسية جاء إلى بيروت ليتابع في الجامعة الامريكية.

هذا الأمر تطور في مرحلة ما بعد النكبة وخسارة فلسطين. بعد النكبة جئنا في السفينة إلى لبنان، نزلنا في صور ثم انتقلنا إلى قرية الغزية لفترة قصيرة قرب صيدا، واقمت مع اسرتى ثلاثة شهور فعلت فعلها في الذاكرة على صعيد التفاعل مع الإنسان ومع المكان.

أى جمال لهذا المكان، كنت في الثانية عشرة من عمرى كنا ننطلق بين الجبال غير العالية، الجبال هناك في جبل عامل وقرب البحر ليست عالية. ولكن يا لروعة رائحة الأرض والتربة. يا لجمال الحقل الذي كان منزرعاً بالقمم. ومازلت اذكر تلك القناة التى حفرت لتأتى بماء الليطانى.

كانت أول مرة أعيش في قرية. أنا ابن مدينة وطابت لى روعة حياة الريف، عادات الريف الكريمة. من تلك القرية تعرفنا على صيدا وعلى بيروت ثم انتقلت للعيش في اللاذقية.

في تلقى العلم، في مرحلة التفتح الأول، يفيض لبنان على صعيد كونه منارة ثقافة ارتفع وارتفع. المطبوعات تأتى، دور الكتب الكبيرة. كنت أرصد من صغرى ما يصدر عن دار العلم للملايين. أذكر من قراءتى الأولى المحببة إلى نفسى ما كتبه مارون عبود في اكثر من كتاب بلغته السلسة المتميزة. قرأت ميخائيل نعيمة. وعلى صعيد الشعر كنا نتغنى بما قاله بشارة الخورى وغنته اسمهان وغناه عبد الوهاب.

وعندما دخلت الجامعة تنبهت إلى امر آخر، بدأنا ندخل في العمق، وقفت أمام عناصر تكوّن لبنان، ذكرت في وصف لبنان اربع جمل: هو إشعاع جمال، فى تلك الفترة تعمق هذا الشعور لأنى زرت جعيتا وزرت قاديشا وأنا في سن التفتح في زيارات إلى لبنان، مررنا بالأرز ورأينا جماله، ارتباط البحر بالسهل، بالجبل، ثم بوادى البقاع العظيم.

نحن هنا أمام اشعاع الجمال

في دراستى التاريخية لفتنى لبنان أنه كان دائماً موئل حرية الكلمة والتعبير.

لماذا؟ الواقع أن قراءاتى المتعمقة كانت لاؤلئك الذين حدوا بلبنان. أذكر فيليب حتى المؤرخ الكبير الذى هو من لبنان ولكنه خرج إلى الولايات المتحدة، وقد أغنى على هذا الصعيد في كتابه عن تاريخ لبنان. اعطى امثلة كثيرة على أنه موئل حرية. وبقراءاتى المختلفة اخترت نماذج معينة. هذا الأب مارون يأتي من منطقة حلب لأن له رأياً حراً في إطار الكنيسة ويريد أن يعبر عنه، ومن ثم ينتقل إلى جبال طرابلس أولا ثم إذا بانصاره يعمّون في الجبل.

إذا تأملنا مدرسة الأوزاعي السنية الفقهية نجد فيها نبضا وعطاء. والأوزاعي كان في لبنان.

إذا تأملنا أخوتنا الشيعة كيف اختاروا جبل عامل، وأخوتنا الدروز الذين اختاروا جبل الشوف.

موئل الحرية هذا، حرية التعبير والفكر، تجده في تاريخ لبنان كله، ذكره عدد من الذين جاؤوا لفترات قصيرة. أنا اذكر محمد عبده، وذكره صاحب كتاب في الرحلة إلى بلاد الشام ، مصرى جاء إلى لبنان واعطى هذا الطابع. تعمق هذا عندى ثم عشته أنا بنفسى. كلما كانت ظروف المنطقة تصعب على المرء إذا به يجد في لبنان موئل حرية الفكر والتعبير.

البعد الثالث درسته بعمق وأنا من الذين اختصوا في التاريخ، لبنان مركز تواصل حضارى، ويا لدوره في تراث التفاعل الحضارى الإنسانى. وهنا اعتز بأنى واحد من ذلك الشعب القديم الذى حمل هذه المسؤولية. اقصد شعب كنعان وهو، كما نعلم، عاش على الشواطئ من أوغاريت شمالا إلى غزة جنوبا. كلنا منه. ولكن كانت مراكزه في لبنان بالغة الحيوية، وبالمناسبة في تفتحى الأول، وقد عشت في اللاذقية، قصدت رأس الشمرة وتعرفت على المكان الذى خرجت منه الابجدية في اوغاريت. ثم حين تخصصت في دراسة التاريخ تتبعت التفاعل الذى حدث بين اهلنا الفينقيين كما ساهم اليونان (والفنيقى هنا كما نعلم جاء من كلمة الارجوان لأنهم اشتهروا بلون الصبغة الحمراء التى تأتى من الصدف والحيوانات البحرية). حين نتأمل دورهم نجد أنه كان دور تفاعل سلمى. هم لم يشتهروا بأنهم محاربون كبار، ولكنهم بنوا المواقع في سواحل بلاد الإغريق، في تونس، في ليبيا أيضاً، وبعد ذلك في المغرب، ثم في شبه الجزيرة

الايبرية وفى رأى بعض الكتاب، اطال الله عمره معروف الدواليبى، كان يصرّ على ان جنوب فرنسا وتوسكانيا (وعنده دراسة تاريخية جيدة جداً في كتابه مدخل إلى تاريخ الحقوق وقد قرأته بعناية) يشير إلى الدور الفينقى في المتوسط كله.

مركز التفاعل الحضارى استمر في لبنان وازدهر ايما ازدهار في ظل حضارتنا. كان حتى في عهد الحضارة الكنعانية - الفينيقية على صلة وثيقة بمصر، وعلى صلة وثيقة ببابل، وفي فترة من الفترات، كان المؤرخون يتساءلون: قامت حضارة في مصر، وفي بابل، فماذا عن الوسط بينهما؟

لقد كان هناك نقص في تتبعهم ثم جاءت «عبله» واكتشاف «عبله» اكمل هذا النقص. واقعياً لبنان كان واصلة منذ البداية هو وبلاد الشام، سنرى أن لبنان هذا الذى نحكى عنه الآن هو مصغر لبلاد الشام، فيه البيئة البدوية وفيه البيئة الريفية وفيه البيئة المدنية.

«الحوادث»: اعرف أن لكم حباً آخر غير حب لبنان هو حبكم لبلدكم فلسطين. احب أن اعرف ما هى صورة فلسطين في ذهنكم؟ كيف تصف قدر هذا البلد؟ وماذا عن مستقبله؟

احمد صدقى الدجانى: حين نستشرف المستقبل سنحتاج إلى وقفه أمام الواقع القائم ثم إلى استحضار الماضى لنرى حركة التاريخ.

في الواقع القائم كما يعلم أخى الصورة مؤلمة للغاية. لقد حدث أن تفاعلت مجموعة ظروف لتجعل الأزمة في اشد حالات تفاقمها، واصدقك القول نحن نعيش أياماً بالغة الدقة، وسأعرض لها حين اصل إلى تشوف المستقبل، ولكنى ابدأ بالصورة السابقة.

كما عرضت لبنان، فلسطين عندى تبدأ من الطفولة حيث نشأتى وحيث أهلى وقومى في يافا ومنها عرفت بقية الأجزاء، ولكنها تعمقت من خلال الدراسة ولها دورها أيضا في إطار بلاد الشام والوطن العربى الذى نضيف اليه بعداً روحياً. ففلسطين القدس والناصرة وبيت لحم، وفى يافا كنيسة المائدة. نزلت المائدة على السيد المسيح عليه السلام، هذه المعانى العظيمة، وفلسطين وواقع الصحابة والاضرحة والقديسيين وللأولياء تراث روحى فعل فعله في نفسي ولايزال يفعل. ولكن فلسطين بعد ذلك هى فلسطين

الوطن والنكبة معا. فكل ابعاد الوطن اخذناها والتهمناها واستلهمناها، ولكن عشنا ابعاد النكبة، وأنا تركت فلسطين في الثانية عشرة من عمرى، أى أنى كنت بدأت أدرك هذه الأبعاد وتعمقت بالدراسة. ومؤخراً قدمت بحثاً للمجمع الملكي لبحوث الحضارة عن ظاهرة اللاجئين في عالمنا. وبعد أن فرغت منها كتبت تجربتى الذاتية في اللجوء، فلاحظت، وهذا وثيق الصلة بالمستقبل ان في اللجؤ وجه النكبة والألم والمعاناة، ولكن فيه وجه الاستجابة للتحدى.

ففلسطين عندى تمثل أيضا الاستجابة للتحدى. وهذا التمثيل هو جزء من استجابة حضارتنا ككل، وأمتنا ككل، في وسط هذه الحضارة لتحدى الأوضاع المحيطة بها. وقد استخدمت تعبير الاستجابة لأنى ارفض أن تكون تصرفاتنا رد فعل مجرداً، ولذا فإنى حين اتعامل مع المستقبل ادخل هذا العنصر.

«الحوادث»: كيف ترى المستقبل الآن؟

احمد صدقى الدجانى: دارس تاريخ انا، ولذا أحدد المرحلة. والمرحلة التى نحن فيها هى مرحلة ما بعد زلزالين: أوروبا الشرقية، والخليج. وعلمنا التاريخ انه في المرحلة تتعدد الخطوط العريضة. فمسار الاحداث يسير وفق هذه الخطوط ولكن علمنا التاريخ أيضا أن كل مرحلة تلد في داخلها مرحلة اخرى واحياناً تلد نقيضها. ولذا حين تتبعت في كتابى «لا للحل العنصرى في فلسطين» السنوات الأربع الأولى من المرحلة من ١٩٩١ إلى أول ١٩٩٥ لاحظت الخطوط الكبرى. واصدقك القول بعضها مازال مستمراً إلى اليوم، وأنا اقول بملء الفم اننا مقبلون في الشهور المقبلة على فترة دقيقة لأن الولايات المتحدة الامريكية وهى تمثل القوة الأولى وراء ما يجرى في هذه المرحلة، بلورت رأياً في ما تسميه الحل النهائى ورسمت خرائط وأنا اعتقد أن ما يجرى الآن ونسمعه وتتداوله الإذاعات يوميا هو بعضه في إطار إخراج الحل، وبعضه ردود أفعال على الحدث، حتى أكون دقيقاً، لأننى كما اوضحت في عام ١٩٩١ عمدت الولايات المتحدة إلى مسك ذراعنا العربى ولوته بنسبة ٩٥ بالمئة، وعمدت إلى الذراع الإسرائيلى ولوته بنسبة خمسة بالمئة. وتبنت ٩٥ بالمئة من المطالب الإسرائيلية. هذه قراءتي لمدريد ولأوسلو. الخمسة بالمئة العدو الاسرائيلى مازال يساوم لأن *عقيدته الصهيونية*، ولأن الظروف المحيطة بها، ووجود هذا الامتداد له ضمن الجسم الامريكى السياسى ذلك كله يجعله يطمع حتى بأن ينطلق دون الخمسة بالمئة هذه. وهذا هو سلوك

بنيامين نتانياهو رئيس وزراء اسرائيل الحالى لأن الفارق بينه وبين شمعون بيريز رئيس وزرائها السابق، بيريز يأتي في حدود الواحد بالمئة. بيريز قد يقبل بالأربعة بالمئة. هذا يريد الخمسة كلها ويريد الأسلوب الصارخ.

الولايات المتحدة تحاول أن تخفف من اسلوبه الصارخ، وتلوى ذراعه بنسبة ضئيلة. ولكنها في الحل النهائي تبنت جل مطالب العدو، بل جاهر كريستوفر وزير خارجية امريكا السابق، كما نذكر بعد انتخاب نتانياهو بشعار التكيف مع نتانياهو. والواقع أن التكيف حدث بنسبة كبيرة وتمارسه الآن وتجسده عملياً وزيرة الخارجية الحالية مادلين اولبرايت. وهذا يجعلنى أرى على المدى القصير أياماً صعبة لأن ما جرى في أوسلو سميته في كتاب اتفاق الاملاء، وأنا ارى أن الاملاء في أشد صوره سيكون في الفترة المقبلة في محاولتهم لفرض الحل النهائي.

«الحوادث»: وهل سيتم الفرض؟

أحمد صدقي الدجاني: لا استبعد حدوث مقاومة لهذا الفرض، واعتقد أن لدينا طاقات، وفي بحث اخير لى جرت مناقشته قبل اسابيع في المؤتمر السنوى الحادى عشر للعلوم السياسية الذى يعقد في مركز البحوث والدراسات السياسية في كلية الاقتصاد بجامعة القاهرة طرحت هذا الاحتمال. أنه يمكن ألا نرضخ لاتفاق الاملاء هذا، إذا دعم الموقف الفلسطينى الرسمى بموقف عربى متماسك. لكن قد لا يحدث هذا وعندها سيحدث اتفاق املاء.

هل معنى هذا أن القضية انتهت؟

اجزم وأنا من دارسي المستقبل أن كل ما في الأمر أن مرحلة جديدة سوف تبدأ. ذلك لأن السنوات الست الماضية هى مرحلة من مراحل الصراع الممتد على مدى مئة سنة.

في المرحلة الجديدة ابرز ما فيها أن الصدع بلغ مداه بين الموقف الرسمى والموقف الشعبى، على الصعيد الفلسطينى وعلى الصعيد العربى.

حين يحدث هذا الصدع ويتمكن الخارج وقوى العدو من فرض الاملاء تحدث اتفاقات الاملاء، بمعنى لا يقبلها الناس، ويبدأون بمقاومتها وتبرز وتقوى المقاومة

بمفهومها الشامل. وقد شرحت المقاومة في مفهومها الشامل في خطاب افتتاح المؤتمر القومى – الإسلامى واسجل أن اعظم مثل يتجسد في هذه المرحلة بمفهوم المقاومة الشامل تتجسد في لبنان وسوريا.

في المقاومة الشاملة بُعد روحى. وأنا احيى كل رجال الدين المسيحيين في لبنان ومصر والوطن العربى وكل علماء الدين المسلمين لأنهم اعطوا هذا الموضوع حقه، ويا لروعة المواقف من بيت المقدس.

هذه المقاومة الروحية ستتضاعف. ثم هناك المقاومة الفكرية، واشير دائماً إلى ما كتب المستشرق الروسى كراتشكوفسكي في قصة الأدب الجغرافى العربى. حكى كيف انه في مرحلة من مراحل الغزوة الافرنجية وهذا اسمها الصحيح. والتأليف تكثف حول فضائل بيت المقدس. وبدأ التحول كما نعلم على الصعيد الفكرى.

نحن نسهم جميعاً في هذه المقاومة الفكرية وهى مقاومة تستهدف الحق والقيم العلى ولكنها أيضا تصمد أمام اتفاقات الاملاء.

هناك المقاومة الاقتصادية، جرى هذا في مؤتمر الدوحة الأخير، وهناك المقاومة السياسية، وأنا اشيد بالدور الرسمى السورى لأن وقفته بالتمييز بين الارهاب والمقاومة وقفة متصلة مستمرة. وها هى تؤخذ في المؤتمرات واحدة بعد أخرى.

وامثلة أخرى فى الدبلوماسية الرسمية. أنا لا أنسى إبان ضربة العدو الاسرائيلى للبنان في ربيع ١٩٩٦ التحرك السياسى الذى تم في لبنان على كل الصعد، في تكامل مع الوطن العربى، فأمكن الصمود أمام ماذا؟ أمام ضوء اخضر للغرب تلا شرم الشيخ. ويومها حدث الصمود السياسى مقترناً بالصمود العسكرى في المقاومة.

تشوفى للفترة المقبلة على المدى القصير: سنعيش روعة مقاومة لاتفاق الاملاء. ولكن قد يحدث أن نعانى مرارة تذوق الكأس وسيقرن ذلك بمحاولة تسويق لاعلان الترويج لفكرة دولة فلسطينية. والدولة الفلسطينية حسب الخرائط المرسومة حالياً، حسب نتانياهو، يريدونها أن تكون في قطاع غزة فقط إعلام الترويج يحاول أن يركز ويعمم أى حادث من هذا النوع ليسرق وعى الناس.

«الحوادث» : إلى ماذا بعد؟

أحمد صدقي الدجاني: إلى أن نصل إلى الحل الديمقراطى، والحل الديمقراطي أوله ان ينبذ اليهود الصهيونية العنصرية.

«الحوادث»: في أواخر القرن التاسع عشر اطلق مفكر لبناني هو نجيب العزوزي نبوءة حول صراع الحركة القومية العربية والحركة الصهيونية، قال إن هذا الصراع سيطبع القرن المقبل، أي القرن العشرين بطابعه وعلى نتائجه ستتحدد مصائر العالم وسيظل هذا الصراع يشتعل حتى تنتصر احدى الحركتين على الأخرى، النبؤة هذه أخذت مجراها في التاريخ، وان لم تنته إلى «حل نهائي» بعد... هل من تصور مماثل لهذا التصور، من مفكر من فلسطين هذه المرة، هو حضرتكم حول مستقبل اسرائيل وفلسطين في النهاية؟ هل يمكن لهذه «المستوطنة» الكبرى ـ أي إسرائيل – أن تعيش على ساحل البحر الأبيض المتوسط وسط بحر عربي وإسلامي يعتبرها مغتصبة ومعتدية؟

احمد صدقي الدجاني: حديثك هذا يجعلني استذكر قراءة لمؤرخ اسرائيلي يهودي. وأخيراً وصفوه بانه عبري عنيت بقراءته بعناية. اسمه يعقوب تلمون واشتهر بعملين هما اللذان درستهما، أولهما في اعقاب حرب رمضان ١٩٧٣، كتب بحثاً بعنوان حديث النفس من أعمق ما قرأت. بعد ١٩٨٢ وما حدث من اجتياح إلى لبنان كتب صفحات معدودة، ورسالة إلى رئيس الوزراء وقتها مناحم بيغن ومات بعدها.

لم تذكرته، لقد انطلق مما تفضلت به وتحسر. قال: «لقد جئنا إلى الاستعمار الاستيطاني متأخرين مئة سنة. أولئك الذين سبقونا يجزم هو بأنهم سينتهون» وفعلاً عشنا ورأينا رأى العين كيف انتهت وتهاوت قلاع الاستعمار الاستيطاني في آسيا وفي افريقيا. ولعلنا نذكر وقد عشنا في السبعينات وقد كانوا يتحدثون عن روديسيا وإذا بها زيمبابوي. ثم بقت تلك القلعة الصامدة في جنوبي افريقيا، وإذا بها تسقط في ١٩٩٤ والمفارقة كانت انها سقطت سقوطاً نهائياً في الاسبوع الذي حاولت فيه الولايات المتحدة أن تكرس الحل العنصري في فلسطين.

كتبت هذا في كتابي «لا للحل العنصري» في الاسبوع نفسه عندما جرى توقيع اتفاقية غزة – اريحا بحضور كريستوفر والآخرين.

يعقوب تالمون نبّه إلى أن هذا لا يمكن، وهو مخالف لمجرى التاريخ.

إذن نحن الذين ندرس التاريخ نسلم بما تقول، هذا لا يمكن. هذه قراءة تاريخية. لكن كيف تتحول القراءة التاريخية إلى واقع، فالأمر يقتضي دائماً منهج عام دراسة المستقبل، لأن الحركة التاريخية وحدها لا تصنع المستقبل.

الحركة التاريخية عامل اساسى في صناعة المستقبل مع العوامل الناجمة من تحليل الواقع مع عنصرين هما الحلم وإرادة الفعل.

أسال نفسي: هل ما تتفضل به سيتجسد في أن الأمة تصل إلى حل حاسم لأنه لا جدوى من كل هذه الحلول التى هى ترقيعات؟

لقد حدث في بقعتنا، بفعل نكبة ١٩٦٧ وتطورات ما بعد ١٩٧٣، وبفعل تفجرات أزمة في داخلنا، ان فئة منا شعرت باليأس من جدوى الاستمرار وقالت إن أقصر الطرق أن نسلم وإذا سلمنا لهم فلعلهم ينصفوننا. وأنا أذكر هنا اخا من ابناء بلدتى، ونشأ مقاوماً ثم دخل في خانة معينة هى خانة رجال الأعمال ازدهرت امورهم من خلال نشاطات معينة. أوجز في احد اجتماعات مجلسنا المركزى في حديث ثنائى، وهو يعلق على خطابى الداعى للمقاومة: ان هذا غير ممكن. ألا ينبغى ان نستبدله بان اسلم لهم امرنا، فلعلهم ينصفوننا!

هذه الفئة اعطت نفسها الفرصة والظروف أعطتها الفرصة. فماذا اخذت؟ لقد قبلوا كل شى ولم يأخذوا إلا الإذلال وإلا الممارسات العنصرية بكل بشاعتها، وإلا محاولات الصهيونية للهيمنة بجوع ما بعده جوع. وهذا كله يتجلى في مشروع الشرق أوسطية. ويتجلى في الحكم الذاتى الذى لا تدخله إلا من معبر فيه إسرائيلى يتفنن في إذلالك هو معبر «بيت حانون» الذى له اسم آخر عندهم، والتحكم بالتنقل حتى الممر بين الضفة والقطاع.

هذه الدائرة ما زالت موجودة. ضاقت وستبقى ضيقة ولكنها ما زالت تحاول وهى ترفع شعارات كثيرة منها غير مدروس. ولماذا ستبقى؟ لأن الدول فى هذه المرحلة بحاجة إلى وجودها. أقصد دولنا نحن وهذا يفسر إعلان كوبنهاغن.

لقد استوعبنا يهودا كثيرين في القرن السادس عشر الميلادى بعد ما جرى في اسبانيا. قامت مدارس في صفد وطبريا والقدس وفي الاستانة. جاء عدد كبير وعاش في تونس والمغرب، وما كان هناك ضير ابداً. وعاشوا لهم ما لنا وعليهم ما علينا بكل معنى الكلمة. لكننا لا يمكن أن نقبل مجئ يهودى أو غير يهودى حتى من أى أديان أخرى في منطقتنا ليتحكم فينا بالقوة.

هذا الأمر سيعم في أوساطنا ويصبح هدفنا.

المستقبل أيضا يستنير بالهدف ولكن الذى يصنعه هو الفعل، فكيف نرى قدرتنا على الفعل؟

أنا من الذين يرون أن هذه الأمة لديها القدرة على الفعل وهذه القدرة في ازدياد على صعد عدة. وعلى الرغم من قيود كثيرة موجودة في قمة الحكم بفعل أوضاعنا الدولية، إلا أن الهامش موجود وسيزداد وسيجري التعبير عنه بصور كثيرة.

من بين التعبير الذى ينبغى أن يكتمل هو تقديم الحل الصحيح. الحل الصحيح يتضمن مخاطبة اليهود في داخل فلسطين المحتلة ليقال لهم انبذوا الصهيونية العنصرية، فيبدأ مجال للبحث يتضمن مخاطبة اليهود في الخارج. إذا تابعتم هذا المسار ستقوى حركة المعاداة للسامية كما تسمونها. واياكم أن تسكروا بما يجري في الولايات المتحدة فهذا ناجم عن موافقته للاستراتيجية الامريكية بخطوطها العريضة. إذا اختلفتم مع هذه الاستراتيجية فما اسرع ما يلوى ذراعكم ليس خمسة بالمئة بل مئة بالمئة.

وبالمناسبة استذكر ما كتبه ويل ديورانت في كتابه الشهير «قصة الحضارة»، تتبع ذيول الغزوة الفرنجية، وهناك فصل لخصته في كتابى في الطريق إلى حطين والقدس. كما تعلم كانت قوى في الخارج تحركت. لكن هناك فئات تطرفت ومنها الفرسان المختلفون الذين منهم فرسان مالطة، هؤلاء اختلت الموازين عندهم وتحولت، عادوا إلى فرنسا وأوروبا، لست أذكر الصفحة في الكتاب التى تصف المذبحة التى رتبها ملك فرنسا لكل قياداتهم.

ان لم ينتبه هؤلاء، سيحدث هذا، متى سينتبهون ومتى يستكمل حل فعلى؟

أنا أرى أن الأيام المقبلة سيكون فيها اختبار في منطقتنا ومناطق أخرى في العالم لمحاولة فرض التغيير على التعامل الامريكى مع العالم، وما جرى في الدوحة، ثم في الخليج حول مجلس الأمن وضرب العراق وفي طهران امثلة بسيطة، ولكن أمثلة أكبر تجرى على الصعيد الثقافى في أوروبا وتجرى بدايات أولية مع روسيا.

الولايات المتحدة مدعوة إلى المراجعة، هل ستراجع بسهولة ويسر؟ الولايات المتحدة ستلتزم بالمراجعة بعد أن تتكرر الحوادث مثل تلك التى ذكرنا، ولكن ستضطر إلى الإسراع في المراجعة بعد أن تمس بعض مصالحها الحيوية. وسلوكها الراهن. كل متابع بموضوعية وحيادية يقول إن هذا سوف يصل إلى غضبة ليس فقط في الخارج بل داخل الولايات المتحدة نفسها.

الاعتصام بالمقاومة

من الأمور التى تلفت «مؤرخ الأفكار»، وهو يتأمل في فترات التاريخ الساخنة التى تشهد اشتداد أزمات، أن اختلافاً في قراءة الواقع القائم يقع في أوساط الخاصة وينتقل من ثمَّ إلى أوساط العامة. وهكذا تتعدد القراءات، وتختلف تبعاً لكل قراءة النتائج التى تستخلص منها حول ما يمكن عمله.

اختلاف تعدد القراءات بين أصحاب الرأى من المتابعين للأحداث، ناجم عن تفاعل عدة عوامل، من أهمها عاملان: الأول هو اختلاف زاوية رؤية الأحداث، والآخر هو الحالة النفسية للمتابع عند النظر لهذه الأحداث.

في وقوفنا أمام العامل الأول نلاحظ أن الواقع القائم في دائرة ما، يمكن تمثيله بهرم قاعدته الواسعة هى جماهير الشعب العامة، وقمته هى أهل الحكم، وبين القاعدة والقمة تتتالى مستويات الخاصة. وقد يختار الناظر إلى هذا الهرم زاوية يرى منها قمته، ويركز نظره على ما يجرى فيها. أو يختار زاوية يرى منها قاعدة الهرم، أو مستواه الأوسط. وهكذا تأتي قراءته للواقع القائم متأثرة بزاوية الرؤية التى اتصفت في هذه الأحوال بأنها غير شاملة. والأمر يختلف إذا اعتمد الناظر الرؤية الشاملة التى تحيط بالهرم كله في جميع مستوياته، ناظراً نظرة الطير من علٍ التى تنفذ بفعل حدّتها إلى مختلف المستويات. ويتداعى إلى الخاطر مثل عليها عبرّ عنه الشاعر بقوله مخاطباً بنيِ أميةِ في آخر أيامهم «أرى تحت الرماد وميض نارٍ – ويوشك أن يكون لها ضرام/ فقلت من التعجب ويح نفسى – أأيقاظ أُمية أمْ نيام»، فالشاعر هنا رأى بنظرة الطائر الحادة ما تحت الرماد.

في وقوفنا أمام العامل الثانى نلاحظ أن اختيار زاوية النظر للواقع القائم تتأثر بالحالة النفسية للناظر، وكذلك ما يخبره به نظره، وهذه الحالة النفسية تختلف بين جيل وجيل، ومن ظرف إلى ظرف. فالشاب مثلا بدمائه الحارة غير الشيخ الذى خبر الحياة وتسلل البرد إلى اطرافه. والإنسان الذى يعيش احباطاً بفعل ظرف محيط به هو غير آخر يعيش تألقاً.

واضح أن القراءة الموضوعية للواقع القائم أو لأى حدث يقع فيه تتطلب الرؤية الشاملة بنظرة الطير من علٍ وبحدتها التى تسبر الأغوار، وتتطلب أيضاً صفاءاً نفسياً يتجاوز الاحباط، وهى حين تتحقق تحيط بما يتجمع في حياة المجتمعات من ظواهر، وتكون قادرة على تصنيف هذه الظواهر وإدراك العلاقة بينها وتشوف مستقبل كل ظاهرة ومعرفة الظاهرة الأقوى.

إن تعدد بروز ظواهر عدة في حياة المجتمعات متصل بحقيقة التنوع والاختلاف والتدافع بين أفراد هذه المجتمعات. وهكذا تتزامن ظاهرة مع أخرى مختلفة عنها. ففى فترات يعمّ فيها «الترف» مجتمعاً ما ويمثل ظاهرة، نجد بروز ظاهرة «الزهد والتقشف والتطهر» تتجلى في الوقت نفسه، وفي أعقاب الحروب قد تبرز ظاهرة «قبول الأمر الواقع والتسليم به»، وتقترن عند البعض «بهرولة» نحو التكيف مع ما يفرضه ذلك. وتبرز في الوقت نفسه ظاهرة «مقاومة هذا الأمر الواقع ورفض التسليم به وبالإذعان لما تم فرضه إملاءاً».

تستطيع القراءة الموضوعية للواقع القائم أن تدرك ما يقوم بين ظاهرتين مختلفتين متزامنتين من علاقة. فقد تكون احداهما رد فعل على الأخرى أو استجابة فاعلة لما تمثله من تحد. كما تستطيع أن ترى التيارات الصاعدة والتيارات الهابطة في خضم ما يجرى من تفاعلات في المجتمع أثناء سبر أغوار أعماقه بنظرة الطير الحادة. وهى قادرة من ثم على تحديد الظاهرة التى سيكون لها الغلبة وفعل «عصا موسى».

إن دارس التاريخ متشوف المستقبل حريص على القيام بهذه القراءة الموضوعية للواقع القائم، وهو معنيٌ بالتعرف على الظواهر التى تظهر في حياة الشعوب والأمم في مراحل من تاريخها، والإشارة إلى الظاهرة التى سيكون لها الغلبة بين الظواهر، وكثيراً ما يطيب للمؤرخين أن يطلقوا اسم هذه الظاهرة على المرحلة التاريخية التى برزت فيها، فتعرف بها. وهكذا قرأنا في التاريخ عن مراحل حملت أسماء ظواهر طبعتها، مثل «الفوضى» و«الفتنة» و«الثورة» و«الارهاب» و«الانطلاق» و«التنوير» و«النهوض» و«الانتقال» إلى آخر السلسلة. وحين يطالع «دارس التاريخ» هذا صفحات تاريخ المرحلة الراهنة من حياة أمتنا العربية وشعوب دائرة حضارتنا الإسلامية يقف أمام ظاهرة «الاعتصام بالمقاومة». يراها شمساً تتألق في سماء وطننا الكبير، فتبدد ظلاماً خيّم فترة.

ويشعر بها «هواءً» يستنشقه بملئ رئتيه بعد أن عانى من وطأة اختناق. ويتمسك بها سفينة نجاة تعبر به عاصفة هوجاء إلى شاطئ السلامة.

لقد برزت ظاهرة «الاعتصام بالمقاومة» في مواجهة محاولات قوى الهيمنة الدولية «إملاء» اتفاقات «إذعان» على دولنا نسلّم لها فيها باغتصاب حقوق لنا «غير قابلة للتصرف»، إذا استخدمنا المصطلح الدولي الشائع، وتتنازل دولنا بموجبها عن أمور تتعلق بالسيادة، وتجعلنا مهددين بتسلط الصهيونية العنصرية والقارونيين الجدد من الغربيين الذين يدعمونها على مقدراتنا. وقد بلغت هذه المحاولات التى بدأت مع اتفاق كامب دافيد عام ١٩٧٨، ذروتها بعد زلزال الخليج وانعقاد مؤتمر مدريد في ١٩٩١/١٠/٣٠ لمباشرة ما سمى بعملية سلام الشرق الأوسط، في السنوات الست الماضية بين عامى ١٩٩٣ و١٩٩٩ التى شهدت ابرام اتفاقات اوسلو فلسطينياً ووادى عربة أردنياً مع الكيان الإسرائيلى.

ارتفع شعار «فلنعتصم بالمقاومة» خلال هذه السنوات الست في وقت حاولت فيه الولايات المتحدة الامريكية أن تفرض حظراً دولياً على مصطلح «المقاومة» بزعم أنها «ارهاب» وحشدت طاقاتها من أجل ذلك، ممارسة «مكارثية عالمية» تتجاوز «المكارثية الامريكية» التى اشتهرت في الخمسينات. ولكن «المقاومة» صمدت وتألقت بأبعادها كلها، روحيةً وفكريةً وثقافية واقتصادية وسياسية وعسكرية فدائية. وهكذا قامت المقاومة «الروحية» بدورها في إشعال جذوة المقاومة في روح الأمة وأرواح أبنائها، وقامت المقاومة «الفكرية» بدور خاص فى رسم طريق المقاومة. وعبّرت المقاومة الثقافية عن تمسك الأمة بثوابتها وكان الشاعر الشعبى قد نادى منذ دخلت المقاومة مرحلة جديدة في اعقاب نكسة ١٩٦٧ «حلّفتكم بالنعمة لازم تعيش المقاومة». وهكذا كان شأن الأبعاد الأخرى الاقتصادية والسياسية والعسكرية الفدائية. وما كان أعظم أثر المقاومة العسكرية الفدائية في نفوس أبناء الأمة وفى هزّ نفسية المستعمرين المستوطنين الصهاينة.

يمكن لكل واحد منا أن يتتبع قصة تَعرُّفه على ظاهرة الاعتصام بالمقاومة والتحامه بها، ويتداعى إلى خاطرى كيف جرى التعبير عن التمسك بالمقاومة في محافل العمل العام العربى الشعبى منذ بدأت قوى الهيمنة الدولية فرض السير في مسارى عملية سلام الشرق الأوسط التفاوضية، الثنائى ومتعدد الاطراف. وأذكر انطلاق

هذا الصوت في المؤتمر القومى العربى، وفي المنظمة العربية لحقوق الإنسان التى شهد اجتماع جمعيتها العمومية آخر عام ١٩٩١ تأكيداً على ممارسة حق مقاومة الاحتلال باعتباره حقاً من حقوق الإنسان كفلته المواثيق الدولية، ثم في المؤتمر القومى – الإسلامى عند قيامه في خريف عام ١٩٩٤ الذى أعلن التقاء تياري الأمة القومى والإسلامى على تبنى «المقاومة» والعمل معاً لتحقيق مشروع الأمة الحضارى. وهكذا في محافل عربية أخرى كثيرة. ولقد تكاتف في هذا العمل مفكروا الأمة وقاموا بدور خاص في التنظير للمقاومة، تماماً كما قام عدد من الممارسين بتجسيد ذلك عملياً. وتجلت في ظاهرة الاعتصام بالمقاومة حقيقة «أمة تقاوم». ولافت أن روح المقاومة بدأت تتجلى في أوساط الصعيد الرسمى الذى فرضت عليه اتفاقات الاملاء، في صور مختلفة، وفى حدود هامش التحرك المتاح.

لماذا كان دارس التاريخ متشوف المستقبل على يقين من أن ظاهرة الاعتصام بالمقاومة هى التى ستكون لها الغلبة على ظاهرة التسليم بالأمر الواقع؟

يبرز هذا السؤال عند هذا الحد من الحديث، وقد يجادل أصحاب قراءة قبول الأمر الواقع بأن عوامل كثيرة تدعو لهذا القبول في مقدمتها ما تقوم به قوى الهيمنة الدولية من ممارسة ضغوط علينا لنقبل «الحل» الذى وضعته للصراع العربى الصهيونى، ومنها أن في الإنسان نزوع إلى السلام وبخاصة إذا اشتدت معاناته من الحرب.

الجواب هو لأن «الحل» الذى تحاول قوى الهيمنة الدولية بقيادة الولايات المتحدة الامريكية فرضه هو «حل عنصرى» يمكن «للعنصرية الصهيونية» من التحكم. والعنصرية بطبيعتها تولد المقاومة، لأن الإنسان بفطرته يأبى أن يخضع للتمييز العنصرى، وينزع إلى الحرية والمساواة والعدل وصولاً للسلام الراسخ. وتاريخ الإنسانية حافل بالأمثلة على ذلك، ومن بينها ما تولد من مقاومة شعبية في أوروبا واجهت «العنصرية النازية» إبان الحرب العالمية الثانية. وقد قيل فى تعليل حدوثها إن الرسالة التى حملها النازى إلى جيرانه من الشعوب الأوروبية هى أنه الأعلى عرقياً وأن دماءه الأنقى وأنه الاقوى الذى سيحكم. وها نحن نرى اليوم امثلة متتالية على العنصرية الصهيونية، تبرز أمامنا في عملية التسوية الجارية، يجاهر بها علناً هذا الصهيونى الإسرائيلى. فحين يسعى المفاوض الفلسطينى للافراج عن المعتقلين من ابناء الشعب الذين قاوموا الاحتلال، يصر المفاوض الاسرائيلى العنصرى على التفريق بين دم يهودى ودم غير يهودى. وحين

يحاول الأول اعلان دولة تعبر عن هويته، وبأدنى حد ممكن من المتطلبات، متنازلا عن الكثير من حقوقه، يصرٌ الصهيونى العنصرى على حلً «المعازل الفلسطينية» التى تذكرنا بالبانتوستانات في جنوب أفريقيا، قبل القضاء على الحل العنصرى هناك وفوز الحل الديموقراطى. وتكشف الممارسات الإسرائيلية اليومية على عرب فلسطين ١٩٤٨ الذين فرضت عليهم الجنسية الإسرائيلية وعلى عرب فلسطين المحتلة عام ١٩٦٧، عن أبشع صور التفرقة العنصرية والتمييز العنصرى. وهذا كله كفيل باستمرار المقاومة التى واجهت العنصرية الصهيونية منذ بداية الغزوة، وبغلبة ظاهرة الاعتصام بالمقاومة اليوم.

إن القراءة الموضوعية للواقع القائم في الصراع العربى الصهيونى بالرؤية الشاملة تؤكد أن ظاهرة الاعتصام بالمقاومة سوف تقوى حتى تبلغ المقاومة هدفها. وهدف المقاومة هو الوصول باليهود الصهاينة الذين احترفوا الاستعمار الاستيطانى إلى الاقتناع بأن الصهيونية العنصرية وبال عليهم وأنها العدو الحقيقى للسلام والعقبة الكئود أمام بلوغة، ولذا فإن سبيل سلامهم وضمان أمنهم هو نبذ الصهيونية العنصرية واختيار أن يصبحوا مستأمنين، وهدف المقاومة أيضا هو الوصول بقوى الهيمنة الغربية التى أوجدت الاستعمار الاستيطانى الصهيونى ودعمته ولاتزال تدعمه إلى الاقتناع عملياً بأن مصالحها في منطقتنا ووطننا سوف تتهدد، وأن عليها أن تتحول عن استرايجية التسلط سبيلاً لتأمين مصالحها إلى استراتيجية التعامل الندي الذى يحترم حقوقنا، وأن هذا الكيان الصهيونى العنصرى بات عبئاً عليها.

في ضوء هذه القراءة، يكون استخلاص النتائج حول ما يمكن عمله في هذه المرحلة من مراحل الصراع العربى الصهيونى الممتد الذى دخل قرنه الثانى. ويكون لكل فرد في الأمة أن يحدد دوره في مقاومة الصهيونية العنصرية وتسلط قوى الهيمنة الدولية، ضمن مفهوم المقاومة الواسع بأبعادها كلها الروحية والفكرية والثقافية والسياسية والعسكرية. ويكون من حقه ومن واجبه أن يمارس هذا الدور بمنطق الفعل وإرادته. وهكذا ينجو من إحباط تسببه القراءات الناقصة، ويتألق إنساناً فاعلاً معتصماً بالمقاومة نصب عينه بلوغ السلام القائم على العدل الذى يمكن أن يستتب.

لابديل عن عودة
اللاجئين الفلسطينيين وتعويضهم

ليكن عام ٢٠٠٠ الميلادي الموافق عام ١٤٢١ الهجري عام تكثيف جهود ابناء أمتنا العربية بعامة وأبناء فلسطين منهم بخاصة للعمل من أجل حق العودة إلى فلسطين.

إن موضوع حق عودة اللاجئين الفلسطينيين وتعويضهم عن «المعاناة النفسية والاضرار المادية وجرائم الحرب» التي لحقت بهم طوال نصف قرن، مطروح اليوم بقوة بمناسبة الحديث عن مفاوضات ماسمي بالوضع النهائي في عملية التسوية الجارية حول المسائل الأربعة المؤجلة وواحدة منها مسألة اللاجئين. والثلاث الباقيات هي القدس والمستوطنات والأرض بمياهها. وقد كان أحد أسباب تأجيلها في عملية التسوية، كما نستذكر دوماً، هو رغبة مصمِّم العملية وراعيها الامريكي تمكين «اسرائيل» من فرض أمر واقع وايجاد مزيد من الحقائق على الأرض تجبر المفاوض الفلسطيني على القبول بما يبقيه العدو الاسرائيلي من «فتات».

عدة أحداث تتالت مؤخراً سلطت الأضوء على هذا الموضوع. فالعدو الاسرائيلي سارع لطرح مشروع قانون في الكنيست قدمّه العضو «يسرائيل كاتش» يرمي إلى نزع حق العودة. والولايات المتحدة الامريكية تتابع دعم العدو بالتنكر لما يقوله القانون الدولي وما قررته الشرعية الدولية في هذا الشأن، كما أوضحت الباحثة الأمريكية فيليس بينيس في تقرير لها (الاهرام ٢٠٠٠/٣/١١). وقد جاء تصريح الرئيس اللبناني العماد اميل لحود في الأسبوع الثاني من شهر مارس / آذار الحالي حول ادخال موضوع عودة اللاجئين في الاعتبار اذا اردنا للسلام أن يستتب، لأن أحداً منهم لايقبل التوطين في لبنان شأن الحكومة اللبنانية في معارضتها التوطين. وهذا يعني أن المقاومة سوف تستمر

اذا لم تتحقق العودة. كما نشرت وسائل الاعلام يوم ٢٠٠٠/٣/٤ نص العريضة الفلسطينية التي تطالب بحق عودة اللاجئين الفلسطينيين وتعويضهم، بتوقيع مائة من الشخصيات الفلسطينية. وقد أشار كل من هذه الأحداث إلى بعد في هذا الموضوع يمكن تناوله من خلاله في حديث العودة والتعويض على صعيد الفكر السياسي. ولا نغفل عن أن لحديث اللاجيء الفلسطيني وعودته وتعويضه صعيد آخر «قلبي وجداني عاطفي» لابد أن نوفيه حقه.

نبدأ بصعيد الفكر السياسي، وقد سبق أن تناولناه في بحث عن «مستقبل فلسطينيي الخارج في ظل اتفاقات اوسلو» قبل عامين وجعلناه فصلاً في كتابنا «أزمة الحل العنصري لفلسطين وسبيل تحريرها». ونتابع اليوم ما جدّ في التحرك الاسرائيلي، فنقف امام مشروع القانون الذى أشرنا اليه، وقد وقع عليه ٦١ عضواً. ونجده يتضمن ثلاثة بنود «(١) لايحق للاجئين العودة لدولة اسرائيل الا بعد موافقة ثمانين عضواً من اعضاء الكنيست. (٢) يحق لوزير الدفاع أن يدخل تعديلات بعد موافقة لجنة الخارجية والأمن التابعة للكنيست لكي يخفف من حدة هذا القانون، حيث يسمح الدخول والسكن في دولة اسرائيل في الحالات الانسانية فقط أو ألا يتجاوز عدّد الحاصلين على تصاريح دخول المائة في العام. (٣) على حكومة اسرائيل الا تضع التزامات، ولن تبرم أي اتفاق من شأنه المساس بهذا القانون». وقد تضمن المشروع تعريفاً للاجئين المقصودين «فهم الذين كانوا في الفترة الواقعة من تاريخ ١٩٤٧/١١/٢٩ وحتى سريان القانون». وأوضح الوزير في تعليقه على المشروع «أن حكومة اسرائيل بدأت في مفاوضات تمهيدية للحل النهائي مع الفلسطينيين. وسوف يطرح في المفاوضات موضوع عودة لاجئي ١٩٤٨ و١٩٦٧ حسب تعبيرهم (أي الفلسطينيين)». (نشرة العودة العدد ٧٨، ٢٠٠٠/٢).

واضح أن الهدف من هذا القانون الاسرائيلي العنصري هو تقييد أي حكومة اسرائيلية في موضوع عودة اللاجئين، وفي الوقت نفسه اعطاؤها مبرراً تتذرع به اثناء التفاوض وأمام الرأي العام الغربي الذي يقبل ما نصطلح على تسميته «الديموقراطية العنصرية». ولافت ورود تعبير «الحالات الانسانية» في البند الثاني والقانون كله غير انساني، وذلك في معرض خداع الرأي العام. ويذكرنا هذا المشروع بالموقف الاسرائيلي المبدئي الرافض لحق العودة والتعويض منذ صدور القرار الاممي رقم ١٩٤ يوم

١٩٤٨/١٢/١١ وتأكيده ١١٠ مرات، ولقرارات أخرى كثيرة. كما يذكرنا بالتفسير الاسرائيلي لبند عودة اللاجئين في قرار ٢٤٢ الصادر عن مجلس الأمن في خريف ١٩٦٧، الذي يجعله منصرفاً إلى «لاجئين يهود» ايضاً. وقد اعتمد هذا التفسير اسحق شامير في خطابه امام مؤتمر مدريد يوم ١٩٩١/١٠/٣٠، فوقع في تناقض حادٍ حين اعتبر اليهود العرب الذين هجرتهم الصهيونية من الأقطار العربية لاجئين بينما هم في المنطق الصهيوني مواطنون...

ونتابع آخر أخبار الموقف الامريكي من موضوع اللاجئين، لأنه المسؤول عن الموقف الاسرائيلي بما يقدمه له من دعم، فلا نجد أبلغ مما اشارت اليه الباحثة فيليس بينيس التي تعمل في معهد الدراسات السياسية الامريكي في دراسة نشرتها لوموند ديبلوماتيك، وقالت فيها «ان واشنطن تريد الانفراد بتحديد معايير الحياة الدولية، وترفض التوقيع على اتفاقات ومعاهدات دولية تهم الانسان في كل مكان. وهي لاتساعد الدول الصغيرة الا بمعاييرها، وتتقاعس عن دعم الأمم المتحدة ومساعدتها بما يمكّنها من القيام بدورها. وهي تحوّل حلف الاطلسي الى اداة عسكرية في خدمتها». وساقت الباحثة الامريكية امثلة كثيرة في موضوعات حيوية منها نزع السلاح النووي، والمحكمة الجنائية الدولية، وحظر الالغام المضادة للافراد، والملف الاسرائيلي – الفلسطيني الذي وصفته بأنه «يمثّل نموذجاً وافياً لفرض الولايات المتحدة تفسيرها الخاص للقانون الدولي على الجميع. فقد ضربت عرض الحائط بالقرار ١٩٤ لعام ١٩٤٩ بحق اللاجئين بالعودة والتعويض، وقبل ذلك بالقرار ١٨١ لعام ١٩٤٧ القاضي بتقسيم فلسطين الى دولتين». ولاتزال واشنطن تحاول تفعيل المفاوضات المتعددة الأطراف في عملية التسوية ودعوة لجنة اللاجئين فيها التي تقتصر في بحثها على تحسين معيشتهم حيث هم، أي توطينهم، ولاتبحث في عودتهم وتعويضهم. وهي في الوقت نفسه ترمي بثقلها لإنهاء مفاوضات الوضع النهائي بشأن موضوع اللاجئين مؤيدة المخطط الاسرائيلي الرامي لمنع عودتهم.

ونُتابع جديداً ظهر في البُعْد العربي لموضوع اللاجئين، هو ماصرّح به الرئيس اللبناني أميل لحود يوم ٢٠٠٠/٣/٨ تعليقاً على ما أعلنته حكومة باراك الاسرائيلية عن انسحاب من جنوب لبنان من جانب واحد حيث قال «إن انسحاب اسرائيل من جانب واحد لن يحل سوى نصف المشكلة. وسيبقى النصف الآخر والمهم دون حل، وهو

عودة اللاجئين الفلسطينيين الى ديارهم التي أرغمتهم اسرائيل على الرحيل منها عامي ١٩٤٨ و١٩٦٧. وإنه يتعين على اسرائيل الانسحاب من مرتفعات الجولان السورية المحتلة وحل مشكلة اللاجئين الفلسطينيين اذا كانت تريد ضمان أمن حدودها الشمالية». وكان قد مهّد لهذا التصريح بالغ الأهمية بالقول «إن لبنان غير مستعد - اكراماً لأمن اسرائيل - العودة لحرب مخيمات جديدة،.. ولحروب يومية صغيرة عند حدوده.. ولأن يعود الى اجواء السبعينيات. ولبنان غير مستعد ضماناً لراحة اسرائيل لأن يقوم بالدور نفسه الذي عجزت عنه اسرائيل منذ اجتياحها للبنان عام ١٩٨٢ وحتى انسحابها المتوقع».

نعم هذا تصريح يصدر عن رئيس دولة مضيفة هي لبنان، يسلط الضوء على البُعد العربي لموضوعِ اللاجئينِ، ويطرحه من وجهة نظر عربية حرة غير خاضعة لضغط قوى الهيمنة ولا يقيدها اتفاق مملى. ولذا فهو يجعل عودة اللاجئين والانسحاب من الجولان شرطين مكتملين للانسحاب الاسرائيلي من جنوب لبنان اذا ارادت اسرائيل ضمان أمن حدودها الشمالية. وكان رئيس الوزراء الدكتور سليم الحص قد تناول موضوع العودة في خطابه في افتتاح الدورة الثالثة للمؤتمر القومي - الاسلامي يوم ٢٠٠٠/١/٢٠. وهو ما نعرض له في حديث آخر. وهكذا نجد انفسنا امام موقف لبناني رسمي بشأن موضوع اللاجئين واضح جلي وضع الأمر في نصابه. وقد تساءل إعلامي مخضرم عما اذا كان هذا التصريح سوف يعقّد المفاوضات حول الموضوع على المسار الاسرائيلي - الفلسطيني، وانتهى بعد حوار وتفكّر الى أنه ينبّه كلاً من الولايات المتحدة الامريكية واسرائيل إلى الاساس الصحيح لمعالجة موضوع اللاجئين وهو العودة والتعويض، وماعدا ذلك لن يكون سلاماً وانما «سراب بقيعة».

نصل الى صدور العريضة الفلسطينية المطالبة بحق العودة للاجئين الفلسطينيين وبتعويضهم يوم ٢٠٠٠/٣/٥، فنجد أننا أمام نص موجز مركز مكتوب بعناية يتألف من ثلاثة أجزاء. الأول منها مقدمة تتضمن عرض الموضوع. فالفلسطينيون الموقعون أدناه يعرضون كيف تم طرد شعبهم الفلسطيني من دياره عام ١٩٤٨ على يد القوات العسكرية الصهيونية والاسرائيلية، وأجبر على النزوح من ٥٣١ قرية ومدينة وصادرت اسرائيل اراضيه التي تبلغ ٩٢٪ من مساحتها الحالية، وكيف تعرض هذا الشعب الفلسطيني العربي خلال ٥١ عاماً من التشريد إلى ويلات الحرب والاضطهاد وانكار

الهوية الوطنية والتمييز العنصري والتنظيف العرقي، وعانى نفسياً ومادياً، وكان ضحية لعملية منظمة مدعومة من الخارج لاقتلاعه من وطنه واستبداله بمهاجرين جدد من انحاء العالم. وهو لايزال يمثل اكبر عدد من اللاجئين والمهجرين في العالم واقدمهم في الشتات، إذ يبلغ عددهم حوالي خمسة ملايين تمثل ثلثي الشعب الفلسطيني بأكمله.

الجزء الثاني من الوثيقة العريضة يتضمن اثبات واقع مُر هو أن هذا الشعب لم يتمكن حتى الآن من ممارسة حقه الطبيعي في العودة الى وطنه وتعويضه عن خسائره رغم الاجماع الدولي المنقطع النظير والمتمثل في مئات القرارات الصادرة عن هيئة الأمم المتحدة والمجتمع الدولي. وينطلق من ذلك الى التأكيد على حق العودة والتعويض مبيناً أن حق اللاجئين والمهجرين الفلسطينيين في العودة الى ديارهم حق أساسي من حقوق الانسان أكده الميثاق العالمي لحقوق الانسان ومواثيق دولية أخرى، وأن هذا الحق غير قابل للتصرف ولا يسقط بمرور الزمن اكدته الأمم المتحدة في قرارها رقم ١٩٤ لعام ١٩٤٨ وأعادت تأكيده مرات، وأن هذا الحق نابع من حرمة الملكية الخاصة وعدم زوالها بالاحتلال أو السيادة التي استند اليها اليهود الأوروبيون في استعادة املاكهم المصادرة اثناء الحرب العالمية الثانية، وأن هذا الحق حق شخصي في اصله لاتجوز فيه النيابة أو التمثيل عنه أو التنازل لأي سبب في أى اتفاق أو معاهدة. كما أنه لايتأثر بإقامة دولة فلسطينية بأي شكل.

الجزء الأخير من العريضة يعلن بموجب ما سبق عدم القبول بكل ما يتمخض عن أى مفاوضات ويتنازل عن أي جزء من حق اللاجئين والمهجرين والنازحين بالعودة الى أراضيهم واملاكهم التي طردوا منها منذ عام ١٩٤٨، ولايقبل الموقعون التعويض بديلاً عن حق العودة. ويطالبون بالتعويض المناسب عن المعاناة النفسية والاضرار المادية وجرائم الحرب التى لحقت باللاجئين خلال ٥١ عاماً استناداً الى قرارات الأمم المتحدة والسوابق القانونية. ويتوجهون الى المدافعين عن حقوق الانسان والمواطنين والمجتمع الدولي وهيئة الأمم المتحدة وحكومات العالم، خصوصاً تلك الدول التي كان لها دور في المأساة الفلسطينية أن يدعموا بكل الوسائل الممكنة حق الفلسطينيين في العودة إلى ديارهم بالاضافة إلى التعويض. وهذا هو سبيل الوصول الى السلام العادل والشامل.

نقف أمام توقيت صدور هذه العريضة، فنجد أنه جاء في وقت ستتناول

المفاوضات على المسار الفلسطيني - الاسرائيلي هذا الموضوع، وستواجه فيه السلطة الفلسطينية بمخطط اسرائيلي ينكر الحق وموقف امريكي داعم له. وقد شرحنا هذا المخطط بالتفصيل في بحثنا الذي أشرنا اليه. ومن هنا أهمية طرح الموضوع من وجهة نظر الشعب الفلسطيني المتمسك بحقه في العودة والتعويض. كما نقف أمام كون الموقعين على العريضة يقيمون في مختلف اماكن تجمع ابناء فلسطين داخل الوطن المحتل وخارجه، مؤكدين وحدة شعبهم ومعبرين عن تمسك كل فلسطيني اينما كان بحقه في العودة والتعويض.

إن تزامن هذا التحرك الفلسطيني مع تصريح الرئيس اللبناني حول موضوع اللاجئين، عبر بصدق عن تكامل البعد الفلسطيني مع البعد العربي لهذا الموضوع. وهو تكامل يجب الحرص عليه لبلوغ هدفنا في ممارسة حق العودة والتعويض. ويبقى أن تتتالى المواقف التي تنتمي الى منطق الفعل في هذا العام الذي نريده ان يكون عام تكثيف جهود امتنا العربية على الصعيدين الشعبي والرسمي للعمل من أجل تحقيق العودة والتعويض.

عودة اللاجئين وحديث القلب والوجدان والعاطفة

نعم .. إن لحديث عودة اللاجئين الفلسطينيين إلى وطنهم وتعويضهم عما عانوه بعداً «قلبياً وجدانياً عاطفياً» يكمل بعد الفكر السياسي الذي تناولناه في مقال «لابديل عن عودة اللاجئين وتعويضهم» وقد عشت مع هذا البعد حين دعاني أخي الاستاذ حمدي قنديل الاعلامي المرموق في ٢٠٠٠/٣ للتحدث عن موضوع العودة في برنامجه التلفزي «رئيس التحرير». وآثرت أن أخصص جلّ الوقت المحدد لعرض بعد الفكر السياسي، وكان دقائق عشراً، وأمضيت مع البعد القلبي الوجداني العاطفي ساعات ثارت خلالها الشجون. وهذا هو حال كل واحد من أبناء فلسطين اللاجئين الذين حرموا من العودة إلى ديارهم. ووعدت نفسي من ثم أن أروي حديث هذا البعد لدى شيخ يوشك أن يتم الرابعة والستين، مثلاً من امثلة كثيرة، فلكل لاجيء حديثه.

أول ما خطر على بال الشيخ يوم أن أخرجه العدو الصهيوني مع أهله من ديارهم، فغادروا في عتمة الليل مدينتهم يافا بحراً. وهو يذكر كيف نظر الصبي ابن الثانية عشرة الى الساحل والقارب يبتعد عنه تدريجياً، وظنّه أنه سوف يعود بعد أيام الى داره. وحين تتالت الأيام ثلاثة شهور كان فيها يتابع الأخبار في المذياع ويسمع حديث الكبار عن تطورات الأحداث أدرك أن العودة أصبحت هدفاً يجب العمل لتحقيقه. وكم تأثر حين قرأ في مفكرة أخيه الكبير قسماً بأن يافا وكل فلسطين ستبقى ماثلة في القلب والعقل حتى نعود، وكرّر الصبي بدوره هذا القسم. وعاهد نفسه على العمل لتحرير الوطن.

خطر على بال الشيخ كيف عني الصبي بحفظ الآيات الكريمة التي تحث على الجهاد دفاعاً عن الأرض والمال والعرض، ومثلها الأحاديث الشريفة. وكم استوقفته آيتا سورة الممتحنة «لاينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ويخرجوكم من

ديارکم..» «انما ينهاكم الله عن الذين قاتلوكم في الدين واخرجوكم من دياركم وظاهروا على إخراجكم أن تولوهم..» وما اكثر ما تأمّل معنى «الاخراج من الديار» وهو يعيش مع ابناء وطنه مرارته يتجرع كأسها يومياً.

أقبل الصبي على حفظ القصائد التي تتناول الوطن والعودة. وكم ردد «أغنية فلسطين» من شعر علي محمود طه التي لحنها وغناها محمد عبد الوهاب.. أخي جاوز الظالمون المدى / فحق الجهاد وحق الفدا، وفيها قوله «فلسطين تحميك منّا الصدور / فإما حياة وإما ردى». كما أقبل الصبي على قراءة شعر النكبة، وأوله عنده قصيدة عمر ابو ريشة «أمتي»، ومنه قصيدة فدوى طوقان في ديوانها الأول «وحدي مع الأيام» «مع لاجئة في العيد». وتابع الصبي حين تفتح فتى شاباً عنايته بالغناء الوطني. وكم شدته قصيدة للشاعر هارون هاشم رشيد لحنها الاخوان رحباني وغنتها فيروز اوائل الخمسينات «اتت ليلى لوالدها..» وفيها ذكر يافا، وآخرها «سنرجعه، سنرجعه، سنرجع ذلك الوطنا، ولن نرضى له بدلاً، ولن نرضى به ثمناً.. فصبراً يا ابنتي صبرا، غداة غدٍ لنا النصر». وهي من روائع الانشاد، ويلاحظ الشيخ بأسف أنه لم يسمعها تتردد في الاذاعات منذ فترة. وشدته ايضاً قصيدة «راجعون» للاخوين رحباني وفيروز. وكان الفتى كلما ردد هذين اللحنين تمثل ربوع بلاده وقوي عزمه على العمل للعودة اليها. كما كان كلما اشتاق الى تلك الربوع ردد اللحنين.

وأقبل الفتى على اقتناء دواوين الشعر التي تضم قصائد الحنين، ومنها ديوان سلمى الخضراء الجيوسي «العودة من النبع الحالم» وفيه قصيدة تصور النكبة كان يعاود قراءتها. كما شارك اخويه اللذين يكبرانه اعجابهما بشعر محمد مهدي الجواهري وبخاصة قصيدته «أخي جعفر» وفيها قوله عن الشهيد وجراحه، وفيها نداؤه المجلجل «تقحّم..» وكم شدّه شعر الحنين الى الوطن عند أمير الشعراء أحمد شوقي، ومنه قوله «هب جنةَ الخلد عدن / لاشيء يعدل الوطن». وما كان أسعد الشاب حين اهداه زميل له في الدراسة العليا نسخة من رسالته «الحنين إلى الوطن» في الشعر العربي. وهكذا فعل الشعر ومعه الموسيقى والغناء فعلهم في انضاج مشاعر الشاب تجاه «العودة إلى الديار».

يتداعى إلى خاطر الشيخ كيف تعود الشاب الذي كان حين بدأ يحاضر ويكتب عن قضية فلسطين أن يولي حديث القلب والوجدان والعاطفة حقه. فكان مع حرصه على العقلانية الموضوعية في محاضراته وكتاباته حريصاً على أن يقترن بها ذلك

الحديث. وقد خصص زاوية في صفحة فلسطين الاسبوعية التى أشرف عليها في جريدة يومية بطرابلس الغرب للنجوى والتعبير عن المشاعر. وهكذا حفلت بقصائد ابراهيم طوقان وأبي سلمى وعمر ابو ريشة وغيرهم من الذين أنشدوا لفلسطين. وهو يذكر كيف نجحت مجموعة الشباب الذين شاركوا في التوعية بالقضية في أن تجعل يوم الخامس عشر من أيار / مايو مناسبة لوقفة في ذكرى النكبة. وكم كان وقع استهلال أول حفل اقاموه عام ١٩٦٠ بنشيد «عائدون» مؤثراً، وذلك حين انشده أطفال من ابناء فلسطين ولدوا خارج وطنهم وقد تردد صوت انشادهم «عائدون عائدون اننا لعائدون / فالحدود لن تكون والقلاع والحصون / فاصرخوا يا نازحون اننا لعائدون».

لقد أجاب ذلك المشهد عن تساؤل كان يتردد لدى البعض «هل سيذكر الجيل الفلسطيني الجديد الذي ولد لاجئاً وطنه فلسطين وهو الذي لم ير ربوعها، وليس له ذكريات فيها؟» ويتداعى الى خاطر الشيخ مشهد آخر لاينساه رآه في القاهرة قبل عقدين من السنين حين أنشد أطفال من أبناء مصر في حفل اقامه اتحاد المرأة الفلسطينية بمناسبة ذكرى النكبة ما قاله فؤاد حداد ولحنه سيد مكاوي «ولاف قلبي ولا عنيّه الا فلسطين / انا العطشان ماليش ميّه الا فلسطين». ويومها رأى الاجابة عن تساؤل مماثل حول الجيل العربي الجديد الذي سيذكر هو الآخر فلسطين شأن اقرانه من ابناء فلسطين. ويذكر الشيخ كيف حدث حين ثار التساؤل الأول أمامه وهو شاب لم يتزوج بعد أن زار مع والديه جيراناً كراماً، فرأى الأب الفلسطيني الشاب والأم الفلسطينية الشابه فخوران بابنهما الطفل الذي بدأ الكلام لأنه أصبح يقول رداً على سؤال «من اين أنت؟» «أنا من فلسطين» ثم يذكر اسم بلد أبيه، ثم يقول «أنا سوف احارب اليهودي الذي أخذ بيتنا». ويومها ادرك الشاب أن التربية سوف تفعل فعلها فلسطينياً وعربياً.

حين أصبح هو أباً بعد أن تزوج كان حريصاً هو وزوجه شأن كل اقرانهما على تربية الابناء على الانتماء لفلسطين والوطن العربي الكبير ودائرة الحضارة الاسلامية في هوية وطنية عربية مؤمنة. وما كان أروع ثمار هذه التربية على صعيد تفتح جيل جديد على وعي قضية فلسطين ومتابعته الجهاد والنضال في الصراع العربي الصهيوني الممتد، ومن تلك الثمار أبطال حرب رمضان ١٩٧٣ ومرحلة أخرى من مراحل النضال الفلسطيني. وها هو اليوم وقد أضحى جداً تغمره الغبطة وهو يرى تربية ابنائه لأحفاده التي تعنى بالهوية وبدوائر الانتماء وتركز على الارتباط بالوطن المحتل وعلى العمل

لتحريره. وهكذا يترعرع جيل ثالث من ابناء فلسطين والعروبة يضع نصب العين تحرير فلسطين والقدس. ولافت أن تراكماً ايجابياً حدث على صعيد بعد القلب والوجدان والعاطفة، ومثل عليه ما تحقق في مجال الانشاد. فإذا كان الجيل الأول ردد نشيد «موطني» لابراهيم طوقان وأغاني الاربعينات والخمسينات عن فلسطين والوحدة والتحرير، فإن الجيل الثاني ردد هذه جميعها ومعها روائع الستينات التي منها أعمال الاخوين رحباني وفيروز المتميزة «اجراس العودة فلتقرع»، و«جسر العودة» و«خذوني الى بيسان» ومريت بشوارع القدس العتيقة، و«زهرة المدائن» وغيرها، مع أعمال أخرى متميزة يضيق المجال عن ذكرها. وها هو الجيل الثالث يحفظ هذا التراث ويضيف اليه ما يستجد.

هذا التراكم الايجابي يتجلى في احاديث الجدات والاجداد للاحفاد، وما اعظم دور هذه الأحاديث في التربية. وما اكثر القصص التي سمعناها عن فتيان وفتيات تأثروا بها فعملوا من اجل تحرير الوطن.

مجمل القول إن العمل لعودة اللاجئين وتعويضهم يتطلب استمرار العناية بحديث القلب والوجدان والعاطفة على مستوى الأمة بعامة واللاجئين بخاصة. وتبرز في هذا الحديث أهمية الرمز. وقد حدث حين دعاني أخي الأستاذ حمدي قنديل لبرنامجه التلفزي الذي أشرت اليه في مطلع هذا الحديث أنني عنيت وانا أحضر له بالتفكر في «رمز» اطرحه. واستقر رأيي على «المفتاح» مستذكراً عشرات القصص التي سمعناها منذ نكبة ١٩٤٨ عن المفاتيح التي حملها أهلونا معهم حين اخرجوا من ديارهم واحتفاظهم بها. وقد عمدت الى شراء «مفتاح» شبيه بمفتاح بيتنا في يافا وعلقته في مدخل البيت الذي نعيش فيه اليوم بالقاهرة. وحرصت في ختام الحديث التلفزي على أن أخرجه من جيبي وأعرضه على المشاهدين وأنا اقول «وسيبقى هذا المفتاح «الرمز» معنا حتى يأتي اليوم الذي نعود فيه الى بيتنا في يافا». ولفتني عدد التعليقات التي وصلتني من المشاهدين، وكان كبيراً. وأسعدني. أن أعلم وأنا أحاضر في بيروت في ذكرى النكبة أن الأخت الكريمة المناضلة سميرة خوري استخدمت الرمز نفسه «المفتاح» في مقابلة مع تلفزيون «المنار».

إن فكرة «الرمز» قديمة قدم التاريخ الانساني والحضارة الانسانية. ومن ابرز امثلتها في تراثنا بعض شعائر الحج مثل الطواف والسعي بين الصفا والمروة ورمي الجمار في

منى رجماً للشيطان. وكذلك كربلاء بكل ما تعنيه من التمسك بالحق. وقد استوقفني مثل سمعته من استاذي د.عبد الكريم غرايبة الحجة في تاريخ العرب الحديث، حدث في تاريخ المغرب الأقصى. وهو أن احد سلاطين السعديين استعان بملك البرتغال في نزاع أسري الذي اشترط عليه تسليمه ميناء العرائش «بدون سكانها» ثمناً للمساعدة وذلك عام ١٦١٠م. وحين نفذ ذلك السلطان هذا الشرط الفظيع حاول نيل فتوى من العلماء والفقهاء لتبرير عمله، ولكنهم أبوا الا واحداً. واشتدت معارضتهم له واعلنوا حزنهم العام المستمر على العرائش الى أن يتم تحريرها. واستجاب الناس ولبسوا «سباطاً اسوداً» بدلاً من «الأصفر» المعتاد «رمزاً» لحزنهم وعزمهم على تحرير العرائش. وحين تم تحريرها بعد ثمانين سنة هجرية نشر المولى اسماعيل العلوي محرر العرائش وطنجة بياناً وزعه على مدن السلطنة حتى تمكنوا دعا فيه الى «العودة الى لبس السباط الأصفر من جديد. وأشار البيان الى أن «الناس اتخذوا النعال السود منذ استولى العدو على العرائش على يد المأمون السعدي». وتلقى المولى اسماعيل التهاني بتحرير العرائش، ومنها تهنئة أول شيخ للأزهر الشريف. (رسالة نوازل التاريخ والمستقبل لعبد الكريم غرايبة).

لقد استقر يوم الخامس عشر من أيار – مايو في ذاكرة الأمة «رمزاً» لنكبة فلسطين عام ١٩٤٨ ولعزم شعبها والأمة جمعاء على تحريرها. ولم تنجح محاولات جرت لمحوه منها. وإن لنا أن نتوافق على «رمز» يعبر عن تصميم كل لاجيء فلسطيني على العودة، فإذا كان «المفتاح» رمزاً مناسباً فيمكن طرح اقتراحه على مؤتمرات عامة تتبناه. ويبقى أن تطرح اقتراحات لرمز مناسب يشير إلى ارتباط ابناء الأمة العربية جميعاً بفلسطين والقدس.

إن حديث القلب والوجدان والعاطفة كي يأخذ عمقه يتطلب أن يتعزز بالبحث العلمي المتصل الذي يتناول كل مدن فلسطين وقراها ونجوعها وعائلاتها وعشائرها وقبائلها وصفحات تاريخها وذكريات ابنائها. وقد بدأت جهود مباركة على هذا الصعيد منها ما قامت به جامعة بيرزيت وبقية جامعات الوطن المحتل، وما قام به اخونا د.سلمان ابو ستة، وما يقوم به مركز العودة الفلسطيني. وهي تستحق ان تتابع ولها حديثها.

مراجعة تستهدف رؤية صحيحة للصراع العربي الصهيوني

أحداث كثيرة تتصل بالصراع العربي الصهيوني تنقل اخبارها وكالات الأنباء. وتتباين هذه الأحداث في اتجاهها نحو هدف استرجاع الحق الفلسطيني. فمنها ما هو سلبي يمس الحق وينذر بسلبه، ومنها ما هو ايجابي يقع في نطاق النضال لاسترداد الحق. كما تتباين هذه الأحداث في قوة تأثيرها سلباً أو ايجاباً، فمنها ما هو ضعيف التأثير ومنها ما هو قوي التأثير. وتبعاً لذلك تختلف الأخبار عن هذه الأحداث التي تنقلها وكالات الانباء، فمنها ما هو غثٌ ومنها ما هو سمين. وكثير هو الغث الذي يحاول الاعلام المعادي تصويره على أنه سمين زاعماً «أن الورم شحم» على حد تعبير أبي الطيب المتنبي في بيت شعر مشهور.

تبرز من خلال هذه الأحداث وأخبارها ظواهر تلفت نظر مؤرخ الصراع ومتشوف مستقبله، فيقف أمامها متمعناً فيها وباحثاً عن تداعياتها. ومن بين هذه الظواهر التي برزت في المرحلة الراهنة مع دخول عملية التسوية الجارية عامها التاسع، ظاهرة عناية جمهور الأمة بمراجعة رؤيتها للطرف الصهيوني في هذا الصراع في ضوء ممارساته اثناء عملية التسوية، ولحقيقة توجهاته نحو السلام، ولمفهومه للسلام، ولعلاقته بقوى الهيمنة الدولية والدور الذي يقوم به في مخططاتها تجاه وطننا العربي، ولما يستهدفه وإياها من عمليتها التي صممتها ورعتها وأعطتها اسم «عملية سلام الشرق الأوسط»، وأخيراً لطبيعة هذا الصراع في ضوء ماسبق بغية بلورة ما ينبغي عمله عربياً للانتصار فيه.

هذه المراجعة نراها في أوساط المشاركين في عملية التسوية الجارية من السياسيين والفنيين. ونراها في محافل المفكرين وأهل القلم بعامة. ونراها في نظرات أبناء الأمة وتعليقاتهم وهم يتابعون الأخبار والأحداث.

أهمية ظاهرة المراجعة هذه نابعة من كونها السبيل لتوفير رؤية صحيحة للصراع تشحذ ارادة الفعل في الأمة، وتخرج كثيرين من ابنائها من حيرة وتوزع ناجمين عن رؤية ملتبسة لديهم، وتنتقل بالمناخ المحيط بهم من الإحباط إلى العزم. والحق أن الحاجة إلى الرؤية الصحيحة ألحت بعد أن أوجدت عملية التسوية منذ بدأت رؤية أخرى لدى من راهن على نجاحها، وما أسرع ما حكم الالتباس هذه الرؤية مع تعثر عملية التسوية وظهور زيف اكثر ما وعدت به. وبلوغاً لهدف توفير الرؤية الصحيحة نرى أبناء الأمة يعلنون آراءهم بأساليب مختلفة حول ما يجري في دائرة الصراع العربي الصهيوني، ونرى أهل القلم يشحذون أفكارهم وعقولهم، ونرى السياسيين والفنيين يبحثون وينظرون. وتنعقد المؤتمرات والندوات لتحقيق التفاعل بين ذلك كله وصولاً لبلورة الرؤية الصحيحة.

واحد من هذه المؤتمرات، هو المؤتمر القومي - الاسلامي، شهد في انعقاد دورته الثالثة بين يومي ٢١ و٢٠٠٠/١/٢٣، ١٤-١٦ شوال ١٤٢٠ بذل جهد مكثف لبلورة الرؤية الصحيحة للصراع في مرحلته الراهنة. وحفل بما يستحق أن نقف أمامه ونحن تنظر في ما ينبغي عمله لبلوغ اهدافنا واستعادة حقوقنا.

كان شعار الدورة «وحدة الأمة دفاعاً عن القدس والأراضي العربية المحتلة». وقد كان التقاء اعضاء المؤتمر من التيارين القومي والاسلامي أحد تجليات هذه الوحدة. كما كانت مشاركة الرئيس سليم الحص رئيس وزراء لبنان والسيد حسن نصر الله أمين عام حزب الله في افتتاح المؤتمر تعبيراً عن امكان تلاقي المستويين الرسمي والشعبي على هدف الدفاع عن القدس والأرض، ودعوة إلى تكامل المستويين في المعركة التي تخوضها الأمة. فالعمل السياسي والدبلوماسي يستند إلى المقاومة ويسندها. والمقاومة تكتمل بالعمل السياسي والدبلوماسي.

اذكر أنني حين شرفت برئاسة جلسة افتتاح المؤتمر، حرصت على أن أضع هدف بلورة الرؤية الصحيحة الواضحة الثاقبة، هدفاً رئيساً يضعه المؤتمرون نصب الأعين وهم عازمون على تحقيقه. وأشرت إلى مناخ الاحباط الذي يخيم على كثيرين بفعل التباس الرؤية لديهم. وطالبت بالقيام بقراءة دقيقة لحال الأمة في ضوء الورقة التي وفرتها لجنة متابعة المؤتمر. وأوضحت أن الرؤية الصحيحة تنطلق من استحضار ثوابت الأمة، وتأخذ في الحسبان حقائق الواقع. وتضع في الاعتبار ارادة الفعل لدى الأمة وقدرتها

على الثبات في المواجهة وخوض صراع النفس الطويل. وسألت الله أن نقول القول السديد كي يصلح اعمالنا ويغفر ذنوبنا.

استمع المؤتمرون بامعان إلى الرئيس سليم الحص، وهو يتحدث بحديث المسؤول المنتمي لأمته واضعاً نقاطاً على حروف، مبيناً أن محادثات التسوية الشاملة مع اسرائيل جارية، وطارحاً ملاحظات حول الموقف اللبناني الرسمي. «فنحن نتحدث – على حد قوله – عن التسوية الشاملة وليس عن السلام. ذلك لأن التسوية لن تكون في حجم السلام الحقيقي ما لم تقترن بالاستقرار. ولن يكون استقرار حقيقي في المنطقة الا بحل عادل لقضية اللاجئين الفلسطينيين انطلاقاً من حقهم في العودة إلى ديارهم، وبحلٍ عادل لقضية القدس يعيد إليها عروبتها. كلتا القضيتين تبقى بمثابة القنبلة الموقوتة اقليمياً اذا لم توفر التسوية حلاً عادلاً لها. هذا ناهيك بحق الفلسطيني في اقامة دولته على أرضه».

اذكر أنني قلت في نفْسي وانا أتابع هذا القول «هذا طرح واضح للبعد العربي الرسمي في قضية عودة اللاجئين وتعويضهم. ولعلها المرة الأولى التي يتم فيها ذلك». ومضى الرئيس الحص في شرحه كيف أن حق اللاجئين في العودة مكرس في الشريعة الدولية لحقوق الإنسان، وكيف ان القرار ١٩٤ أكده. وكيف أن مفهومنا له «أن التعويض ليس بديلاً عن العودة» في نصه «وانما هو حق لكل من يعود إلى أرض فلسطين ولايستطيع العودة إلى مسقط رأسه مكان ولادته». وهكذا «فإن العودة إلى أرض فلسطين حق مطلق لكل لاجيء فلسطيني. أما التعويض فشرط مكمل» وانطلاقاً من هذا المنطق يرفض لبنان مبدأ التوطين.

كشف الرئيس الحص في خطابه الموجز في افتتاح المؤتمر القومي – الاسلامي محاولة عملية التسوية الالتفاف على حق العودة والتعويض بهدف إنكاره فقال «كثيراً ما يأتينا الجواب عندما نتحدث مع مسؤولين غربيين عن حق العودة إن مسألة اللاجئين هي من اختصاص لجنة اللاجئين التي ترأسها كندا في اطار المحادثات متعددة الأطراف. وجوابنا على هذه المقولة أن من يراجع المهام الموكولة إلى هذه اللجنة لايجد مهمة العمل على تأمين عودة اللاجئين إلى ديارهم، بل تقتصر مهامها على التخفيف من معاناتهم حيث يقيمون اليوم.. ويقال لنا من جهة ثانية إن مسألة اللاجئين هي من المسائل التي سوف تبحث بين السلطة الفلسطينية واسرائيل في محادثات الوضع

النهائي. وجوابنا على هذه المقولة إننا نحن اللبنانيين، كما سائر الدول العربية المضيفة للاجئين، معنيون ايضاً مباشرة بهذه القضية، ولايجوز أن يأتي الحل لها من دون الاستماع الينا، وأخذ موقفنا بعين الاعتبار».

لقد بدا للمؤتمرين وضوح هذه الرؤية الصحيحة لموضوع «عودة اللاجئين وتعويضهم» عند رئيس الحكومة اللبنانية. وأسعدهم أن يسمعوا منه قوله «نحن نشعر بالقوة في التفاوض مع اسرائيل» ويشرح أسباب ذلك، وقوله «ان قضية فلسطين كانت ومازال قضية العرب المركزية» في سياق حديثه عن الاهتمام بما يتم على المسار الفلسطيني، ثم قوله في الختام «حتى لو جاءت التسوية في حجم السلام. فإن السلام لايعني نهاية الصراع. فتحديات السلم ستكون اخطر من تحديات الحرب.. وهناك طريق واحد لمواجهة هذه التحديات هي رص الصفوف والعودة إلى التضامن العربي من بابه الواسع، أي من باب إنشاء تكتل عربي جامع».

اذكر أنني في تقديمي للسيد حسن نصر الله أمين حزب الله أشرت إلى تكامل المستويين الرسمي والشعبي. كما أوضحت أن السيد يتحدث باسم المقاومة كلها آخذاً في الاعتبار مشاركة اعضاء في المؤتمر من جميع الفصائل المقاومة. وتطلعت إلى سماعنا ما تطرحه المقاومة بشأن الرؤية الصحيحة للصراع. وما أسرع أن عشنا معها. وقد استهل السيد حديثه بعد الحمدلة والصلصلة بالاشارة إلى حساسية المرحلة وتطلع الأمة إلى ما ينتهي اليه المؤتمر للخروج من «فتنة عمياء يهرم فيها الكبير ويشيب فيها الصغير ويكدح فيها مؤمن»، وأوضح أن أشد ما نحتاجه في هذه المرحلة اليقين الذي توفره الرؤية الصحيحة والمعرفة الشاملة، والعزم والارادة، وروح التضحية والاستعداد للبذل.

عرض السيد حسن نصر الله وهو يتحدث باسم المقاومة للتطورات الأخيرة «فيما يسمى بعملية التسوية»، وقرر أنه أياً تكن نتيجة المفاوضات فالسبب الجوهري للصراع قائم ونحن جميعاً أمام تحديين كبيرين، أولهما هو المشروع الصهيوني للهيمنة والسيطرة على المنطقة بكاملها.. والثاني هو استمرار احتلال فلسطين. وقد بيّن أن *الاستجابة للتحدي الأول هي بمقاومة التطبيع بكل الوسائل المشروعة والمتاحة. فهذا* هو خط دفاع الأمة الأساسي نقف فيه جميعاً اسلاميين وقوميين ووطنيين. أما الاستجابة للتحدي الثاني وهو الأخطر فتكون بالتمسك بهدف استعادة فلسطين، وبالتأكيد على أن قضية فلسطين قضية عربية اسلامية. ومن هنا «يجب أن تتحمل الأمة

كلها مسؤولية تحرير فلسطين .. ويجب أن ندرس آفاق وإمكانات هذه المسؤولية»، في ضوء أن «قدر الشعب الفلسطيني هو الجهاد والمقاومة»، وأن «العمل الجهادي داخل فلسطين وبامكانيات متواضعة وبروح استشهادية عالية قادر على الحاق الهزيمة باسرائيل بل واخراجها من المنطقة».

حرص السيد أن يشرح أثر هذا العمل الجهادي على «قطعان المستوطنين». فهو «قادر مع الزمن أن يضعهم امام مصير واحد هو وجوب العودة إلى الأوطان التي جاءوا منها. وسيكتشف المستوطنون الروس ان صقيع روسيا أفضل. وسيفهم التجار اليهود الكبار من امريكا وأوروبا أن فلسطين ليست ارضاً للبيع والشراء، وليست ممراً آمناً للسيطرة على كل المنطقة والأمة». وأوضح قائلاً «صدقوني ايها السادة ان اسرائيل من الداخل هي أوهن من بيت العنكبوت» وضرب امثلة من واقع ما يجري في جنوب لبنان. وختم بأنه اذا كانت المقاومة في فلسطين مسؤولية شعب فلسطين، «فإن الأمة مسؤولة أن تقدم كل اشكال الدعم للفصائل الفلسطينية الجهادية بالمال والاعلام والتأييد والمساندة والحماية وغير ذلك».

وتضمن افتتاح المؤتمر كلمه لمنسقه العام الأخ د.محمد عبد الملك المتوكل ابرز فيها معنى تغيير النفس سبيلاً لتغيير ما فينا من سلبيات، وركز على تعاون التيارين القائم على الثقة وفق برنامج مشترك لتحقيق اهداف الأمة.

انطلق المؤتمرون من جلسة الافتتاح وما سمعوه فيها لمناقشة جدول الاعمال وصولاً إلى بلورة الرؤية الصحيحة. وعلى مدى ثلاثة أيام تابعوا العمل فاستمعوا إلى تقرير حال الأمة ومستقبلها وناقشوه، وإلى كلمات الاعضاء، ثم اجتمعت اللجان وقدمت توصياتها بشأن الصراع العربي الصهيوني وخطة عمل السنتين القادمتين، ثم أصدر المؤتمر بيانه الختامي مضمناً إياه رؤيته للصراع في مرحلته الراهنة. وتفصيل ذلك يستحق حديثاً آخر، وإن كان في خطه الاساسي وافق الرؤية التي بلورتها كلمات الافتتاح وعمّقها.

التجاوب مع الفعْل

نعم.. إن دائرة انتشار الرؤية الصحيحة للصراع العربي الصهيوني تتسع في أوساط الأمة يوماً بعد يوم على الصعيدين الشعبي والرسمي. ومع اتساع انتشارها يتضح بصورة أجلى ما ينبغي علينا عمله للانتصار في هذا الصراع.

أحد الأدلة على هذه الحقيقة هو تمييز جمهور الأمة بين ما هو غث من أخبار أحداث الصراع وما هو سمين، وتجاوبه مع الحدث الذى يعبّر عن ارادة الفعل في مواجهة العدو. وقد عشنا مثلاً واضحاً على ذلك في الشهرين الأولين من عام ٢٠٠٠ الميلادي.

فمن بين مئات الأخبار التي تنقلها وكالات الأنباء المرئية والمسموعة والمقروءة حول احداث الصراع وعملية التسوية الجارية، رأينا كيف تجاوب جمهور الأمة مع خبرين بعينيهما، بينما كانت عشرات الأخبار الأخرى تمر بالاسماع مروراً، «تدخل من أذن وتخرج من أخرى» على حد قول شائع.

الخبر الأول كان زيارة الرئيس محمد حسني مبارك للبنان يوم السبت ٢٠٠٠/٢/١٩ في أعقاب قيام الصهاينة العنصريين بضرب ثلاث محطات كهربائية لبنانية ضمن مسلسل عدواني يومي، مستهدفين هياكل البنية الأساسية، في محاولة لإخافة شعب لبنان الصامد وتأليبه على المقاومين البواسل من ابنائه. وقد تضمنت هذه الزيارة في طياتها معنى عظيماً هو وقوف مصر العربية مع لبنان في مواجهة العدوان الصهيوني، وتأكيدها حق المقاومة اللبنانية في متابعة جهادها لإخراج المحتل الاسرائيلي من الشريط الجنوبي اللبناني الذي يحتله.

كان لافتاً للمراقبين ما لقيه خبر هذه الزيارة من تجاوب في أوساط جمهور الأمة. ولم يكن صعباً على محللي الأخبار تفسير هذا التجاوب. فالزيارة مثلت «فعلاً» على الصعيد الرسمي العربي في وقت اشتدت الحاجة فيه إلى «فعل». وكان العدو الاسرائيلي قد قصد استهداف معنويات ابناء امتنا العربية حين عمد يهودا باراك في زيارتيه لعمان والقاهرة أن يطلق تهديداته للمقاومة اللبنانية الباسلة ويتبعها بغارات الطيران الاسرائيلي على اراضي الجنوب اللبناني ثم بقصف المحطات الكهربائية. وجاءت الزيارة لتبلغه رسالة من بين رسائل عدة بعثت بها. وهذه الرسالة بالذات هي ما كان جمهور الأمة ينتظرها. وهي تعبّر عن الرؤية الصحيحة للصراع العربي الصهيوني التي تتسع دائرة انتشارها. وجوهرها أن العدو الاسرائيلي في هذا الصراع، وهو سادر في عدوانه وعنصريته مجاهر باعتماد القوة الغاشمة لفرض ارادته، واثق من دعم قوى الهيمنة الامريكية له، لا يردعه عن العدوان إلا استمرار مواجهة الأمة له بالمقاومة بكل ابعادها وبشتى صورها. وهذه المقاومة هي السبيل الوحيد لتحرير الأرض واستعادة الحق، ومن ثم استتباب السلام

القائم على العدل. ومن ابعاد هذه المقاومة بُعد سياسي «رسمي»، ومن صورها زيارة يقوم بها رئيس مصر العربية الشقيقة الكبرى للبنان المعتدى عليه.

أمر آخر لفت المراقبين هو ما فعله هذا التجاوب مع هذه الزيارة في توليد «فعل» على الصعيد الرسمي العربي، تمثل في تتابع زيارات مسؤولين عرباً للبنان. للاعراب عن الوقوف معه وتأكيد شرعية المقاومة والتعبير عن الرؤية الصحيحة للصراع. وهكذا تعاظم تجاوب جمهور الأمة، وساد منطق الفعل الذي من ثماره تتالي الأفعال المؤثرة.

الخبر الثاني الذي تجاوب معه جمهور الأمة جاء تالياً لسابقه. وقد كان عن تعرض «جوسبان» رئيس وزراء فرنسا لرشق بالحجارة عند خروجه من مبنى جامعة بيرزيت بعد أن ألقى محاضرة في إحدى كلياتها. وكان «جوسبان» قد أعلن قبل يوم اثناء زيارته للكيان الصهيوني عن دعمه للعدوان الاسرائيلي على جنوب لبنان، ووصف المقاومة اللبنانية الباسلة للاحتلال الصهيوني بأنها «ارهاب»، وذلك في الأسبوع الرابع من شهر فبراير شباط عام ٢٠٠٠. ثم جاء يتحدث في جامعة فلسطينية عن الديموقراطية والقانون!!

مرة أخرى استوقف المراقبين ما لقيه هذا الخبر من تجاوب، تعاظم مع نقل الاذاعة المرئية للحدث، حيث رأى المشاهدون منظر شباب جامعي فلسطيني عربي يرشقون «جوسبان» بالحجارة ورجال الأمن محيطون به وعلامات المفاجأة والخوف تكسو وجهه. ورأوا شاباً منهم يركل بقدمه السيارة التي أدخل اليها جوسبان. ولم يكن صعباً على محللي الأخبار هذه المرة أيضاً تفسير هذا التجاوب. فالرشق بالحجارة هنا هو «فعل» وقع على الصعيد الشعبي، واستهدف التنديد برجل مسؤول اجنبي مسّ حرمة المقاومة وقدسيتها. ويعرف هؤلاء المحللون أن جمهور الأمة شديد التمسك بتقاليد الضيافة العربية المشهود لها بالكرم، الا أنه في الوقت نفسه يأبى أن يتعدّى الضيف على أصول الضيافة وعلى مضيفية الذين يعانون من الصهيونية العنصرية. ولذا كان عليه أن يلقى جزاء تعدّيه.

«الفعل» هنا جاء تلقائياً على الصعيد الشعبي، والتجاوب الجماهيري معه عبّر عن الرؤية الصحيحة للصراع التي تزداد دائرة انتشارها اتساعاً. وما أسرع ما ظهر تأثيره على صعد عدة. فقد انكشفت حقيقة هذا النوع من المسؤولين في الغرب الذين يرسم لهم

إعلام قوى الهيمنة صورة خادعة وهم في حقيقة الأمر «رجال جوف» في معظم الاحيان تتحكم فيهم مراكز القوة الصهيونية، أو «قارونيون جدد» يبغون بغير حق. وها هو «جوسبان» يواجه انكشاف حقيقته ليس عندنا فحسب بل في عقر داره حيث يكثر تمجيد المقاومين الفرنسيين للاحتلال النازي لبلادهم ابان الحرب العالمية الثانية.

تأثير «الفعل» هذا ظهر على صعيد المناخ المحيط بالأمة، فبدد إحباطاً شاع فيه وأشاع ثقة وعزماً. كما ظهر على صعيد توليد «افعال» دللت على ما تختزنه الأمة من حيوية. وقد رأينا كيف هبَّ طلاب بيرزيت مطالبين بالافراج عن زملائهم الذين جرى اعتقالهم، واستمرت هبّتهم حتى تم الافراج عن المعتقلين وعادوا الى دراستهم في استقبال حافل. وظهر على صعيد العدو الذي رأيناه يراجع حساباته تحسباً من تفجر انتفاضة ترميه بحجارة من سجّيل. وظهر ايضاً على صعيد إعلامنا عن الحدث، وحديثه يستحق وقفة.

إن من الملاحظ أن التيار الغالب في الاعلام العربي كان عند حسن ظن الأمة في تقديمه لرشق طلاب جامعة بيرزيت «جوسبان» بالحجارة، فكشف حقيقة رئيس الوزراء الفرنسي الاشتراكي وعلاقاته بالصهيونية في بلاده وحساباته الداخلية بغية الوصول إلى موقع رئاسة الجمهورية في الانتخابات القادمة، وأوضح اختلافه مع السياسة الخارجية الفرنسية التي يعبر عنها رئيس الجمهورية شيراك، وأبرز استجابة الشباب الطلابي لتحدي تصريحاته التي مست حق المقاومة المقدس حين وصفه بأنه ارهاب، و..و. وقد تداعى إلى خاطري وأنا أتابع ما صدر عن هذا التيار الغالب في اعلامنا حوار دار في لقاء فكري دعيت إليه في النادي الثقافي العربي بالشارقة عشية حدث بيرزيت. وتتالت فيه التعليقات على الحدث، وجلها تبنت منطق الفعل، ولكن تعليقاً بعينه اعتبر الحدث سلبياً لأنه تجاوز على حد قول المعلق «تقاليد الضيافة» من جهة، و«لأن الاعلام الغربي الذي تسيطر عليه الصهيونية سوف يستغل الحدث لتشويه صورة العرب في وقت نحن فيه ضعفاء».

لقد كان لافتاً ما تتالى من ردود على هذا التعليق، أوضحت بجلاء «منطق الفعل» في مواجهة «منطق القعود». ومضمونها أن الاعلام عن الحدث هو دوماً تالٍ له بعد وقوعه، وأن مهمة «الاعلام الفاعل» الذي يتبنى منطق الفعل هو تقديم الحدث بأمانة وتسليط اضواء عليه تبرز ما نريد ابرازه فيه، وأن هذا الاعلام يدرك حقيقة تجاوب

البشر اينما كانوا في أعماقهم مع المبادرة المعبرة عن الشجاعة في وجه الظلم، ولذا فإنه يحرص على الاشادة بها. وكلنا يذكر كيف تعامل «الاعلام الفاعل» مع الانتفاضة ومع المقاومة في جنوب لبنان ومع معركة بيروت ١٩٨٢.

إن «إعلامنا الفاعل» في صراعنا لاستعادة حقوقنا هو أيضاً تعبير عن الرؤية الصحيحة للصراع. والتجاوب معه جماهيرياً دليل على اتساع دائرة انتشار هذه الرؤية في أوساط الأمة.

وبعد.. فنحن كنا في هذا الحديث مع خبرين عن حدثين أحدهما رسمي والآخر شعبي، جمع بينهما منطق الفعل فاتسم كل منهما بالمبادرة، وعبرا معاً عن روح مقاومة العدوان والبغي بغير حق، وأكدا تكامل الصعيدين الرسمي والشعبي في مواجهة العدو في هذا الصراع الممتد، ودللا على انتشار الرؤية الصحيحة له بين أبناء الأمة.

إن لنا ان نتوقع مع هذا الانتشار قيام كل فرد في الأمة بالمشاركة في المقاومة بمعناها الواسع، كل في موقعه، بأعمال تجسد منطق الفعل على الصعيدين الرسمي والشعبي، حتى نصل بقوى الهيمنة الدولية إلى مراجعة مواقفها، ونصل باليهود إلى نبذ الصهيونية العنصرية. وسيبقى الحدثان اللذان اوحيا بهذا الحديث في ذاكرة الأمة مثلاً على المبادرة والفعل.

يوم التحرير والمقاومة في لبنان

اكتب هذا الحديث ضحى يوم الثلاثاء الثالث والعشرين من أيار - مايو ٢٠٠٠م، الموافق التاسع عشر من صفر الخير ١٤٢١هـ، وموضوعه انسحاب العدو الاسرائيلي من جنوب لبنان.

«ترى هل أنا مستعجل في الكتابة عن هذا الموضوع، والانسحاب لم يكتمل بعد؟ ونحن نعرف غدر العدو. وها هو مجلس الأمن سيجتمع اليوم لمناقشة دور الأمم المتحدة بعد الانسحاب ونحن ندرك دور الولايات المتحدة الامريكية الداعم الاقوى للعدو الإسرائيلي فيه». هكذا سألت نفسي. وأجبتها «ليس هناك استعجال لأن اتجاه الأحداث محدّد، وهو يدل على أن الانسحاب الاسرائيلي الكامل من جنوب لبنان قادم لا محالة».

والحق أن مؤشرات عدة تعزز حدوث الانسحاب في وقت قريب. فمجلس الوزراء الاسرائيلي المصغر اتخذ قراره يوم أمس - كما اذاعت وكالات الانباء - بتخويل رئيسه تحديد الموعد الدقيق للانسحاب قبل السابع من تموز - يوليو، وكذلك باتخاذ الاجراءات لتغطيته. وهاهي لمع الأخبار تتحدث عن استسلام مئات من عناصر ميليشا ما يسمى بجيش لبنان الجنوبي إلى رجال المقاومة ومن ثم السلطات اللبنانية، بعد أن أخلت هذه الميليشيات العميلة خمس عشرة قرية وبلدة. وها هم عشرات السكان العزّل بادروا بدخول قراهم سيراً على الاقدام، ولكن القصف الاسرائيلي المجرم استهدفهم فاستشهد خمسة منهم وجرح واحد وثلاثون. وها هي جريدة واشنطن بوست تكشف في عدد يوم ٥/٢١ أنه «لم يبق في المناطق التي تحتلها اسرائيل في الجنوب اللبناني سوى بضع مئات من الجنود الاسرائيليين»، «وأن سلطات الاحتلال الاسرائيلي قامت خلال الأيام الماضية بتفكيك موقعين واجلائهما»، وأشارت هذه الصحيفة الصهيونية

الميول إلى تراجع الحالة المعنوية بين جنود الاحتلال الاسرائيلي، ونقلت قول زئيف شيف المحلل العسكري الاسرائيلي الشهير الذي طالما روّج لبطولات الجندي الاسرائيلي «للمرة الأولى في تاريخنا نمني بهزيمة من عدو في اطار الحرب النفسية». وقالت الصحيفة حزب الله الذي يتزعم المقاومة اللبنانية تمكن في النهاية من التفوق على اسرائيل وبث الرعب في قلوب الاسرائيليين من خلال سلسلة من العمليات الناجحة، وألمحت الصحيفة الى تحفظات المؤسسة العسكرية الاسرائيلية على الانسحاب من الجنوب اللبناني.

أتابع كتابة هذا الحديث صباح يوم الاربعاء الرابع والعشرين من أيار – مايو ٢٠٠٠م، الموافق العشرين من صفر الخير ١٤٢١. وها هي الاذاعات قد أعلنت اكتمال الانسحاب الاسرائيلي من جنوب لبنان في الساعة الرابعة من فجر هذا اليوم بعد اثنين وعشرين عاماً من الاحتلال الاسرائيلي الآثم لخمسة عشر بالمائة من أرض لبنان كان يسكنها حوالي نصف مليون من أصحابها.

يا له من يوم مبارك. وما أسعدنا ونحن نتابع ما اذاعته وكالات الانباء بمناسبة هذا الحدث العظيم. فهذه عناوين صحف عربية «يوم الذل لاسرائيل»، «الاسرائيليون يفرون»، «ارغام اسرائيل على الانسحاب في ليلة مهانة». وهذه عناوين صحف اسرائيلية واجنبية «الحكومة لم تحسن تخطيط الانسحاب»، «خذلان جيش لبنان الجنوبي»، «المهانة المشهودة»، «اسرائيل اعلنت انتهاء انسحابها من جنوب لبنان قبل شهر ونصف من الموعد المحدد له سابقاً».

نعم. اتجاه الأحداث كان قد تحدد منذ أيام. واذكر أن رؤيتي للانسحاب الاسرائيلي القادم تبلورت قبل اسبوع. ففي مثل هذا اليوم كنت مع أخوتي اعضاء الأمانة العامة للمؤتمر القومي العربي في لقاء بالسيد حسن نصر الله الأمين العام لحزب الله استمعنا فيه بإمعان الى آخر أخبار ما يجري في الجنوب والى تحليل عميق للأحداث والى رؤية مستقبلية للمقاومة، وجرى حوار غنّي عزز قناعات وبلور افكاراً بشأن مستقبل هذا الصراع العربي الصهيوني الممتد. وكنا قد التقينا قبل ذلك بيوم بكل من الرئيس سليم الحص رئيس الحكومة اللبنانية والرئيس نبيه بري رئيس مجلس النواب اللبناني، واستمعنا إلى عرضين غنيين متكاملين حول ما يجري على الساحة الدولية وقضية مزارع شبعا. ورأينا مثلاً حياً على تكامل التحرك بين المؤسستين وبتناغم مع دور المقاومة.

لقد اجتمع مجلس الأمن يوم ٥/٢٣ وأصدر بياناً رئاسياً أعرب فيه عن ترحيبه وتأييده لتقرير كوفي عنان الأمين العام للأمم المتحدة بشأن الانسحاب الاسرائيلي، الذي قال فيه إنه يجب على اسرائيل أن تسحب قواتها العسكرية وموظفيها المدنيين من كل الأراضي اللبنانية، بما في ذلك المجال الجوي والمياه الاقليمية، وضمان إنهاء التمويل الاسرائيلي لميليشيا جيش لبنان الجنوبي، وتوقف اسرائيل عن مد الميليشيات بالسلاح ايضاً». وأوضح هذا التقرير أن «شبعا» ستظل تحت رقابة القوات الدولية الخاصة بالحفاظ على فك الاشتباك بين سوريا واسرائيل. وكانت وزارة الخارجية الامريكية قد أكدت في بيان لها يوم ٥/٢٣ مساندتها لخطة الانسحاب الاسرائيلي من جنوب لبنان دون مزارع شبعا التي اعتبرها البيان جزءاً من أراضي الجولان السورية، مع أن سوريا نفسها أعلنت أن هذه المزارع اراضٍ لبنانية.

اتابع كتابة هذا الحديث عن انسحاب العدو الاسرائيلي من جنوب لبنان مساء اليوم نفسه. وقد آثرت منذ الضحى أن أتحول عن الكتابة الى مشاهدة ما تنقله الفضائيات التلفزية عن حدث الانسحاب بالصورة والصوت. ويا للعواطف الجياشة التى تملكت كل فرد من الأسرة ونحن نتابع التقارير والشهادات، ومعها الأغاني الوطنية. ويالالأفكار التي أوحى بها ذلك كله، وجميعها تتصل بقصة هذا الفصل من الصراع العربي الصهيوني الذي استمر اثنين وعشرين عاماً، وبالمقاومة العظيمة الذي سجلت انتصاراً متميزاً فريداً على العدو الاسرائيلي، وها هي حكومة لبنان تعلن يوم غدٍ الخميس الخامس والعشرين من أيار - مايو ٢٠٠٠ عيداً وطنياً «للتحرير والمقاومة» تعطّل البلاد فيه رسمياً سنوياً.

نعم هو انتصار متميز فريد يضاف إلى انتصارات سابقة ذقنا حلاوتها في هذا الصراع الممتد، الذي ذقنا فيه ايضاً مرارة نكبة ونكسة وهزائم. وقد جاء تميزه وفرادته من كونه «انسحاباً عسكرياً» وليس «إعادة انتشار». ومعلوم أننا شهدنا منذ حرب رمضان ١٩٧٣ خروج جيش الاحتلال الاسرائيلي من اراضٍ عربية، ولكن الجيش الاسرائيلي في المرات السابقة التى خرج فيها كان يعتبر ذلك إعادة انتشار تحكمه اتفاقات تسوية. كما جاء تميزه وفرادته في أنه تم تطبيقاً لقرار مجلس الأمن رقم ٤٢٥ الذي صدر بموجب الفصل السادس من الميثاق الأممي. ولعل هذه أول مرة تنفذ الحكومة الاسرائيلية قراراً لمجلس الأمن بشأن الأراضي التي احتلتها، وكثيرة هي القرارات التي صدرت. وما كان لها أن تنفذ هذا القرار لولا اتصال المقاومة اللبنانية المباركة. وجاء تميز هذا الانتصار

لأن الذي حققه هو المقاومة الشعبية وليس جيشاً نظامياً، ولأن هذه المقاومة الشعبية اللبنانية التي قادها حزب الله وشاركت فيها فصائل لبنانية أخرى حظيت بدعم شعبي وبدعم رسمي وعبرت عن الوحدة الوطنية على صعيد القطر، كما حظيت بدعم دولة مواجهة مجاورة للبنان هي شقيقته سوريا وبعون من أشقاء في دائرة الحضارة الاسلامية.

يا لَروعة المشاهد التي رأيناها على الشاشة الصغيرة. هذه هي الأرض المباركة. وقد تطهرت من دنس الاحتلال. هي جزء من لبنان ومن بلاد الشام ومن الوطن العربي الكبير، متوسطية، حباها الله بنعم كثيرة. وهذه قراها الشهيرة ومنها كوكبا والقليعة وبنت جبيل وقرى العرقوب. وهذه مرجعيون وحاصبيا وشبعا، وهؤلاء هم أهلوها. البعض ممن تحرر من الاحتلال والبعض الآخر ممن شرده الاحتلال وقد عاد. وما أجمل العودة إلى الوطن، وما أحلى لقاء الشقيقين بعد أن حال دونهما عدو آثم. وهؤلاء هم أبناء أمتنا البسطاء «ملح الأرض» يعبرون بتلقائية عن مشاعرهم. ويا لمنظر أم الشهيد وهي حاملة آثار ابنها الشهيد وقد جاءت لتشارك في الفرحة العظيمة فرحة التحرير وتستحضر ذكرى الشهداء العطرة. ويا لمنظر السياج السلكي الشائك الذي اقامه العدو على الحد الفاصل بين لبنان وفلسطين كي يحمي نفسه بعد الانسحاب. وها هم الجنود الاسرائيليون الشباب يعبرون عن فرحتهم بالنجاة من نار المقاومة المباركة، ومثلهم أسرهم وأمهاتهم بخاصة، بعد أن عانوا الكثير بسبب اطماع المؤسسة العسكرية الصهيونية العنصرية وعدوانيتها واحلامها التوسعية. وها هم ابناء الجنوب الأشاوس يقفونا أمام السياج ويخاطبون افراداً من المستعمرين المستوطنين الاسرائيليين عبره قائلين «لقد اجبرتكم المقاومة على الانسحاب. أنتم تتحدثون عن السلام. أى سلام هذا وجرائمكم لم تتوقف يوماً طيلة احتلالكم. والأيام بيننا مادمتم معتدين». وها هو شريط المشاهد التلفزي ينقل لنا صورة سجن الخيام أحد رموز الجرائم الصهيونية ضد الانسانية التي لابد أن تعرض على محكمة دولية في يوم قريب، كما عرضت جرائم النازية. ويا لبشاعة ما اقترفته الايادي الصهيونية. ثم ها نحن نرى المحررين من سجن الخيام الذين اعتقلتهم سلطات الاحتلال الاسرائيلي جوراً منتهكة القانون الدولي واعلان حقوق الإنسان. وهاهم يلتقون بأمين عام حزب الله السيد حسن نصر الله وبالأهل في احتفال بهيج.

وتتتابع المشاهد. ومنها مشاهد لرجال دين مسيحي وعلماء دين مسلمين يلتقون معاً ليعبروا عن أخوة الايمان في مواجهة الاثم والعدوان، ومشاهد لنواب لبنانيين سارعوا

لزيارة الجنوب المحرر وهم يناقشون مع أهلهم متطلبات تنميته، وتبلغ المشاهد ذروة حين تنقل الفضائيات زيارة رئيس الجمهورية اللبنانية العماد اميل لحود إلى قرى الجنوب ولقاءه بالأهل وحديثه اليهم. وما أعظم معنى هذه الزيارة. وتتجلى هذه العظمة بصورة اعمق حين نتذكر أن العدو الاسرائيلي وضع شروطاً في عملية التسوية الامريكية الجارية، منها اصراره على الالتقاء المباشر بين قيادته وقيادة أي دولة عربية يحتل ارضها قبل أن يعيد انتشار قواته.

أختم هذا الجزء من الحديث في صباح يوم الخميس ٢٠٠٠/٥/٢٥، ٢٠ صفر الخير ١٤٢١ الذي دخل تاريخ أمتنا باعتباره واحداً من «أيام العرب» يحمل اسم «يوم التحرير والمقاومة» في لبنان. واستحضر فرحة الأمة كلها بالحدث العظيم حدث انتصار المقاومة اللبنانية وفرضها الانسحاب على جيش الاحتلال الاسرائيلي. وقد تتالت التعبيرات عن هذه الفرحة رسمياً وشعبياً. وأتأمل في عوامل تحقيق هذا النصر واستذكر فضل كل من اسهم فيه شعبياً ورسمياً. وهذه تستحق حديثاً آخر اضافياً. واكتفي بالاشارة الى اسهام كل فرد شارك في المقاومة المسلحة وفي مقدمتهم الشهداء الذين هم احياء عند ربهم يرزقون، وقيادة حزب الله، ولبنان كله، وشقيقته سوريا التي وقفت مع المقاومة وحق المقاومة، وشقيقات عربيات باسهامات متفاوتة، وشقيقة من ديار الاسلام هي ايران اسهمت بنصيب وافرٍ في دعم المقاومة.

الحديث ذو شجون. وهو يدعو إلى الخاطر أن نستذكر قصة «التورط الاسرائيلي في جنوب لبنان» منذ أن بدأت فكرة كي نستخلص دروساً وعبراً منها. وهذا ما نفعله بإذن الله في حديث قادم. ومبارك للبنان ولشعبه البطل ومقاومته المقدامة وللأمة جمعاء تحرير جنوب لبنان، والخزي والعار للصهيونية العنصرية ولكل من والاها، وقد رأينا شاهداً على ذلك منظر «انطون لحد» العميل الخائن عند الهزيمة.

قصة التورط الاسرائيلي في لبنان

التخطيط للعدوان وتنفيذه

اكتب هذا الحديث ضحى يوم الخميس ٢٠٠٠/٥/٢٥، ٢٠ صفر الخير ١٤٢١، «يوم التحرير والمقاومة» في لبنان. وفي خضم الفرحة بانتصار لبنان ونصب العين تحرير القدس وفلسطين بجهاد دائب ومقاومة متصاعدة، نستذكر فصول قضية

التورط الاسرائيلي الصهيوني في جنوب لبنان، لنستخلص منها دروساً وعبراً تفيدنا في صراعنا ضد عدونا الصهيوني العنصري وتحقيق انتصارنا عليه في فلسطين بعد أن انتصرنا عليه في لبنان.

من أين نبدأ القصة؟ متى وضعت الحركة الصهيونية جنوب لبنان هدفاً لغزوتها ولأطماعها التوسعية؟ وكيف انتقلت إلى التخطيط ومن ثم إلى اجتياح الجنوب؟ ثم متى بدأت تعاني؟ وكيف اضطرت للقيام بانسحاب أول؟ وكيف عمدت إلى اقتراف جرائم حرب بشعة يحفظها كتاب احتلالها؟ واخيراً كيف اضطرت للانسحاب من الجنوب بمهانة وانهزمت؟

أعود إلى كتابات سابقة تناولتُ فيها هذه القصة، لأعرضها في فصول.

الفصل الأول «بدأت الحركة الصهيونية تربصها بلبنان منذ بدأت غزوها لفلسطين أواخر القرن التاسع عشر الميلادي. وكانت فلسطين ولبنان قبل عام ١٩١٦ اقليمين تحت الحكم العثماني. وكانت حدود فلسطين الادارية مشتركة مع سنجق بيروت. وكان شمال فلسطين يضم لواءيْ نابلس وعكا، وهما جزءان من ولاية بيروت.

جاءت معاهدة سايكس بيكو عام ١٩١٦، لترسم خطوطاً فاصلة بين القطرين. ثم جاء تصريح بلفور عام ١٩١٧، وتبعه قيام انجلترا وفرنسا نيابة عن فلسطين والرافدين (العراق) وسوريا ولبنان بتحديد الحدود السياسية بين مناطق «انتدابهما» في معاهدة باريس بتاريخ ١٩٢٠/١/٢٣، بعد أن احتلتا هذه الأقطار آخر الحرب العالمية الأولى واستعمرتها تحت اسم «انتداب» أقرته عصبة أمم تسيطر عليها دول الهيمنة الأوروبية. وما أسرع ما طرأت تعديلات على هذه الحدود، وبخاصة الحدود بين فلسطين ولبنان. وتكشف لنا مذكرة بعث بها لورد بلفور الى لويد جورج رئيس وزراء بريطانيا في ١٩١٩/٦/٢٦ عن العامل الصهيوني في رسم هذه الحدود. وقد جاء فيها «الشئ الرئيسي الذي يجب أن يؤخذ في الاعتبار في تحديد هذه الحدود هو جعل السياسة الصهيونية ممكنة من خلال اعطاء مجال للتطور الاقتصادي في فلسطين. ولذا يجب أن تعطي الحدود الشمالية لفلسطين سيطرة كاملة على مصادر المياه». ويوم ذاك أجمع المسؤولون الانجليز في فلسطين، وهم من الصهاينة أو من الموالين للصهيونية على ان ترسم الحدود في أماكن تمكن من الحصول على مياه الليطاني ومياه السفوح الجنوبية لجبل الشيخ ومياه السفوح الغربية لمرتفعات الجولان ومياه نهر اليرموك ومياه نهر الأردن معاً.

حين قامت لجنة تعيين الحد برسمه في الطبيعة وتثبيته على الخريطة، وجدت صعوبات بالغة وهي تفصل ما كان موصولاً دوماً. وهكذا بلغ عدد القرى التي قسمها الحد اثنين وعشرين قرية على طول الحدود الفلسطينية اللبنانية السورية. واضطرت الدولتان المنتدبتان «المستعمرتان» إلى ابرام اتفاقية حسن جوار عام ١٩٢٦ لمعالجة المشكلات التي نجمت عن رسم الحد وعانى منها اهل البلاد ما عانوا لأنها مست جوانب حياتهم الاجتماعية والاقتصادية والروحية والسياسية. وتكشف الدراسات التي أجريت على هذا الموضوع، ومنها دراسة الدكتور محمد محمود الديب، عن أن الصهيونية بذلت قصارى جهدها لتضم جنوب لبنان إلى الأرض التي وعدتها بريطانيا أن تكون وطناً قومياً لليهود فلما لم تصل الى مبتغاها جعلت تغيير الحدود هدفاً لها، وعبرت عن قناعتها «بأن الحدود السياسية هي غشاء رقيق يغلف كائناً حياً، وأن نمو هذا الكائن الحي سيؤدي حتماً إلى تمزيق الغشاء الرقيق ليتوسع على حساب الأقطار المجاورة لفلسطين»، وهذه هي المقولة التوسعية الصهيونية. وهكذا أصبحت السيطرة على جنوب لبنان من بين أهداف التوسع للحركة الصهيونية.

الفصل الثاني بدأ بعد أن اقامت قوى الهيمنة الدولية «دولة اسرائيل» عام ١٩٤٨ للحركة الصهيونية وحلت النكبة بشعب فلسطين العربي. وكان لبنان ومعه سوريا بين أوائل الأقطار التي نالت استقلالها في ثورة التحرير العالمية عام ١٩٤٥. وهكذا أصبح الوجود الصهيوني على تخوم لبنان الجنوبية. وشرعت الحركة الصهيونية في بلورة مخطط تجاه لبنان. وقد كشفت لنا يوميات موشى شاريت خطوط هذا المخطط الذي نشرت دراسة قيمة عنه ليفياروكم.

تحدثت هذه اليوميات عن اجتماع شارك فيه مع موشى شاريت بن غوريون ولافون وديان يوم ١٩٥٤/٢/٢٧، جرى البحث فيه عن لبنان. وبلور الاجتماع اقتراحاً محدداً «لخلق المتاعب في اكثر الجيران أمنا وهو لبنان، بعد أن كانت المجموعة نفسها قد ناقشت خططاً لغزو سوريا ومصر. وفي حالة لبنان لم تحاول طموحات الهيمنة الاسرائيلية، على حد تعبير ليفياروكم أن تتظاهر بستر عورتها بورقة تين من مزاعم «الأمن» و«الدفاع». فقد طرح بن غوريون اقتراح «ايجاد دولة مارونية في جزء من لبنان ينفصل عنه وتتحكم فيه «اسرائيل». وثار جدل حول الاقتراح عمد فيه شاريت الى تفنيده ووصفه «بأنه كلام فارغ» وشرح العقبات التي تقف امام تنفيذه، وجماعها عدم

وجود عامل واحد جاهز لخلق مثل هذه الحالة. ورد بن غوريون بعنف موجهاً انتقادات لشاريت منها افتقاره للجرأة وصغر عقله وضيق أفقه. وحين قال شاريت «لانملك المال اللازم»، أجابه بن غوريون «المال يتم توفيره ان لم يكن من الخزانة فمن الوكالة اليهودية تأخذه» وختم قائلاً «عندما يحدث هذا فإن تغييراً حاسماً سوف يأخذ مكانه في الشرق الأوسط».

تتابع يوميات موشى شاريت سرد قصة هذا المخطط الصهيوني تجاه لبنان، فتورد رسالة بعث بها بن غوريون في اليوم نفسه حين عاد إلى منتجعه في سيدي بوكر شرح فيها الهدف تفصيلاً وكيفية العمل لتحقيقه وختم قائلاً «لا ادري ان كان لنا رجال في لبنان، ولكن هناك طرقاً متعددة يمكن بواسطتها تنفيذ هذا المخطط» وقد رد شاريت برسالة يوم ١٩٥٤/٣/١٨ تزحزح فيها عن موقفه. وهكذا انتقل الحوار في ١٩٥٤/٥/١٦ إلى كبار الضباط والمسؤولين في وزارتي «الدفاع والخارجية»، وطرح عليهم بن غوريون اقتراحه، وتبعه ديان الذي رسم «شريط مشاهد» متكامل (سيناريو)، يبدأ بإيجاد ضابط أو حتى «مأجور» يقبل القيام بدور ترسمه «اسرائيل» له، ويوافق ان يعلن نفسه منقذاً للبنان، ثم يقوم الجيش الاسرائيلي بدخول لبنان واحتلال جزء من اراضيه واقامة دولة في هذا الجزء تكون حليفة «لدولة اسرائيل»، وعندها تضم «اسرائيل» الأراضي الواقعة جنوب الليطاني ضماً كلياً.

يلفت النظر في القصة أن ديان باشر التمهيد لتنفيذ المخطط بالقيام في ١٩٥٤/٩/٢٢ بعدوان على لبنان تحت غطاء أنه عمل انتقامي رداً على حادث غامض وقع في طبرية، وذلك على الرغم من اعتراض شاريت على فتح جبهة جديدة على «حدود كانت هادئة تماماً منذ عام ١٩٤٨». ولم يؤخر متابعة الاعمال العدوانية الا انشغال «اسرائيل» بالتآمر مع فرنسا وبريطانيا لشن العدوان الثلاثي على مصر. ولكن اجهزة الاستخبارات الاسرائيلية تابعت محاولاتها البحث عن «عميل».

دخل المخطط الاسرائيلي تجاه لبنان مرحلة جديدة بعد حرب حزيران - يونيو ١٩٦٧ التي ارادت بها الحركة الصهيونية تمهيد أرضية «التغيير الحاسم في الشرق الأوسط» على حد تعبير بن غوريون. وكانت هذه الحرب تستهدف فيما تستهدف السيطرة على منابع المياه في الجولان، فهي «حرب حول المياه» في أحد وجوهها. وكان أبا ايبان قد شرح في كتابي «شعبي» وفي عدد من محاضراته تصوره لهذا «الشرق

الأوسط» الذي «يضم شعوباً مختلفة ودولاً، وكان مهد حضارات متباينة» على حد زعمه؛ وصولاً إلى تبرير وجود «اسرائيل» في قلب الوطن العربي، والى «بلقنة» المنطقة باقامة دول فيها على أساس طائفي.

الفصل الثالث بدأ في ١٩٧٨/٣/١٤ حين اجتاحت القوات الاسرائيلية جنوب لبنان في «عملية الليطاني». وقد كشف الاسم الرمزي هذا عن ابعاد الاطماع الصهيونية، وشرح دلالته غسان تويني في مقدمته لوثائق الأمم المتحدة الخاصة بلبنان حين اصدرها في كتاب. وكان الاسرائيليون قد تواصلوا عام ١٩٧٦ مع «سعد حداد» الضابط المتمرد الطامح للسلطة وجعلوه عميلاً لهم وساعدته المخابرات الاسرائيلية على تشكيل «قوات سعد حداد». واطلقوا على هذه القوات بعد قيامهم بالاجتياح اسم «جيش لبنان الحر» في ١٩٧٩/٤/٨ بعد أن أعلن سعد حداد قيام ما أسماه «دولة لبنان الحر».

تصاعدت المقاومة في مواجهة هذا الاجتياح الاسرائيلي. وشارك فيها مع قوات الثورة الفلسطينية الموجودة في لبنان فصائل المقاومة اللبنانية. واصدر مجلس الأمن في ١٩٧٨/٣/١٩ قراره رقم ٤٢٥ الذي نص على الاحترام الكامل لسلامة أراضي لبنان وتكاملها وسيادته واستقلاله السياسي ضمن حدوده الدولية المعترف بها. وطالب «اسرائيل» بوقف عملياتها العسكرية فوراً وانسحابها من الأراضي اللبنانية.

كان واضحاً أن الولايات المتحدة الامريكية أعطت الضوء الأخضر لتابعها الاسرائيلي للقيام باجتياح جنوب لبنان. وقد اضطرت أمام الاستهجان الدولي والعربي للاجتياح أن توافق على قرار ٤٢٥ في مجلس الأمن ولاتستخدم «الفيتو». ولكنها لم تفعل شيئاً لدفع الكيان الاسرائيلي لتنفيذ القرار. وهكذا بقي القرار ينتظر حدوث ما يضطر «اسرائيل» لتنفيذه. ومع تصاعد المقاومة الفلسطينية واللبنانية ضد الاحتلال الاسرائيلي للجنوب اللبناني، سعت الولايات المتحدة من خلال دبلوماسية سرية لتهدئة الجبهة التي احتدم فيها الصراع. ومن الذين شاركوا في هذا السعي القس جسي جاكسون الذي زار لبنان في صيف ١٩٨١ الساخن. وكانت الولايات المتحدة قد تبنت ابرام اتفاقات كامب دافيد بين مصر واسرائيل في ايلول – سبتمبر ١٩٧٨ بعد عشرة شهور من زيارة الرئيس السادات للكنيست في تشرين ثانٍ – نوفمبر ١٩٧٧، ثم توصلت معها الى ابرام معاهدة ١٩٧٩.

الفصل الرابع بدأ في ١٩٨٢/٦/٥ بقيام «اسرائيل» باجتياح آخر لجنوب لبنان

استهدف القضاء على المقاومة الفلسطينية ومنظمة التحرير الفلسطينية في عملية كبيرة. وذلك في ظل ظروف دولية صعدت فيها ادارة رونالد ريغان الحرب الباردة مع الاتحاد السوفييتي. وكان واضحاً أن الادارة الامريكية أعطت ضوءاً أخضراً لإسرائيل أن تحتل الجنوب كله حتى نهر الأولي شمال صيدا. وقد تابع شارون وزير الحرب الاسرائيلي بموافقة مناحيم بيجين رئيس الوزراء الاجتياح حتى وصل إلى بيروت الشرقية.

شهد هذا الفصل معركة بيروت الكبرى في صيف ١٩٨٢ التي قاتلت فيها المقاومة الفلسطينية والمقاومة اللبنانية ببسالة القوات الاسرائيلية المعتدية. وخاضتا ضدها وجهاً لوجه حرباً اثبتت قدرة المقاومة على الصمود. واذا كانت هذه المعركة قد انتهت باخراج قيادة منظمة التحرير الفلسطينية من بيروت، ومكنت الاسرائيليين من احتلال عاصمة عربية، الا أنها كانت ارهاصاً بنضج المقاومة اللبنانية وبعزمها على التحدي للاحتلال الاسرائيلي.

شهد هذا الفصل ايضاً انموذجاً بشعاً لنوع التحكم الصهيوني الاسرائيلي الذي تعد به الصهيونية وحليفتها قوة الهيمنة الامريكية دولنا العربية. فقد تعامل مناحيم بيجين مع بشير الجميل بمنطق الغطرسة واعطاء الأوامر وحاول ان يملي عليه اتفاقاً مذلاً. وتكاتفت «اسرائيل» وقوة الهيمنة الامريكية في عهد الرئيس امين الجميل لفرض اتفاق ١٩٨٣/٥/١٧ على لبنان، الذي بموجبه يخضع لبنان للهيمنة الاسرائيلية.

بلغ الخط البياني للمخطط الاسرائيلي في لبنان ذروته إثر فرض ذلك الاتفاق واستنفر هذا الفرض قوى المقاومة اللبنانية التي وجدت في شقيقتها سوريا خير عون لها يقدم لها المساندة والدعم، وصولاً إلى الغاء هذا الاتفاق المذل. وقد أوضح شيمون بيريز الذي كان زعيم المعارضة الاسرائيلية آنذاك في حديث لمحطة تلفزية امريكية ما يعنيه هذا الاتفاق لاسرائيل قائلاً «إنه يعطيها (حق) الطيران في سماء لبنان و(حق) النزول في ساحل جنوب لبنان و(حق) تحويل ميلشيا سعد حداد إلى لواء يأتمر بأمرها، و(حق) التفتيش الأمني في الأراضي اللبنانية».

مع استنفار المقاومة اللبنانية قواها لالغاء هذا الاتفاق المذل بدأ التحول في الخط البياني للمخطط الاسرائيلي. وأصبح الغاء الاتفاق المطلب الوطني اللبناني الأول. وتتالت فصول أخرى كشفت عن نتائج التورط الاسرائيلي السلبية في جنوب لبنان.

لعل أبرز درس نستخلصه من هذا الحديث أن التربص الصهيوني بلبنان بدأ مع

بداية الغزو الصهيوني لفلسطين، وأن اسرائيل، قامت حال أن اقامتها قوى الهيمنة الغربية ببلورة مخططها لاحتلال الجنوب اللبناني ثم باشرت تنفيذه بدعم الولايات المتحدة الامريكية، وكان عام ١٩٨٣ هو ذروة التنفيذ، وبعده بدأت المقاومة تقطف ثمار صمودها وعطائها.

استذكار فصول قصة المقاومة اللبنانية في الجنوب

سبعة عشر عاماً استمرت هذه المقاومة، حتى كان «يوم التحرير والمقاومة». وإن علينا كي ندرك أبعاد الانتصار الذي تحقق أن نستذكر فصول قصتها، ونتعرف من خلال ذلك على العوامل التي تضافرت في تحرير الجنوب. كما أن من حق جيل جديد عربي أن تروى له القصة كاملة لتستقر في ذاكرته التاريخية.

لقد عمدت إلى استذكار القصة، فعدت إلى ما كتبته عنها في «اسبوعيات المقاومة» التي انتظمت في كتابتها منذ نكسة عام ١٩٦٧. ووجدت أني تناولتها في مناسبات كثيرة بين عامي ١٩٨٣ و٢٠٠٠ في مقالات. ووددت لو أني أعرض اليوم ما جاء في تلك المقالات، ولكني بعد مراجعتها في كتبي المنشورة رأيت أنها اطول من أن يتسع المجال لها، وأن اختصارها قد يغمط القارئ حقه في الاطلاع عليها كاملة. ولذا رجحت أن أشير إلى أنه يمكن مراجعتها في «نحو استراتيجية عربية للمواجهة» و«بداية الصحوة العربية في مواجهة الغزوة الصهيونية العنصرية» و«مدرسة عربية في علم السياسة»، إبان الثمانينات. ثم فيما تلا من كتبي في التسعينات. ولعلي أجمعها في كتاب واحد يختص بالمقاومة اللبنانية.

اكتفي بالاشارة هنا إلى ما كتبته في نهاية عام ١٩٨٣ تحت عنوان «ظاهرة العام» عن «ظاهرة المقاومة الشعبية للاحتلال الاسرائيلي في جنوب لبنان» وتوقعت فيه «ألا نرى جيش الاحتلال الاسرائيلي ينسحب من جنوب لبنان انسحاباً جزئياً أو كلياً (نحو استراتيجية ص ١٥٧)، وكذلك ما كتبته عن الصحوة وتحرير صيدا في ١٩٨٥/٢/١٦ (بداية الصحوة ص ١٣)، ثم ما كتبته في كتابي «لا للحل العنصرى في فلسطين»، «وأزمة الحل العنصرى».

إن استذكار قصة المقاومة في لبنان يزودنا برؤية لكيفية تحرير جميع اراضينا العربية المحتلة ويشحذ الهمم لمتابعة المقاومة بأبعادها كلها، وبما يناسب المرحلة الجديدة التي سوف يدخلها الصراع العربي الصهيوني بعد ابرام تسوية عملية سلام الشرق الأوسط.

أضواء على مفاوضات كامب داڤيد الثانية

دخلت مفاوضات كامب دافيد الثانية التي جرت بين يومي ١١ و٢٠٠٠/٧/٢٥، تاريخ التفاوض في ظل عملية التسوية الجارية، باعتبارها حلقة أخرى في سلسلة حلقات. وواضح وأنا اشرع في كتابة هذا الحديث عنها فجر يوم السبت ٢٠٠٠/٧/٢٩ أنها لن تكون الأخيرة، ذلك لأنها ما أن توقفت وانفضت القمة فيها حتى بدأت الجهود الدبلوماسية تتحرك لإنضاج جولة أخرى في حلقة جديدة، ولتهدئة الأجواء بعد الأزمة التي حدثت فيها بشأن قضية القدس.

واضح أيضاً أن الأجواء المخيمة غير صافية ولاهادئة، وقد أسهمت في تعكيرها واثارتها بصورة خاصة تصريحات الرئيس الامريكي بيل كلينتون، ومنها تلك التي أدلى بها للتلفزة الاسرائيلية ولوحٌ فيها بأنه يدرس أمر نقل السفارة الأمريكية إلى القدس الغربية، الأمر الذي وصفته الناطقة الفلسطينية بأنه ابتزاز. والحق أن من أخطر ما كشفت عنه حلقة المفاوضات هذه هو سلوك كلينتون المتحيز المساند للصهيونية العنصرية الذي قدّم مثلاً آخر على أن الولايات المتحدة الامريكية بالنسبة لنا في عملية التسوية هي «الخصم والحكم». ورحم الله ابا الطيب المتنبي الذي قال أيضاً «ومن نكد الدنيا على الحر أن يرى / عدواً له ما من صداقته بدٌّ» وكم من المسؤولين العرب يرددون بينهم وبين أنفسهم هذا البيت، وهم يتابعون المواقف الأمريكية الداعمة للعدوان الصهيوني عليهم.

لقد كان من بين تصريحات الأخ أبي عمار تمسكه بموعد ٢٠٠٠/٩/١٣ موعداً لإعلان الدولة الفلسطينية، وذلك بعد عودته ولقائه بالرئيس مبارك. وما أسرع ما رد الرئيس كلينتون في تصريحاته للاذاعة الاسرائيلية محذراً من عواقب ذلك، التي تتجاوز

المنطقة إلى العالم. والحق أن الأسابيع الستة الباقية حبلى، ولابد من أن نستنفر فيها جهودنا كي نواجه العدوان الصهيوني والتحيز الأمريكي له، ونصمد في معركة الحفاظ على حقوقنا ورفض اتفاق املاء بشأنها وفي قضية القدس بخاصة.

هكذا يبرز أمامنا بقوة سؤال «ما الذي ينبغي أن نعمله نحن أبناء الدائرتين العربية والاسلامية، مسيحيين ومسلمين لقدسنا وفلسطيننا في هذه الفترة في ضوء ما كشفت عنه مفاوضات كامب دافيد الثانية؟

الاجابة عن هذا السؤال تقتضي منا الوقوف أمام ما اسفرت عنه هذه المفاوضات واستحضار ما جرى فيها وتحليله.

لقد قدّم لنا البيان الذي صدر عن البيت الأبيض مساء الثلاثاء ٧/٢٥ عصارة ماتم الاتفاق عليه في خمسة بنود. أولها يتعلق بهدف المفاوضات وهو «وضع حد لعقود من الصراع، وتحقيق سلام عادل وشامل» ونقف امام «سلام عادل» ونستذكر التعبير حين نأتي لحديث المفاوضات والمواقف الأمريكية من القضايا المختلفة فيها لنتبيّن كيف يفهم الرئيس كلينتون تعبير «سلام عادل». والبند الثاني يتعلق بالمدى الزمني للتوصل لاتفاق «يلتزم الجانبان بمواصلة جهودهما للتوصل لاتفاق بشأن جميع مسائل الوضع الدائم بأسرع وقت ممكن». والبند الثالث يذكّر بأساس التفاوض وهو قرار ٢٤٢ وقرار ٣٣٨. والأول فقد مضمونه فعلياً حين اعطت امريكا «لاسرائيل» أن يفسّره كل طرف على هواه، فاعتبرته «اسرائيل» غير منطبق على الضفة والقطاع بلْه القدس. بينما يتمسك الطرف الفلسطيني بالتفسير العربي والدولي له وهو الانسحاب من كل الأراضي العربية المحتلة عام ١٩٦٧ انسجاماً مع مبدأ «عدم جواز الاستيلاء على الأراضي بالقوة» الوارد في مقدمة القرار. ويتضمن البند الثالث اعتبار «المحادثات هي السبيل الوحيد للتوصل إلى مثل هذا الاتفاق»، وتعهُّد الجانبين «بايجاد مناخ للمفاوضات يخلو من الضغوط والتخويف والتهديد بالعنف». وكأن «الراعي» الأمريكي للمفاوضات مدرك أن سلوكه اسهم في تكوين مثل هذا المناخ. ولذا فقد جاء البند الرابع «يدرك الجانبان أهمية تجنب الافعال المنفردة التي تتضمن استباق نتائج المفاوضات، والا تُحلَّ خلافاتهما الا من خلال مفاوضات تتسم بحسن النوايا». وينص البند الخامس على اتفاق الجانبين على أن تظل الولايات المتحدة شريكاً حيوياً، وعلى التشاور عن كثب في المرحلة المقبلة مع الرئيس كلينتون ووزيرة الخارجية اولبرايت.

حين نتمعن فيما بين سطور هذا البيان وما وراءها نصل إلى أن الادارة الأمريكية تستشعر من جهة نوعاً من الفشل بسبب عدم التوصل إلى اتفاق، وتتحسب من أن يؤدي ذلك إلى تفجر عنف وافعال من جانب واحد يتخذها أحد الطرفين، وبخاصة الطرف الفلسطيني الذي مارست عليه ضغوطاً ليقبل حلاً عنصرياً لقضية فلسطين وحلاً اسرائيلياً لقضية القدس، وفي اعتبارها ايضاً متطلبات السنة الانتخابية امريكياً.

جاءت تصريحات الرئيس كلينتون لتسلط أضواء كاشفة على هذا البيان، وتكشف عن التحيز الامريكي لإسرائيل، ولتشي بسعيه إلى ارضاء الصوت اليهودي في الانتخابات من أجل المرشح الديموقراطي آل جور للفوز بالرئاسة، وزوجته المرشحة عن مقاطعة نيويورك ذات الثقل اليهودي للفوز بعضوية مجلس الشيوخ. فقد أشاد بما أسماه «الخطوات الشجاعة جداً التي اتخذها باراك». وحين سئل عما اذا كان بذلك يطالب عرفات بالتخلي عن القدس، رد بقوله «كلا أنا لم أقل ذلك. ان الفلسطينيين تقدموا إلى الأمام في مواقفهم، ولكن الاسرائيليين قدموا اكثر. مرة أخرى أقول إنني لا أدين عرفات. أنا أثني على باراك. وسوف أخطىء اذا لم أثنِ على باراك، لأني اعتقد أنه اتخذ مجازفة كبيرة، اشعلت في اسرائيل نقاشاً حقيقياً». (!!) وعاد كلينتون في اليوم التالي الأربعاء ٧/٢٦ ليعلن أنه مقتنع بأنه «لايزال هناك مجال لحل وسط مشرف بين الاسرائيليين والفلسطينيين». ونقف امام تعبير «حل وسط مشرف» كما وقفنا أمام تعبير «سلام عادل»، لنرى مفهومه عند الادارة الامريكية. ثم جاءت تصريحات كلينتون يوم الجمعة ٧/٢٨ للقناة الأولى في التلفزة الاسرائيلية التي قال فيها انه يدرس أمر نقل السفارة الأمريكية إلى القدس الغربية، وحذّر من قيام رئيس منظمة التحرير الفلسطينية بإعلان دولة فلسطين منفرداً، وهدد بالرد بقطع المساعدات عن السلطة الفلسطينية. وكان كلينتون في تصريحاته الأولى إثر انفضاض قمة كامب دافيد قد صرح بما وصفه بأنه «خبر سار» مفاده «أنه لاتوجد هناك خلافات كبيرة بين الطرفين «حول الحقائق التى ستبرز على الأرض بعد الاتفاق» وضرب مثلاً على ذلك «قبول الطرفين بأن تكون القدس مدينة مفتوحة للجميع وغيرها من القضايا العملية».

هكذا يتضح لنا ما أسفرت عنه المفاوضات خلال اسبوعين: اتفاق على اجراءات أمنية وما وصفه كلينتون بالقضايا العملية، وعدم التوصل إلى اتفاق بشأن السيادة الفلسطينية على القدس الشرقية، وحرص من واشنطن على متابعة التفاوض بأسرع وقت ممكن للتوصل إلى اتفاق.

نأتي إلى استحضار ما جرى في مفاوضات كامب دافيد الثانية.

يتداعى إلى الخاصر بين يدي استحضار ما جرى في هذه الحلقة، بقية حلقات سلسلة ما قبل التفاوض في مدريد التى ادارها جيمس بيكر عام ١٩٩١، وبعد مدريد عام ١٩٩٢، وتلك الحلقات التي جرت في فترة رئاسة كلينتون الأولى بين ٩٣ و٩٧ وتتضمن ما قبل اوسلو في واشنطن ثم التوقيع على اتفاق اوسلو ٩٣، ثم اتفاق غزة — اريحا ٩٤/٥، ثم اتفاق اوسلو الثاني ٩٥/٩، ثم بروتوكول الخليل ٩٧/١ ثم مذكرة نهر واي ٩٨/١٠. ولقد نصت هذه الأخيرة فيما نصت على مباشرة مفاوضات الوضع النهائي (الدائم) في مطلع عام ٩٩. وحدث في ربيع ٩٩ أن اصدرت الخارجية الأمريكية بياناً من نقاط أربع تلته زيارة الرئيس كلينتون إلى قطاع غزة ليشهد في المجلس المركزي الفلسطيني الغاء موادٍ في ميثاق المنظمة وليخطب طارحاً خطوط سياسة ادارته بشأن مصير الفلسطينيين. ويوم ذاك اعتبر كاتب هذا الحديث أننا مقبلون في الصراع العربي الصهيوني على «عام خاص» سوف تكشف فيه ادارة الرئيس كلينتون جهودها لابرام اتفاق السلام الاسرائيلي الفلسطيني، وفق شريط مشاهد تبلور لديها. وكان أول مشهد في الشريط فوز يهودا باراك في الانتخابات الاسرائيلية في ٩٩/٥، وتلاه مشهد زيارته لواشنطن في ٩٩/٧ بعد أن رتب وضعه الداخلي ليناقش خريطته مع الادارة الامريكية. ووقعت قمة شرم الشيخ الاسرائيلية الفلسطينية في ٩٩/٩ لتنظر في كيفية تناول القضايا الأربع للحل النهائي الحدود واللاجئون والمستوطنات والقدس.

حرصت الادارة الامريكية على أن تُحضر لقمة كامب دافيد الثانية، بايفاد مسؤولين منها إلى منطقتنا، شأنها مع الحلقات السابقة. وهكذا جاء «روس» وتلته «اولبرايت». وسارت الادارة في التحضير على عادتها في كل حلقات التفاوض السابقة، أن تتلقى الأفكار الاسرائيلية وتحاول «اقناع» الطرف الفلسطيني بها، فإن لم يجد الاقناع عمدت إلى الضغط. وقد وفق الأخر صخر حبش (ابو نزار) في وصفه لهذه «العادة» في مقاله بالاهرام يوم ٢٠٠٠/٧/٢٦ حين قال «لم تفاجئنا المعلومة التي تسربت من داخل قمة كامب دافيد والمتعلقة بالمبادرة التي اقترحها دينيس روس لجسر الفجوة بين الموقف الاسرائيلي والموقف الفلسطيني. لقد عودنا السيد روس على التدخل في الوقت الملائم للوبي الصهيوني لاحداث الصدمة. فالموقف الذي اقترحه روس هو موقف الوسيط. وعندما يتطابق هذا الموقف مع الموقف الاسرائيلي، فإنه بذلك لايعمل على

جسر الفجوة وانما بهدف الضغط على الجانب الفلسطيني للتنازل عن حقوقه». وهكذا رأينا روس يأخذ في الاعتبار فيما صاغه ليكون ورقة البحث في كامب دافيد الثانية لاءات باراك الأربعة التي اعلنها إثر انتخابه بشأن القضايا الأربع وهي لاعودة لحدود الرابع من حزيران – يونيو ١٩٦٧، ولا لإزالة المستوطنات اليهودية، ولا لحق العودة للاجئين الفلسطينيين، ولا للسيادة الفلسطينية على القدس الشرقية وانما حكم ذاتي لبعض الاحياء فيها» كما رأينا روس يتبنى ما عرضه المفاوض الاسرائيلي عميرارن بشأن تفاصيل الحل. وكان روس قد فعل مثل ذلك عام ١٩٩٦ وعام ١٩٩٨.

لقد قصدت الادارة الأمريكية اختيار كامب دافيد مكاناً لإجراء المفاوضات. وللمكان ذكرياته التي تعود بنا إلى شهر ايلول – سبتمبر من عام ١٩٧٨ حين جرت المفاوضات بين الرئيس السادات ومناحيم بيغين في عهد الرئيس الأمريكي جيمي كارتر وانتهت، بعد حدوث اكثر من أزمة خلالها، بتوقيع اتفاق كامب دافيد الشهير. وحين ننظر في مسار مفاوضات كامب دافيد الثانية على مدى اسبوعين كاملين، نجد أنها شهدت شدَّ أعصاب قبيل مغادرة كلينتون إلى اليابان لحضور قمة الدول الصناعية في نهاية الأسبوع الأول، ولكنها استمرت في غيابه، ثم لم يعد ممكناً أن تستمر في نهاية الأسبوع الثاني حين تمسك باراك باغتصاب القدس الشرقية وفي قلبها المدينة القديمة، وتحيَّز له كلينتون، وبان بوضوح الحل العنصري الذي يقدمه باراك الصهيوني ويؤيده كلينتون الأمريكي. ولم يجد التعتيم الاعلامي ولا العزل ولا الترغيب والترهيب في اقناع القيادة الفلسطينية به. فما هي ملامح هذا الحل؟

يمكننا حين نتأمل في النقاط الثمانية عشرة التي تقدم بها الوسيط الامريكي وترددت في وسائل الاعلام أن نرى هذه الملامح.

عنوان الحل اقامة دولة فلسطينية تكون لها حدود متفق عليها بينها وبين اسرائيل. ونقف في العنوان أمام «حدود متفق عليها بينها وبين اسرائيل»، فنرى أن هذه الحدود تتحدد من خلال المفاوضات التي كانت كامب دافيد الثانية آخر حلقاتها.

العنصر الأول في أية دولة هو الأرض. وأحد البنود في مشروع الحل ينص على أن اسرائيل تنسحب من ٩٥٪ من الضفة الغربية. وهذه النسبة تكون للدولة الفلسطينية وهي تقل عن ستة آلاف كيلومتر مربع ويضاف إلى هذه المساحة قطاع غزة الذي يمكن أن

يجري تبادل المستوطنات الصهيونية فيه مع الخمسة بالمائة من الضفة لتضم إلى الكيان الاسرائيلي. ومساحة القطاع هي حوالي ٣٦٠كم٢ فتكون المساحة الكلية للدولة حوالي ستة آلاف وثلاثماية كيلو متر مربع.

أرض الدولة هذه غير متصلة في جزئيها الضفة والقطاع. ولذا فإن احد البنود ينص على شارع ممر آمن يصل بينهما فوق «جسر علوي». وقد فصل الاستيطان الصهيوني في منطقة القدس بين جنوب الضفة وشمالها. ولذا فإن بنداً آخر ينص على شارع من بيت لحم إلى رام الله يمكن فيه المرور الحر للفلسطينيين.

العنصر الثاني هو السكان. وعددهم في الضفة والقطاع حوالي ثلاثة ملايين نسمة. وهؤلاء يمثلون نسبة ٤٠٪ من مجموع شعب فلسطين العربي الذي يضم مليوناً وربع مليون فلسطيني في الجزء المحتل من فلسطين عام ١٩٤٨ وحوالي أربعة ملايين ونصف فلسطيني في خارج فلسطين أخرجتهم الغزوة الصهيونية الاستعمارية، وهم يتطلعون إلى العودة لوطنهم. وينص أحد البنود على «أنه يمكن استيعاب نحو نصف مليون لاجئ تدريجياً في الدولة الفلسطينية». وفيما يتعلق بقضية اللاجئين هناك بند تعترف اسرائيل فيه بمعاناة اللاجئين وليس بمسؤوليتها عن هذه المعاناة «وتستوعب عشرات آلاف من اللاجئين في اطار جمع شمل العائلات». وبند آخر يتحدث عن توطين بقية اللاجئين في أماكن سكناهم «واقامة اطار دولي لتعويضهم وتأهليهم» فيها تشارك اسرائيل في تمويله. وهكذا يعالج هذا الحل قضية اللاجئين، بتوطين غالبيتهم في تجمعات لجوئهم. ولم يتطرق إلى مواقف دول عربية مضيفة لهم الرافض للتوطين.

العنصر الثالث في الدولة هو الحكومة وسيادتها على أرضها. ومعلوم أن الاحتلال الاسرائيلي قصد أن يملأ الضفة والقطاع بالمستوطنات الصهيونية، وهي القضية الثالثة من قضايا الوضع النهائي، وينص أحد البنود على «أن يتمتع الاسرائيليون بحركة حرة في المحاور المؤدية إلى المستوطنات». كما ينص بند آخر على أن «الدولة الفلسطينية لاتقيم جيشاً مسلحاً بأسلحة ثقيلة وسلاح جو». ويتلوه بند ينص على أن «يتمتع الاسرائيليون بحرية الطيران في المجال الجوي للدولة الفلسطينية». ويتلوه بند ينص على استطاعة الجيش الاسرائيلي أن ينشر قواته في غور الأردن في حالة خطر عسكري من الشرق». ويتلوه بند يسمح لاسرائيل بتشغيل محطات انذار في الجبال الوسطى.

لعاصمة الدولة أهمية خاصة، فكيف حين يكون الأمر متصلاً بالقدس؟!! ومشروع الحل قسّم القدس إلى ثلاث مناطق: المركز ويشمل ما هو داخل السور بالبلدة القديمة، والدائرة وتشمل الاحياء القريبة من البلدة القديمة وعلى بعد ٢ كم منها، والمحيط ويشمل المناطق داخل حدود بلدية القدس التي جرى توسيعها. وينص احد بنود المشروع على أن الفلسطينيين في المركز والدائرة يتمتعون بحكم ذاتي اداري مدني واسع. وهذا يعني ابقاؤهما تحت الاحتلال الاسرائيلي الذي يصر على جعل القدس الموحدة عاصمة أبدية له (كذا !!) وينص بند آخر على «أن يحصل الفلسطينيون على شارع مرور حر إلى الحرم». وينص بند ثالث على ضم مستوطنات معالي أدويم وجعفات زئيف الموجودة في الضفة إلى القدس مقابل احياء عربية شمال المدينة تضم إلى أرض الدولة الفلسطينية. وينص بند آخر على «ادارة دينية للأماكن المقدسة». وهكذا ينتهي الحل بأن تكون السيادة السياسية في القدس الكبرى للكيان الاسرائيلي العنصري، ويبقى المسجد الاقصى وكنيسة القيامة في ظل أسر الاحتلال ومعهما أهلنا عرب القدس.

هذه هي ملامح الحل العنصري الاسرائيلي الامريكي الذي تم طرحه في كامب دافيد. وهذا ما أسفرت عنه المفاوضات التى توقفت بسبب تمسك القيادة الفلسطينية بالسيادة الكاملة على القدس الشرقية التي تشمل البلدة القديمة. وهكذا يواجهنا سؤال ماذا علينا أن نعمل لانقاذ القدس وتحرير فلسطين.

الصمود في مواجهة التحيز الأمريكي

في الاجابة عن سؤال «ما الذي ينبغي أن نعمله نحن ابناء الدائرتين العربية والإسلامية، مسيحيين ومسلمين لمواجهة ما كشفت عنه مفاوضات كامب دافيد الثانية بشأن حل قضية فلسطين بعامة وقضية القدس بخاصة؟» نقف بداية أمام أمور ثلاثة من بين أمور كثيرة تكشفت.

الأمر الأول هو تشبث الكيان الاسرائيلي بمنطق فرض الأمر الواقع بالقوة لتكريس الحل العنصري لقضية فلسطين، واعتماد التفاوض الذي يحكمه هذا المنطق وسيلة لابرام اتفاقات إملاء لا مكان للحق ولا للعدل فيها.

الأمر الثاني هو استمرار الولايات المتحدة الأمريكية في دعم السياسة الاسرائيلية العدوانية التوسعية، وموافقتها من حيث المبدأ على الحل العنصري الصهيوني لقضية

فلسطين وما يخص القدس فيه بخاصة، ومساندة «واشنطن» المفاوض الاسرائيلي في المفاوضات من خلال قيام الادارة الامريكية بدور «الحكَم» بغية اكراه المفاوض الفلسطيني على الأذعان.

الأمر الثالث هو إمكان الصمود الفلسطيني العربي الاسلامي في المدى القصير، وإمكان ازدياده في المدى المتوسط، لفتح الطريق أمام احترام الشرعية الدولية التي تعاني من عدم احترام واشنطن لها، وللوصول بالولايات المتحدة إلى مراجعة سياستها بشأن قضية فلسطين وقضية القدس وتغيير هذه السياسة لتأخذ في الاعتبار الحق والعدل، وللانتهاء باليهود الصهاينة إلى نبذ الصهيونية العنصرية.

لقد تجلى الأمر الأول بوضوح قبل مباشرة مفاوضات كامب دافيد الثانية حين أكد يهودا باراك لاءاته الأربعة «لاعودة لحدود ١٩٦٧/٦/٤، لا ازالة للمستعمرات الاستيطانية الصهيونية في الضفة الغربية وقطاع غزة، لا لعودة اللاجئين الفلسطينيين، لا للانسحاب من القدس الشرقية». وتجلى أثناء التفاوض حول القضايا الأربع المتعلقة بالوضع النهائي، حيث كانت الاقتراحات الاسرائيلية شكلية لاتمس جوهر «اللاءات». وبدت في قضية القدس صارخة في شكليتها حين تمسك المفاوض الاسرائيلي بالسيادة على البلدة القديمة داخل السور، أي على كنيسة القيامة وشقيقاتها والمسجد الاقصى وقبة الصخرة ومسجد عمر بن الخطاب.

يتداعى إلى الخاطر عند الحديث عن منطق فرض الأمر الواقع الذى حكم المفاوض الاسرائيلي ما قاله في شرح هذا المنطق يهودي صهيوني بارز في ندوة دولية عن القدس في خريف عام ١٩٩٨، مخاطباً العرب مسلمين ومسيحيين «لم تستطيعوا طوال واحد وثلاثين عاماً أن تستعيدوا القدس الشرقية بقوة السلاح، ولن تستطيعوا لأننا أقوى منكم، ولم توصلكم قرارات الأمم المتحدة واحاديثكم عن القانون الدولي الخاصة بالقدس إلى شيء، ولن توصلكم لأن الولايات المتحدة تساندنا، ليس امامكم إذاً الا ان تقبلوا الأمر الواقع وتعالوا نعمل معاً «شغلاً» Business في القدس يدر علينا وعليكم مالاً وخيراً». وقد تلاه زميل له قدم نفسه على أنه ينتمي لحركة السلام الآن، فشرح كيف يمكن أن يشارك أهل القدس الشرقية الفلسطينيين العرب في ادارة بعض أحياء المدينة واسهب في الشرح، وحين سأله رئيس الجلسة «وماذا عن السيادة على القدس

الشرقية؟» أجاب «لابحث في مسألة السيادة لأنها لن تكون الا لاسرائيل فالقدس عاصمتها الابدية الموحدة» (كذا !!!)

هذا الأمر الأول وثيق الصلة بالأمر الثاني. وما كان يمكن للصهاينة أن يتشبثوا بمنطق فرض الأمر الواقع لولا أنهم مدعومون مسنودون من الولايات المتحدة الامريكية التي اعتمدت الكيان الاسرائيلي قاعدة استعمارية استيطانية عسكرية لتنفيذ استراتيجيتها في منطقة وطننا العربي ودائرتنا الحضارية الاسلامية. والحق أن هذه الاستراتيجية الأمريكية هي أعظم تحد واجه أمتنا منذ الحرب العالمية الثانية على الصعيد الخارجي، لأن واشنطن اعتمدت في استراتيجيتها تبني الكيان الاستعماري الاستيطاني الصهيوني الذي أوجدته بريطانيا في فلسطين سبيلاً رئيسياً للتحكم في دول المنطقة. وقامت من اجل ذلك بدعمه ومساندته منذ مؤتمر بالتيمور عام ١٩٤٢، فكانت الولايات المتحدة الامريكية أول من اعترف «بدولة اسرائيل» يوم أعلنها الصهاينة في مايو-آيار ١٩٤٨، وكانت واحدة من ثلاث دول غربية استعمارية اصدرت التصريح الثلاثي عام ١٩٥٠ لحماية «اسرائيل» مع بريطانيا وفرنسا، وكانت المساهم الأكبر في تثبيت الكيان العنصري الصهيوني ضمن خطوط الهدنة حتى عام ١٩٦٧ وتزويده بالمال والسلاح والمهجرين اليهود. ثم كانت وراء انتصاره في حرب حزيران - يونيو ١٩٦٧، وانتهجت منذ ذلك الحين سياسة تمكينه من استمرار احتلال الأراضي العربية في سيناء والجولان والضفة الغربية وقطاع غزة والقدس ثم جنوب لبنان، وصولاً إلى فرض تسويات على الدول العربية لا مكان للحق ولا للعدل فيها. وقد استطاعت الولايات المتحدة الامريكية بعد زلزالي أوروبا الشرقية والخليج أن تصبح «راعية» عملية «سلام الشرق الأوسط» التي «صممتها» وباشرتها منذ مؤتمر مدريد يوم ١٩٩١/١٠/٣٠، وواجهت الدول العربية بأنها «الخصم والحكم».

لقد تجلى هذا الأمر الثاني «الدعم والمساندة الامريكيين لاسرائيل» في كل خطوة في عملية التسوية على مدى سنواتها. وتجلى اكثر ما تجلى في مفاوضات كامب دڤيد الثانية، حين تبنّت الادارة الامريكية الاقتراحات الاسرائيلية في خطوطها الرئيسية، ثم حين اسقط الرئيس كلينتون آخر اقنعة «الحكم» وكشّر عن أنياب «الخصم» في قضية القدس. وبدا واضحاً أن امريكا اعتمدت الحل العنصري الصهيوني لقضية فلسطين، وأنها تسعى لحلٍ لقضية القدس من بين أهدافه «اذلال» العرب مسيحيين

ومسلمين ومعهم المسلمون بعامة والمسيحيون الارثوذكس وكثيرون من المسيحيين الكاثوليك وغيرهم، مستجيبة لمزاعم المسيحيين الصهاينة الامريكيين الذين يريدون اغتصاب القدس.

كان من ابرز ما حدث في مفاوضات كامب دافيد الثانية تجلّي إمكان الصمود الفلسطيني العربي الاسلامي رفضاً لهذا الاذلال وتمسكاً بالسيادة الفلسطينية على البلدة القديمة في القدس. وقد نجح هذا الصمود في عدم الاذعان لاتفاق الاملاء الذي وضع كلينتون الرتوش الأخيرة عليه بشأن القدس ووضعت خطوطه الرئيسية حكومة باراك ووزيرة الخارجية الامريكية اولبرايت.

ما هي العوامل التي تفاعلت لتحقيق هذا الصمود؟ الاجابة عن هذا السؤال ضرورية لتحديد ما يمكننا عمله في الأيام القادمة حتى يوم ٢٠٠٠/٩/١٣ الذى حددته الاتفاقات وتمسكت به القيادة الفلسطينية موعداً لاعلان الدولة، وفي المدى المتوسط للصراع.

هناك أولاً عامل فلسطيني شاركت في صنعه مختلف فئات الشعب داخل الوطن المحتل وخارجه، مسلمين ومسيحيين، حين جهروا بموقف التمسك بالقدس والمقدسات، قد عبّر كل منهم بطريقته، وكان تعبير الاخوة المسيحيين الارثوذكس بالغ التوفيق في تفنيد المزاعم الاسرائيلية وفي تأكيد موقعهم من شعبهم وقيادته. وشارك في هذا العامل ايضاً استشعار القيادة بمسؤوليتها التاريخية بشأن القدس التي هي لكل العرب مسلمين ومسيحيين ولكل المسلمين والمؤمنين، وادراكها معنى التوقيع على اتفاق وضع نهائي، وتواصلها مع قيادات عربية.

هناك ثانياً عامل عربي شاركت في صنعه مختلف الدول العربية بدرجات متفاوتة وبأساليب شتى حكومات وشعوباً. وكانت تصريحات د. اسامة الباز التي اوضحت أن موضوع القدس ليس خاصاً بالفلسطينيين وحدهم بل بالعرب والمسلمين ايضاً رسالة واضحة للمجتمعين في كامب دافيد. وجاءت زيارة الرئيس مبارك إلى المملكة العربية السعودية لتقدم تعبيراً عملياً على انشغال الدولتين بالموضوع وتمسكهم بالسيادة الفلسطينية على البلدة القديمة. وقد كان لإلغاء المغرب زيارة وفد منه إلى الكيان الاسرائيلي لحضور تأبين للمرحوم الحسن الثاني معنى له دلالته. كما كان هناك تعبيرات

أخرى أسهمت في التأثير. ويبدو أنه كان لهذا العامل العربي تأثير قوي، وكان لمصر دور خاص فيه، الأمر الذي جعل الصهيونية الامريكية تستهدفهما بحملة ضارية من امثلتها مقال توماس فريدمان في نيويورك تايمز.

هناك ثالثاً عامل اسلامي شاركت في صنعه دول اسلامية بدرجات متفاوتة حكومات وشعوباً. وبرز فيه الموقف الايراني الذي أعلن رفض السيادة الاسرائيلية على القدس.

هناك رابعاً عامل دولي ظهرت بوادره الأولى، ومن امثلته تململ الڤاتيكان من فكرة السيادة الاسرائيلية على القدس.

لقد تفاعلت هذه العوامل معاً، وأثمرت إمكان صمود فلسطيني عربي اسلامي في وجه التحيز الامريكي، يستطيع أن يجذب اليه دولاً مؤثرة على الصعيد الدولي. وهذا ما يدعونا إلى ان نركز في عملنا على المدى القصير والمدى المتوسط على هذه العوامل الأربعة بغية مواجهة التحيز الامريكي ومنطق فرض الأمر الواقع الاسرائيلي في قضية القدس بخاصة وقضية فلسطين بعامة.

ما الذي يمكننا أن نعمله كي ننجح في هذا المواجهة؟

إن أول ما ينبغي عمله هو التمسك بالشرعية الدولية أساساً للحل في قضية القدس وقضية فلسطين بعامة. وهذا يعني رفض منطق الأمر الواقع الاسرائيلي، وكشف الموقف الامريكي المتحيز له وفضحه دولياً. وهو يعني ايضاً التمسك بقرارات الأمم المتحدة الخاصة بالقدس والتشبث بالسيادة الفلسطينية الكاملة عليها.

علينا ايضاً أن نُذكِّر بكل حقوقنا في القدس كلها الغربية والشرقية وأكنافها. وذلك كي نفند المزاعم الاسرائيلية، ونبين فساد شعار «حل وسط مشرف» الذي طرحه الرئيس كلينتون وعنى به تكريس الاغتصاب الاسرائيلي للقدس مع منح حكم ذاتي تحت السيادة الاسرائيلية للفلسطينيين في بعض أحياء المدينة القديمة. ذلك أن واشنطن كما رأينا تحصر حلها في «القدس العتيقة» بعد أن كرست الاغتصاب الاسرائيلي للقدس الغربية ولمعظم القدس الشرقية ولمحيط القدس كما رأينا.

علينا من ثم أن نحصر أوراقنا التي يمكن استخدامها للوصول بالولايات المتحدة

الامريكية إلى مراجعة موقف التحيز الذي تقفه، وإلى ادراك أن معركة القدس بيننا وبينها ممتدة لأننا لن ننسى حقوقنا في قدسنا ولن نغفر للاحتلال الذي أسر مقدساتنا ولا لمن مكنه. وواضح أن كل دولة عربية تملك نصيباً من هذه الأوراق ومثلها كل دولة اسلامية. ويبقى أن تنجح فيما بينها في التنسيق لتحقيق التكامل.

لقد ادركت واشنطن ما تفجر من غضب عربي على موقفها المتحيز، فسارعت إلى ارسال مندوب لزيارة الدول العربية ليشرح ما حدث في كامب دافيد. وان لنا ان نتوقع أن يسمع ما ينبغي أن يسمعه.

إن منطق فرض الأمر الذي تعتمده الصهيونية وتدعمها فيه الولايات المتحدة الامريكية وتساندها لا يغيره الا منطق المقاومة بمعناها الشامل. وإن لنا أن نتوقع تصعيد المقاومة ضد الاحتلال وضد الهيمنة الامريكية داخل فلسطين وخارجها.

وبعد ..

فإن عبرة ما حدث في كامب دافيد الثانية في قضية فلسطين وقضية القدس هي أن التفاوض المجرد من قوة المقاومة لايأتي لصاحب الحق الا باتفاقات إملاء لا مكان للحق ولا للعدل فيها، وأن السبيل الوحيد لاستعادة الحق هي استمرار المقاومة وصولاً إلى تحرير فلسطين والقدس فلن يعيد حقوقنا فيهما الا «التحرير». فليرتفع اذاً شعار تحرير فلسطين والقدس عالياً. ولنوطن انفسنا على متابعة الجهاد.

خواطر وأفكار واحد من أبناء الحضارة العربية الاسلامية حول قضية القدس

اسجل بداية أنني أشعر بمرارة وانا اتابع أخبار قضية القدس في آخر صيف عام ٢٠٠٠م الموافق ١٤٢١هـ. كما أنني أعيش مع خواطر وأفكار تتدافع وتتزاحم. وأراني أجد صعوبة في متابعة الكتابة حول هذه القضية، وعلى مدى أيام الأسبوع المنصرم كنت أجلس وامسك بالورق واحمل القلم وأُطيل التأمل ثم اكتب كلمات في مسوّدة وأضعها جانباً. وحين يتطرق الحديث في محافل علمية للقضية أجدني أعرض بعض خواطري وافكاري. وقد تكرر ذلك ثلاث مرات في أسبوع.

شطر من بيت شِعر مشهور لأبي الطيب المتنبي لا أفتأ أردده اثناء متابعتي اخبار قضية القدس. «ماكنتُ أحسبني أحيا إلى زمن». ذلك أننا في زمن أصبحت مقدساتنا المسيحية والاسلامية في القدس محل «تفاوض» في «عملية تسوية» يشرف عليها امريكي هو «خصم وحكم» ويفاوضنا فيها صهيوني مغتصب محتل يريد أن يملي علينا «اتفاق اذعان» نسلِّم له فيه بالسيادة على مقدساتنا هذه.

أُسائل نفسي «لماذا لاتفتأ تردد شطر البيت يارجل؟ ألم تكن واحداً من أولئك الذين نبهوا منذ أن بدأت عملية التسوية الجارية في مدريد عام ١٩٩١ وعمدت الولايات المتحدة فيها إلى «تأجيل» قضية القدس وقضايا اللاجئين والاستيطان والحدود، الى أن الغرض من هذا «التأجيل» هو تمكين العدو الاسرائيلي من تهويد القدس ومن ثم من تكريس سيطرته عليها؟ ألم تكتب ألف صفحة في كتابين حول ذلك؟ الأمر لم يكن مفاجئاً اذا «لأن الذي يعرف من أين يعرف إلى أين» على حد قول أحد علماء التاريخ. فلماذا لاتفتأ تردد «ماكنت أحسبني أحيا إلى زمنٍ»؟ وأجدني أجيب «لأن هناك فرقاً بين توقع الكارثة ووقوعها، وبين تشوف المستقبل وحدوثه».

كنت من القلة التي توقعت الا تنتهي «كامب دافيد الثانية» الى «الفشل» الذي ينهي التفاوض ويفجر الصراع، وأن تبرز عقبات تطيل أمد المفاوضات. وهذا ما حدث. وها هي المفاوضات مستمرة. وهي مركزة اليوم كما يتحدث «الإعلام الغربي الموجه» على السيادة على الحرم المقدسي لمن تكون؟ ودلائل كثيرة تشير، كما أوضحت في مقال كتبته، أن الاتفاق تمّ على جلّ الأمور الأخرى بما يؤكد أنه بالنسبة لحقوقنا «اتفاق مملى». ومع كل يوم يمضي في هذه المفاوضات تطالعنا أخبار تبعث على القلق الشديد. فمسؤولو العدو يتابعون تصريحاتهم حول تمسك «اسرائيل» بالسيادة على الحرم القدسي الذي يطلقون عليه اسم «جبل الهيكل». وهم يجاهرون برفض اعتماد قرار ٢٤٢ مرجعية «فهذه اقوال من الماضي»!! ويعتمدون المقترحات الامريكية الاسرائيلية التي تم طرحها اساساً، وهي تتحدث عن تقسيم السيادة على الحرم. واقرأ اليوم ٩/٢١ أن السلطة الفلسطينية اعلنت على لسان مندوبها في الأمم المتحدة أنها تقبل سيطرة اسرائيلية على حائط المبكى، وأتصور ما يتعرض له المفاوض الفلسطيني من ترهيب وترغيب. وانتهى من ذلك كله إلى أمرين. الأول هو ماينبغي عمله على المدى القصير أي هذه الأيام وهو حث المفاوض الفلسطيني على الصمود على موقفه المتمسك بالسيادة على القدس الشرقية كلها وبحقوقه التي اقرتها الشرعية الدولية في القدس الغربية، وتوفير الدعم والمساندة له عربياً واسلامياً، لعله يكون ممكناً تحقق سيادته على الحرم القدسي. وهذا موقف يقفه الجميع ومنهم من عارض «أوسلو» وتوقع حصادها المر. والأمر الآخر هو التحضير لما ينبغي عمله إن فرض التحالف الامريكي الاسرائيلي «اتفاق املاء» بشأن القدس بعامة والمقدسات بخاصة يلبي فيما يلبي بالنسبة اليه فضلاً عن مصالحه الاستعمارية مشاعر الحقد التاريخي تجاه حضارتنا الذي عبّر عنه «اللنبي» حين دخل القدس و«غورو» حين دخل دمشق. وشعار ماينبغي عمله هو «المقاومة» والاعتصام بها وتصعيدها «فما أخذ بالقوة لايسترد الا بالقوة».

هذا يعني اننا على ابواب مرحلة جديدة في الصراع العربي الصهيوني الممتد. وقد دخل هذا الصراع قرناً ثانياً. وأراني استذكر مشاهد في شريط الصراع ويلح عليّ وأنا افكر في المسجد الاقصى وقبة الصخرة ذلك البيت الذي قاله الشهيد عبد الرحيم محمود مخاطباً المرحوم سعود بن عبد العزيز حين زار فلسطين في عام ١٩٣٥

المسجد الاقصى أجئت تزوره ... أم جئت من قبل الضياع تودعه

وأعود إلى ديوان شعر الشهيد عبد الرحيم محمود فأجد القصيدة «نجم السعود» واقرأ البيت السابق والبيت اللاحق

ياذا الأمير امام عينك شاعر ضمت على الشكوى المريرة اضلعه
حرم تباح لكل أوكع آبق ولكل أفاق شريد أربعه

ويلح علي أيضاً أن أعود إلى كتاب «حقائق عن قضية فلسطين» الذي يضم تصريحات ادلى بها المرحوم الحاج أمين الحسيني رئيس الهيئة العربية العليا ومفتي فلسطين اثر نكبة فلسطين، وأبحث عن صورة بعينها فأجدها وهي تصور المسجد الاقصى وقد رسم الصهاينة سيطرتهم عليه توطئة لبناء هيكل يهودي مكانه. واقرأ ما أورده المفتي في شرح حقيقة الحركة الصهيونية واهدافها وفي تنبيه قومه لخطرها على مختلف الدول العربية و«إن الرائد لايكذب أهله».

تشدني هذه العودة إلى ركن الصراع العربي الصهيوني في مكتبتي لمراجعة كتب أخرى كثيرة حوله. وأدرك أنني ألبي نداء داخلياً للحفاظ على الذاكرة التاريخية الذي تشتد الحاجة اليه في مرحلة الصراع الجديدة. وأتأمل في ظاهرة تزايد عدد الندوات التي تعقد حول القدس فأجد أنها تعبر من جهة على القلق المتزايد في اوساطنا عليها، وعلى الرغبة في القيام بواجب ازاءها فإن لم يكن ممكناً تغيير المفكر باليد فلا أقل من أن ننكره باللسان، وهي في محصلتها ظاهرة ايجابية. ومن المتوقع أن تكثر المؤلفات التي تؤكد حقنا في القدس وتعبىء لتحريرها، مثلما حدث حين احتلها الفرنج قبل ثمانية قرون فقام علماؤنا بتأليف كتب كثيرة عن فضائل بيت المقدس كان لها دورها في التعبئة كما لاحظ المستشرق كراتشكوفسكي الذي كتب عن الأدب الجغرافي العربي.

في خضم تحركنا للدعوة إلى التمسك بالسيادة على القدس الشرقية لكونه اضعف الايمان، ألاحظ ان بعض وسائل الاعلام بدأت تسألنا عن الرأي في تدويل الحرم القدسي متابعة لتصريح سياسي فلسطيني عن جعل السيادة على الحرم لله. وبقدر ما أثار هذا التصريح الاستياء بقدر ما ينبغي التنبه إلى عدم الانجرار الى مسألة التدويل في أي من صيغها. ولقد وجدتني اسأل مندوب الصحيفة التي رغبت إلى أن أجيب «لماذا هذا السؤال الآن؟ الا تراه يجرنا إلى ناحية أخرى؟» وتداعى إلى خاطري المثال تلو المثال

عن تحرك اعلام التحالف الاستعماري الصهيوني وفقاً لهذا الاسلوب. وتذكرت ذلك الصحفي الياباني الشاب الذي قابلني في اروقة احدى دورات المجلس الوطني التي انعقدت في الجزائر في الثمانينات، فبادرته بالقول «اتوقع أن تكون اسئلتك كذا وكذا». فرّد بالموافقة. وسألته ماذا تعرف عن الصراع وعن هذه الدورة فوجدته بكراً. وحين سألته «ومن زودك بهذه الاسئلة»؟ أجاب «ادارة الصحيفة». وكان الصحفيون الاجانب الآخرون يرددون الاسئلة نفسها وجميعها تدور حول تنازل جديد مطلوب من الفلسطينيين.

يصادفني في مكتبتي ملف يضم اوراقاً ارسلها لي واحد من ابناء فلسطين قال لي إن ركن وزارة الخارجية الاسرائيلية في شبكة «انترنت» يعممها. وقد احتفظت بها لأنها تتضمن تاريخ الاستيطان الاستعماري الصهيوني الذي استهدف فلسطين منذ الربع الأخير من القرن التاسع عشر الميلادي خطوة خطوة ثم قفزة قفزة. وراجعت الملف ونصب عيني استذكار كيف انتقل هذا الاستيطان عبر قرن من التسللّ الى التغلغل إلى الغزو الى التوسع، على حد تعبير جمال حمدان عن مراحله. وهذا الاستذكار هدفه أن استحضر سبيل التحرير الذي ينهي الاستعمار الاستيطاني. فطريق التحرير تبدأ بتصعيد المقاومة ضد المستعمر المستوطن بمعناها الواسع وبابعادها كلها فيكون من ثمارها بدء نزوع المستعمرين المستوطنين وتفجر التناقضات فيما بينهم الذي يسهم بدوره في تقوية حركة النزوح إلى أن يصل هذا المستعمر المستوطن إلى الرضوح لمنطق التحرير فيبحث عن صيغة يحاول أن يحافظ بها على حد أدنى. واتوقف هنا امام ما يحفل به الوجود الصهيوني اليوم من تناقضات بين يهود شرقيين وغربيين وعلمانيين ومتدينين ومستغلين ومستغلين (بكسر الغين الأولى وفتح الأخرى). ويبقى أن تنجح المقاومة من خلال مراكز البحث في تحديد سبل التعامل مع كل من هؤلاء اليهود.

اقف عند هذا الحد في تسجيل خواطري وافكاري لأتحرك إلى القيام بواجبات في اطار تقوية الصمود، والدعوة إلى الاعتصام بالمقاومة، وتوظيف الفكر في المعركة، وأجدني واثقاً من أن افراداً من جيل الشاب عاكفون بدورهم على النظر في كيفية ادائهم واجباتهم في ضوء ما يبلوره فكر المقاومة. وهكذا تتحول المرارة التي لاأزال اشعر بها إلى فعل ايجابي في صراع النفس الطويل الذي ستخوضه حضارتنا لتحرير القدس وانقاذ اليهود من براثن الصهيونية العنصرية والوصول بهم إلى نبذها ويعودوا مستأمنين.

الباب الثالث

انتفاضة الأقصى

معركة الحرم القدسي والمقدسات الاسلامية والمسيحية

ها هي معركة أخرى تنشب في هذا الصراع العربي الصهيوني الممتد الذي دخل قرناً ثانياً. وهي عند كتابة هذا الحديث صباح الاثنين ٢٠٠٠/١٠/٩، ١١ رجب ١٤٢١ دخلت يومها الثاني عشر. وقد شهدت يوم أمس تطورات جعلت العالم يحبس أنفاسه تحسباً من تفجر الوضع حرباً لايمكن احتواؤها، بينما رئيس الوزراء الاسرائيلي يهودا باراك يتهدد ويتوعد فاقداً زمام السيطرة على أعصابه. ويذكرنا هذا الوضع بسياسة حافة الهاوية التي برزت في اعقاب الحرب العالمية الثانية في العلاقة بين المعسكرين في دائرة الحضارة الغربية إثر ازمة برلين عام ١٩٤٨. وهي سياسة تشهد تصاعد الأحداث وتصعيدها إلى درجة بلوغ الحافة. الأمر الذي يدعونا إلى الصمود حتى نحقق أهدافنا في هذه المعركة وأن نكون من أهل العزم الذين يأتون للأمة بالعزائم وأن نحشد الطاقات ونحسن توظيفها باعمال العقل، مستعينين بالله القوي العزيز الذي وعد بالنصر من ينصره. وهذا يقتضي بداية أن نبلور قراءة صحيحة للمعركة ونعممها في أوساط الأمة لتتابع خوضها صفاً واحداً كأننا بنيان مرصوص، كل يقوم بدوره في تكامل وتناغم بين الأدوار.

ما أروع المناخ الذي توجده المقاومة في أوساطنا حين تتصدى للعدوان، وما أسخى العطاء الذي يقدمه شبابنا وهم يقاومون بالحجارة الرصاص الحي من اسلحة المجرمين الصهاينة العنصريين، وما أوضح الرؤية التي تتبلور من خلال الحوار المتصل المقترن بالعمل. وقد حفلت الأيام الماضية بهذا الحوار على مختلف مستويات الأمة مبلوراً قراءة المعركة.

* ما هو الاسم الذي نطلقه عليها؟

لقد بدأت «هبة» إثر اقتحام مجرم الحرب اريل شارون للمسجد الأقصى يوم ٢٠٠٠/٩/٢٨. ثم ما اسرع ما صارت «انتفاضة شعبية». ولم تلبث أن غدت «معركة» متعددة الجوانب، فيها ما هو دبلوماسي وما هو سياسي وما هو اقتصادي وما هو نفسي، وعلى الصعد الوطنية والقومية والدولية.

اقترنت هذه المعركة بالحرم القدسي وبجميع المقدسات المسيحية والاسلامية في القدس وفلسطين فهي اذاً معركة الحرم القدسي والمقدسات المسيحية والاسلامية.

* بماذا تتميز هذه المعركة عن معارك الصراع العربي الصهيوني الأخرى؟

تميزُها نابع من بروز البعد العقيدي فيها مع تجلي جميع ابعاده الأخرى. فالعدو المستعمر المستوطن بمساندة قوى الطغيان الدولية استهدف أسر الحرم القدسي والمقدسات في مفاوضات «الوضع النهائي» واستخدم القوة الغاشمة في محاولة تأكيد سيطرته عليها، فكان أن هبت الأمة دفاعاً عن مقدساتها وفتحت ملف جرائم الاستعمار الاستيطاني الصهيوني.

* متى بانت ابعاد هذه المعركة وأين؟

كان ذلك اثناء مفاوضات كامب دافيد الثانية في النصف الثاني من شهر تموز / يوليو ٢٠٠٠، التي دعا اليها الرئيس الامريكي كلينتون يهودا باراك وياسر عرفات. وقد كشفت الورقة الامريكية الاسرائيلية التي تمت صياغتها اثناء زيارة دينيس روس للمنطقة، عن هذه الأبعاد، وهي تتناول القضايا الأربع المتعلقة بما سمي بالوضع النهائي. وبرز دور خاص لكلينتون في «املاء» اتفاق بشأن هذه القضايا يحكي عن دولة فلسطينية على ٢٠٪ من فلسطين في الضفة والقطاع منقوصة السيادة «مخروقة» بالمستوطنات لايسمح بعودة نصف شعب فلسطين إلى دياره. وحين وصل البحث إلى الحرم القدسي والقدس القديمة والمقدسات المسيحية والاسلامية ساند كلينتون باراك لفرض السيادة الاسرائيلية، واعتمدا خطة مضللة تتحدث عن سيادات أخرى سماوية ودينية وادارية ووظيفية يمكن أن يمنحها الاسرائيليون اصحاب السيادة السياسية (كذا!!). وقد رفض الأخ ابوعمار هذا الاملاء بدعم عربي اسلامي وأمكن الصمود في وجه الضغوطات الشديدة والتهديدات العنيفة التي مارسها كلينتون معززاً باعلام صهيوني مضلل يردد مصطلح «جبل الهيكل».

* من هم الأطراف الذين يخوضون هذه المعركة؟

هناك كما أوضحتُ أبعاد المعركة في معسكر: الحكومة الاسرائيلية وقيادة الحركة الصهيونية والادارة الامريكية وقوى طغيان في الغرب. وهناك في المعسكر الآخر: شعب فلسطين العربي ومنظمة التحرير الفلسطينية بكل فصائلها وقواها مع الأمة العربية والدول العربية ودول في دائرة الحضارة الاسلامية مع شعوبها.

* كيف نشبت المعركة وتطورت؟

بدأت المعركة يوم الخميس ٢٠٠٠/٩/٢٨ حين اقتحم اريل شارون الحرم القدسي بترتيب مع باراك وبحماية آلاف من جنود الاحتلال. وما أسرع أن هب ابناء شعب فلسطين العربي للتعبير عن مشاعرهم الغاضبة ومواجهة هذا العدوان الأثيم بالتظاهر ثم برشق جنود الاحتلال بالحجارة حين اطلقوا عليهم الرصاص الحي. وتابع ابناء فلسطين هبتهم يوماً بعد يوم بينما استمر العدو الاسرائيلي في عدوانه مستخدماً الدبابات والحوامات والصواريخ ضد المدنيين العزل، فكان أن استشهد اكثر من مائة وجرح آلاف. وقد نقلت وسائل الاتصال المختلفة بالصورة والصوت الجرائم الاسرائيلية، فاهتز لها ابناء العروبة مسيحيين ومسلمين وأبناء العالم الاسلامي وقطاعات واسعة من الرأي العام العالمي. وحفرت في الذاكرة الانسانية صورة الطفل الفلسطيني محمد جمال «الدرة» وعملية قتله صبراً بالدم البارد بين يدي والده الذي يحتضنه وقتل رجل الاسعاف الذي جاء لانقاذهما واصابة الوالد بالرصاص الاسرائيلي، لتصبح هذه الصورة احدى رموز المعركة. وعمت المظاهرات اقطار الوطن العربي والعالم الاسلامي وتتالت التحركات السياسية على مختلف الصعد.

تطورت هامة حدثت في اليومين الماضيين. فالانتفاض استمر، في مواجهة العدو الذي استخدم الذخيرة الحية والدبابات والصواريخ والحوامات. وقد استطاعت الهبة أن تفرض في نابلس على الاسرائيليين الانسحاب من بؤرة لهم اتخذوها في ضريح النبي يوسف وجعلوا منها مركزاً للمستوطنين المجرمين يطلقون منه الرصاص، ورفع ابناء فلسطين علم فلسطين عليها بعد أن حطموا التحصينات الاسرائيلية فيها. وما أسرع ما نقلت وكالات الانباء خبر وقوع ثلاثة جنود اسرائيليين في أسر ابطال المقاومة اللبنانية في منطقة شبعا المحتلة، واعلن حزب الله عن وجودهم وطالب استبدالهم بجميع

الاسرى اللبنانيين الذين اختطفهم الارهاب الاسرائيلي الرسمي، وأسرى من أبطال حماس والجهاد.

لعل من أهم التطورات في هذه المعركة خروج الملايين من ابناء أمتنا في مظاهرات حاشدة في مختلف الاقطار العربية معبرين عن غضبهم على العدوان الاسرائيلي والانحياز الامريكي له وعن التحامهم بقضية فلسطين. وكذلك دعوة مصر العربية بعد التشاور مع دول عربية أخرى لعقد قمة عربية في القاهرة خلال هذا الشهر.

* ما هي دلالات ما نشهده من احداث في هذه المعركة؟

دلالات كثيرة من بينها على صعيد العدو الصهيوني ولوغه في اقتراف المذابح واعتماده اقصى درجات العنف لقمع مقاومة شعب فلسطين العربي وارهاب الدول العربية، وتشبثه بمفهوم فرض الاستسلام سبيلاً لتحقيق سلام بالقوة الغاشمة. ومن بينها على صعيد قوى الطغيان الامريكية الاستمرار في تقديم الدعم له واعتماد المعيارين في حقوق الانسان. ومن بينها على صعيدنا العربي امكان الصمود والمقاومة، والاستعداد للعطاء؛ وأثر المقاومة في ايجاد مناخ صحي يخيم على الوطن الكبير وفي تفجير طاقات ابناء الأمة، وفي تحقيق الوحدة الوطنية والحشد القومي والتعبئة الروحية.

دلالات أخرى عامة من بينها أن محاولة فرض حل عنصري لقضية فلسطين مآلها الفشل، وأن كل النصوص التي وضعت في اتفاقات الاملاء وبخاصة على صعيد قوات الأمن الفلسطينية اهتزت بشدة لأن وحدة الشعب على كل المستويات ما أسرع ما تتجلى حين يواجهنا العدوان الصهيوني. والأمر نفسه يصدق على المخططات الامريكية بشأن النظام شرق الأوسطي.

* ما هو المطلوب من القمة العربية القادمة؟

مطلوب أولاً أن تؤكد تمسك الدول العربية بالانسحاب الاسرائيلي من كل شبر من القدس الشرقية التي احتلت عام ١٩٦٧ وان تكون ضمن السيادة الفلسطينية السياسية بجميع المقدسات الموجودة فيها. وهذا هدف يمكن تحقيقه اذا احسنت القمة حشد الأوراق اللازمة واستخدامها.

مطلوب ثانياً اعلان تمسك الدول العربية بالنظام العربي وبانعقاد القمة سنوياً

وبوضع الصراع العربي الصهيوني بنداً دائماً في اجتماعاته إلى حين تحرير القدس والجولان ومعالجة أمد استرداد حقوقنا العربية في فلسطين «الثابتة غير القابلة للتصرف» في عمل طويل المدى. وهذا هدف بدأ يتحقق فعلاً بانعقاد هذه القمة بكامل اعضائها وبالالتزام بانتظامها سنوياً.

مطلوب ثالثاً وضع خطط تفصيلية لمقاومة العدوان الصهيوني على الصعيدين الرسمي والشعبي ورفع شعار الاعتصام بالمقاومة بمعناها الشامل وبابعادها جميعها. وهذا هدف يتطلب توظيف العلم واشراك المجتمع المدني بكل مؤسساته وتنظيماته. وهو ممكن التحقيق في ظل المناخ الذي اوجدته هذه المعركة المتميزة.

وأمور أخرى يبلورها إعمال الفكر وإمعان النظر. ولكن أمراً عاجلاً ملحاً ينبغي بحثه وهو حماية ابناء أمتنا من عرب فلسطين المحتلة عام ١٩٤٨ الذين يتعرضون في هذه المعركة لقمع عنصري تقوم به الحكومة الاسرائيلية وعدوان عنصري يقوم به المستعمرون المستوطنون الصهاينة، وقد رأينا كيف سقط منهم شهداء وجرحى في هذه المعركة، وكيف جرى الاعتداء على احيائهم في الناصرة، وقام المستوطنون بهدم الجامع في طبرية، وقد سمعنا اليوم أخانا د.عزمي بشارة يتحدث عما يتعرضون له من اخطار ويطرح فكرة الحماية الدولية لهم.

انها معركة أخرى في هذا الصراع الممتد ويجب ان ننتصر فيها.

تشوّف مرحلة قادمة في الصراع العربي الصهيوني
ما بعد قمة شرم الشيخ والقمة العربية

بين يدي انعقاد قمة عربية استثنائية يوم السبت ٢٠٠٠/١٠/٢١ وبعد انتهاء قمة شرم الشيخ يوم الثلاثاء ٢٠٠٠/١٠/١٧، يأتي هذا الحديث عن معركة الحرم القدسي والمقدسات الاسلامية والمسيحية التي أكملت اسبوعها الثالث. ونصب العين فيه تشوّف مجرى الأحداث في الصراع العربي الصهيوني بعد انعقاد القمة العربية.

– أول خطوة في عملية التشوف المستقبلي هي القيام بوقفة أمام مؤتمر شرم الشيخ للإحاطة بالواقع القائم، وفق منهج علم دراسة المستقبل، بايجاز شديد.

* لماذا انعقد مؤتمر قمة شرم الشيخ؟

جليّ أن العامل الرئيسي في انعقاده هو ادارة الرئيس كلينتون الامريكية. وقد بادرت إلى طلبه بعد أن استمرت معركة الحرم القدسي والمقدسات وتصاعدت الانتفاضة الفلسطينية على أرض فلسطين في الضفة الغربية وقطاع غزة والجليل المحتل منذ عام ١٩٤٨ في مواجهة العدوان الاسرائيلي الصهيوني العنصري. وتزامن مع هذه الانتفاضة تحرك شعبي ورسمي في الدائرتين العربية والاسلامية وعمليات نوعية أوضحت أن الانتفاضة جزء من معركة ساحتها الوطن العربي كله ويمكن أن تمتد إلى انحاء من ساحة دائرة الحضارة الاسلامية. ونحن في هذا الحديث نستخدم كلمة «الانتفاضة» لما يجري في فلسطين وكلمة «المعركة» لما يجري في الدائرتين.

لقد وجدت الادارة الامريكية نفسها في اسبوع المعركة الثاني أمام أحداث هزتها هزاً عنيفاً وهددت في المقام الأول مصالحها وفي المقام الثاني مستقبل قاعدتها الاستعمارية الاستيطانية الصهيونية. ونشير من بين هذه الأحداث إلى عزلتها في مجلس الأمن عند مناقشته «افراط اسرائيل في استخدام القوة ضد المدنيين الفلسطينيين العزل»

وهو المصطلح الذي استخدم دولياً للدلالة على قيام الجنود الاسرائيليين بقتل الأطفال والشباب والشيوخ صبراً بالدم البارد. واضطرت الادارة الامريكية للخروج من هذه العزلة إلى عدم استخدام «حق النقض» عند التصويت على قرار المجلس بعد أن اضعفته بتعديلات على مشروعه. كما نشير من بين هذه الاحداث إلى تململ رئاسة الاتحاد الأوروبي من الاسلوب الامريكي في التعامل مع الانتفاضة وقلق أوروبا المتزايد من انفجار الوضع. وقد عبرّ عن ذلك الرئيس شيراك عملياً، واضطرت حتى بريطانيا أن تتحرك وهي «الحليف التابع» للولايات المتحدة في الاتحاد الأوروبي. ونشير ايضاً وهذا هو الأهم الى سلسلة الأحداث على أرض المعركة من المظاهرات الشعبية العربية العارمة ضد الصهيونية العنصرية وامريكا، وقيام حزب الله بأسر ثلاثة جنود اسرائيلين في شبعا ثم بأسر جنرال من الموساد، وانسياق يهودا باراك الى تهديد سوريا ولبنان، وأخيراً وليس آخراً عملية اختراق المدمرة الامريكية في ميناء عدن وقتل عدد من بحارتها وجرح عدد آخر. وقد كان لافتاً إصرار الادارة الامريكية أن ينعقد مؤتمر قمة شرم الشيخ قبل انعقاد القمة العربية الاستثنائية التي أعلنت مصر عن الدعوة اليها بعد التشاور مع شقيقاتها العربيات. ونلاحظ أيضاً أن معارضة عربية رسمية برزت لهذا المؤتمر شاركت فيها مصر التي لم تلبث أن قبلت استضافته بعد اجراء تعديلات عليه في تنظيمه بحيث وجهت الدعوة إلى الاتحاد الأوروبي والأمم المتحدة، وفي مساره بحيث تتم محاصرة العدوان الاسرائيلي على شعب فلسطين.

* ما هي نتائج مؤتمر شرم الشيخ على مسار المعركة وعلى أعمال القمة العربية الاستثنائية؟

أقصى ما أسفر عنه هذا المؤتمر هو فرض ما يشبه «الهدنة» في معركة الحرم القدسي والمقدسات تمتد لفترة اسبوعين. وقد جاء الرئيس الامريكي كلينتون معه بفريقه الصهيوني الذي ترأسه مادلين اولبرايت وزيرة الخارجية. وكان همه أن يتبنى وجهة النظر الاسرائيلية ويعارض اية ادانة للجرائم الاسرائ لية ولو جاءت بطريق غير مباشر. وهكذا رأيناه يعارض المطلب الفلسطيني المؤيد دولياً بتشكيل لجنة تحقيق دولية، وذلك لأن الكيان الاسرائيلي مصر على التعامل مع الأحداث الذي جرت على أنها «داخلية» وهذا يعني استمرار زعمه بأن الضفة والقطاع اراض متنازع عليها يدعي أنها يهودا والسامرة، وهو يتعامل مع السلطة الفلسطينية على أنها سلطة حكم ذاتي لايقبل أن يكون

لها وضع دولي مستقل. وهكذا أعلن كلينتون أن الاتفاق تم على تشكيل لجنة من الولايات المتحدة واسرائيل والسلطة الفلسطينية بالتشاور مع الأمم المتحدة لتقصي حقائق الأحداث الأخيرة وكيفية منع تكرارها. وهذا يعني أن المشاركين الآخرين في القمة استطاعوا بعد لأي أن يضيفوا عنصر التشاور مع الأمم المتحدة. ورأينا كلينتون يركز في الاتفاق على انهاء المواجهات والعودة الى الوضع السابق، ومن ثم وجوب العودة بعد الاسبوعين الى المفاوضات. وقد أوضح الرئيس مبارك في كلمته أن «نتائج القمة قد لاترقى لما تتوقعه شعوبنا لكنها تشكل أساساً يمكن البناء عليه اذا خلصت النية». ويمكن الخروج برؤية واضحة اذا قرأنا ما بين الكلمات في هذا السطر.

من المتوقع أن يخفف العدو الاسرائيلي من اجراءاته القمعية وعسفه خلال الاسبوعين القادمين، بفعل مجموعة عوامل منها طلب الادارة الامريكية. ومن المتوقع أيضا أن تعمل السلطة الفلسطينية على تهدئة الانتفاضة التزاماً بالاتفاق. ولكن من الواضح أن أسباب الانتفاض قائمة في الوطن المحتل وكذلك مبررات استمرار المعركة ضد الصهيونية وامريكا على الصعيد الشعبي في الوطن العربي. وفي هذه الاجواء تنعقد القمة العربية.

إن من أبرز نتائج مؤتمر قمة شرم الشيخ على أعمال مؤتمر القمة العربية هو وضوح ما يمكن لهذا المؤتمر أن يحققه على صعيد المعركة والانتفاضة في المدى القصير وعلى صعيد تفعيل النظام العربي ومن ثم المعركة على المدى المتوسط وعلى صعيد تطوير الاستراتيجية العربية الرسمية تجاه الصراع العربي الصهيوني. وقد بلورت جماهير الأمة عدداً من المطالب التي يمكن تلبيتها رسمياً. فعلى الصعيد الأول هناك دعم شعب فلسطين في الوطن المحتل ليتابع صموده ويصعد انتفاضته ودعم قيادة منظمة التحرير الفلسطينية في تمسكها بالثوابت جميعها وفى مقدمتها السيادة على القدس الشرقية كلها. وكذلك تفعيل نظام المقاطعة العربية الاقتصادية للكيان الاسرائيلي وعمل مكتب المقاطعة بدمشق ضمن عمل الجامعة العربية، ومقاومة التطبيع مع هذا الكيان بما في ذلك تجميد العلاقات أو قطعها. وعلى الصعيد الثاني انتظام انعقاد مؤسسة القمة العربية سنوياً وضخ الدماء الحارة النقية في جميع مؤسسات النظام العربي واجهزته والعناية بمراكز البحث اللازمة في اطاره. وعلى الصعيد الثالث الانتقال من الالتزام باستراتيجية السلام إلى الالتزام باستراتيجية السلام القائم على العدل في هذا الصراع

العربي الصهيوني الممتد. وهناك فارق بينهما. وتحقيق هذا الانتقال يتطلب حصراً تقوم به كل دولة عربية لما لديها من اوراق مؤثرة وحشداً لجميع هذه الأوراق وتوظيفها لصالح الأمة في الصراع.

– الخطوة الثانية في عملية التشوف المستقبلي هي استحضار عبر المراحل السابقة في هذا الصراع العربي الصهيوني الممتد، وما اكثر ما صدر عن الفكر العربي بشأنها. ونقف من بين هذه العبر أمام ثلاث منها تجلت في معارك الصراع بعامة على مدى قرن وفي معركة الحرم القدسي والمقدسات هذه الأيام بخاصة.

العبرة الأولى: أننا في هذا الصراع نواجه استعماراً استيطانياً صهيونياً عنصرياً نجح بأساليب مختلفة في تهجير يهود غربيين من أوطانهم في أوروبا وفي تهجير شرقيين من اقطار عربية. وهو يعتمد الارهاب والعسف والقمع لتثبيت نفسه ويستهدف بها جميعها شعب فلسطين العربي وشعوباً أخرى مع دولها، مستنداً إلى دعم غير محدود من القوى الاستعمارية التي أوجدته مقابل ادائه دوراً وظيفياً في استراتيجياتها. وهو يعاني في داخله تناقضات حادة على عدة صعد تجعله قابلاً للتفجر.

العبرة الثانية: أن الولايات المتحدة الأمريكية هي منذ الحرب العالمية الثانية الداعم الرئيسي له بعد أن قامت بريطانيا منذ الحرب العالمية الأولى بايجاده. وقد انتهجت الادارات الامريكية المتتالية سياسة العداء للعرب وللمسلمين. وبلغ هذا العداء حداً عظيماً في عهد الادارة الحالية. وواجهت أمتنا هذا العداء بالتصدي له أحياناً كما عمدت بعض دولنا الى محاولة التخفيف منه بمسايرة واشنطن أو مطاوعتها. ولكن المعركة الراهنة التي استهدف بها العداء الامريكي الحرم القدسي والمقدسات استنفرت الأمة لمواجهته ولإنهاء اعتماد امريكا حكماً في الصراع وهي في حقيقة الأمر طرفاً فيه وخصماً للعرب مسلمين ومسيحيين وللمسلمين بعامة.

العبرة الثالثة: أن مقاومة الأمة لهذا الاستعمار الاستيطاني الصهيوني العنصري مستمرة منذ بدأ، وعلى مدى قرن مضى، تعبر عن نفسها في كل مرحلة من مراحل الصراع بشكل معين. وقد اثبتت قدرتها على خوض صراع النفس الطويل وطورت اساليب جديدة في المقاومة بمعناها الشامل. ولعل من أهم هذه الاساليب عمليات خاصة متميزة تجري حين تتعذر خوض الحروب الرسمية لأسباب مختلفة. وها هي هذه المعركة بما حفلت به تدلل على ذلك وترهص بمزيد من تطوير هذه الأساليب.

في ضوء هذه العبر تتحدد أهدافنا في المستقبل القريب. وأولها هو الرد القوي على العدوان الصهيوني العنصري وثانيها هو التصدي لسياسة العداء الامريكية للعرب والمسلمين بهدف الوصول بالولايات المتحدة الامريكية إلى التخلي عنها. وثالثها هو تنمية قدراتنا لتحقيق الهدفين.

– الخطوة الثالثة في عملية التشوف المستقبلي هي بلورة رؤية لصنع المستقبل من خلال تفاعل حقائق الواقع القائم مع عبر الماضي مع عنصري الحلم وارادة الفعل.

إن لنا أن نتوقع تهدئة في فترة «الهدنة» خلال الاسبوعين القادمين، وكذلك سعياً امريكياً حثيثاً للعودة إلى مفاوضات عملية التسوية في محاولة أخيرة تقوم بها ادارة كلينتون لابرام اتفاق شامل بشأن «قضايا الوضع النهائي». ولكن دلائل كثيرة تشير إلى أن الصراع دخل مرحلة جديدة من المتوقع أن تشهد على الصعيد الصهيوني اشكالاً من العدوان الذي تحكمه العنصرية في داخل فلسطين على الشعب العربي الفلسطيني وعمليات خاصة تخريبية هنا وهناك في الوطن العربي، لعدم توافر شروط شن حرب عدوانية التي أهمها شرط الضوء الأخضر الأمريكي الذي لاتميل الادارة الامريكية الى اعطائه خوفاً من تداعيات مثل هذه الحرب. ومن المتوقع أيضاً أن تشهد المرحلة الجديدة على الصعيد العربي قيام المقاومة بعمليات خاصة متميزة داخل الكيان الاسرائيلي، وأخرى تستهدف القواعد الامريكية في المنطقة يكون لها صداها في اوساط المجتمع الامريكي في صور مختلفة منها التساؤل عن جدوى دعم الصهيونية العنصرية وعن الولاء المزدوج عند اليهود الصهاينة وتسلط هؤلاء على الادارة وعلى الكونغرس من خلال التمويل.

من المتوقع أن تشهد المرحلة الجديدة في الصراع في دول أوروبا بخاصة طرح قضية الولاء المزدوج لليهودي الصهيوني، واثارتها لحملات داخل المجتمعات الأوروبية، وقضية التغلغل الصهيوني في الاعلام وفي صنع القرار. وقد ينتهي ذلك كله اذا نجحت أمتنا في اعتمادها مقاومة النفس الطويل الى أن ينبذ اليهود الصهيونية العنصرية التي هي التهديد الأكبر لوجودهم، وهي التي تزعم أنها جاءت لحمايتهم. وهنا فقط يستتب السلام العادل الذى يعيش فيه اليهود مواطنين في دولهم بولاء واحد وتقوم فيه فلسطين الواحدة العربية التي تخيم عليها الحضارة العربية الاسلامية ويعيش فيها مواطنوها العرب مسلمين ومسيحيين وأي يهودي مستأمن ينبذ الصهيونية العنصرية وينتمي لهذه الحضارة.

المعيار الموضوعي لتقويم القمة العربية الأخيرة

«ماهو تقويمك لمؤتمر القمة العربية الأخير»؟ الذي انعقد بالقاهرة يومي ٢٣ و٢٤ رجب ١٤٢١ الموافق ٢١ و٢٠٠٠/١٠/٢٢.

تكرر توجيه هذا السؤال لي إثر انتهاء المؤتمر. واتوقع أن يكون الأمر معك كذلك ايها القارئ الكريم.

أُسجل بدايةً أن عملية التقويم ليست سهلة، اذا أردناه تقويماً موضوعياً يتجاوز الانطباع السريع. وذلك لأكثر من سبب.

* أول هذه الأسباب أننا نعيش انتفاضة الحرم القدسي بقلوبنا وعقولنا، ونتحرق للوقوف مع أهلنا في الوطن المحتل في وجه العدوان الصهيوني الغاشم عليهم، ونشعر أن كل ما نقدمه مهما عظم يتضاءل أمام عطاء الشهداء والجرحى.

* سبب آخر أن الاعلام الغالب عن هذه الانتفاضة هو «اعلام الترويج» في عصر ثورة الاتصال. ونحن فيه بين «إعلام عربي رسمي» يغالي في حديثه عن إنجازات هذه القمة، شأنه في الحديث عن أي عمل حكومي؛ و«إعلام غير رسمي» يغالي في حديثه عن فشل هذه القمة. واذا كنا قد خبرنا النوع الأول واكتسبنا كيفية التعامل معه وتمحيص ما يقوله، فإننا في النوع الآخر واجهنا ظاهرة يوقف امامها تتطلب تعمقاً في فهمها.

هذه الظاهرة هي اشتراك عدد من الفضائيات والاذاعات في «حملة اعلامية» استهدفت الحكم على القمة العربية بالفشل قبل الانعقاد واثناءه وفي اعقابه. وقد لجأت في هذه الحملة إلى استغلال التحرق الشعبي لدعم الانتفاضة لبلوغ هذا الهدف. وما

اكثر الأمثلة التي رأيناها في الأيام الماضية على هذه الحملة. واذكر واحداً منها وجهت المحطة الفضائية فيه للمشاركين في أحد برامجها السؤال تلو السؤال «لماذا لايستطيع العرب فعل كذا وفعل كذا؟ وما الذي يمكن ان يفعله القادة العرب لتهدئة الشارع العربي؛ وهل باستطاعتهم فعل شيء واقعي وملموس وليس فقط الادانة والتنديد؟» ويتولى توجيه الاسئلة مذيعون مدربون على «مقاطعة» المتحدث يخضعون إلى تعليمات تصلهم عبر «السماعة»، وكأن همّ مسؤوليهم أن لا يتم طرح فكرة ناضجة، وانما هي جمل تستهدف الاثارة ووضع الكلمات في فم المشارك واصدار احكام عامة تفتقد الموضوعية. وتدعو هذه الحملة الاعلامية إلى الخاطر تلك الحملة التي استهدفت امتنا اثناء زلزال الخليج وكان همها أن تثبت في الأذهان انقسام العرب. وواضح أن الحملة الحالية حين رأت اجماع العرب على دعم انتفاضة الحرم القدسي لجأت إلى التشكيك في قدرة دولهم العربية على فعل شيء ذي قيمة.

* سبب ثالث هو عدم وضوح «المعيار الموضوعي» الذي نقيس به أعمال المؤتمر اثناء انعقاده. ومن مواصفات هذا المعيار الموضوعي أنه كامل شامل دقيق. وهذا يعني أن يحيط بالصورة كلها ولايقتصر على رؤية جزء منها، ويصدر من ثم حكمه مكرراً ما حدث في قصة «العميان والفيل» لأنه اعتمد معياراً جزئياً. وفرق بين المعيار الكامل والمعيار الجزئي، وما أعظم الفرق الذي يحدث في التقويم اذا اعتمد «الجزئي» بدل «الكامل». والشمول يعني أن نأخذ في الاعتبار كل أعمال المؤتمر اثناء الانعقاد. أما الدقة فتعني القراءة المتأنية لهذه الأعمال وللقررات بخاصة التي تقرأ السطور وما بين السطور. ولافت أنه لم يبذل جهد كافٍ للتوعية بهذا «المعيار الموضوعي».

إن عناصر انعقاد أي مؤتمر التي نعتَمدها في تقويمه هي موضوعه وعنوانه وأهدافه المباشرة وغير المباشرة ونسبة المشاركين فيه من بين من تلقوا الدعوة ويفترض حضورهم. وهذه عناصر ما قبل مباشرة المؤتمر اعماله. ثم تأتي عناصر اثناء الانعقاد؛ وهي الكلمات التي يلقيها المشاركون من رؤساء الوفود والمداولات التي تتم بينهم وبين اعضاء الوفود بعامة بين الجلسات وعلى هامشها، وأخيراً البيان الختامي الصادر عن المؤتمر متضمناً القرارات. وهذه العناصر جميعها تدخل في تقويم اعمال المؤتمر اثناء انعقاده. أما التقويم النهائي له الذي يحدد مكانه التاريخي فيتوقف على ما يتم تنفيذه من القرارات. وهذه خطوة تأتي لاحقاً.

تقويم هذه القمة العربية بالذات يقتضي فضلاً عما سبق استذكار السياق الذي انعقدت فيه وجميع الظروف التي احاطت بانعقادها. فهي أول قمة عربية تنعقد بكامل اعضائها منذ عقد من السنين. وقد جاءت بعد اربع سنوات من انعقاد قمة القاهرة في مطلع صيف ١٩٩٦ التي غاب عنها العراق. ومعلوم أن «النظام العربي» الذي يقع مؤتمر القمة في رأس هرمه كان قد تعرض في اعقاب اجتياح العراق للكويت وحدوث زلزال الخليج صيف ١٩٩٠ الى استهداف الولايات المتحدة الامريكية له بالتجميد توطئة للاجهاز عليه وانهائه واستبداله بالنظام شرق الأوسطي الذي يكون للكيان الاسرائيلي فيه موقع القيادة والتأثير.

ما احوجنا ايها القارئ العربي الكريم، وما أحوج ابناء أمتنا بعامة إلى استحضار المعركة التي خاضها أول ما خاضها المفكرون العرب بأقلامهم، ومعهم بعض الحكماء السياسيين، ثم انضم اليهم تدريجياً بعض القادة، في مواجهة هذا المخطط الامريكي الآثم الرهيب. وقد نجح هؤلاء المفكرون العرب في التصدي لحملة الترويج الاعلامي الامريكي الصهيوني لنظام الشرق الأوسط. وذلك بطرح حقائق هذا النظام على العامة والخاصة، وبتفنيده، وبكشف مخاطره، وبالدعوة إلى التمسك بالنظام العربي وتطويره. وكم بذلوا جهداً في هذا التصدي. وإن لنا أن نذكر مثلاً من أمثلة هذه الحملة الاعلامية الترويجية مقال شمعون بيريز بعد زلزال الخليج مباشرة في كتاب «ماذا بعد عاصفة الخليج!» الذي صدر بالعربية، وما قاله حين طرح المشروع في خريف ١٩٩٢ على بعض المثقفين في القاهرة، وحديثه بعد اتفاق اوسلو في المؤتمر الاقتصادي شرق الأوسطي بالدار البيضاء للمشاركين من دول الخليج حين عرض بالنظام العربي وبقيادة مصر لهذا النظام وحكى عن قيادة الكيان الاسرائيلي للنظام شرق الأوسطي، ونذكر أخيراً كتاب بيريز الذي روّج به لنظام الشرق الأوسط بعد اوسلو. وكثيرة هي الأمثلة الأخرى على النصيب الأمريكي في حملة الترويج هذه.

لقد تابع ذلك النفر من المفكرين العرب تلك المعركة بدأب. وشاركت مراكز عربية بفعالية في المعركة ومنها مركز دراسات الوحدة العربية. وانضمت احزاب عربية فخاضت المعركة على صعيد المنتمين لها من خلال ندوات نظمتها. وهكذا تكوّن رأي عام عربي مكّن القادة السياسيين في بعض الدول العربية من التلاقي على فكرة التمسك بالنظام العربي والعمل على بعث الحيوية فيه. ولم يكن ذلك بالأمر السهل أمام

الهجمة الامريكية التي اشتدت بعد اتفاق اوسلو عام ١٩٩٣. وأثمرت الجهود الفكرية والسياسية انعقاد مؤتمر الاسكندرية آخر عام ١٩٩٤ الذي شاركت فيه سوريا والسعودية ومصر، واتخذ عشرة قرارات اختص بعضها بتفعيل النظام العربي. وقد أثار انعقاد هذا المؤتمر غضب الكيان الاسرائيلي الشديد حتى أن اسحق رابين استعان بكلينتون لعقد مؤتمر رباعي بعد أيام مع ثلاثة اطراف عربية. وكانت قمة الاسكندرية أول لقاء منذ مدريد يضم اكثر من دولتين عربيتين معاً، لأن واشنطن حاولت أن يكون الكيان الاسرائيلي القاسم المشترك في أية لقاءات جماعية تأكيداً لصيغة نظام الشرق الأوسط. واستمرت الجهود العربية في مقاومة الهجمة الامريكية والتصدي لنظام الشرق الأوسط وتفعيل النظام العربي، ونجحت في يونيو - حزيران ١٩٩٦ إثر انتخاب نتنياهو رئيساً للحكومة الاسرائيلية في عقد اجتماع دمشق للقمة الثلاثية المصرية السعودية السورية التي اعطت الضوء الأخضر لعقد القمة العربية مع غياب العراق. وكان ذلك الانعقاد حدثاً له ما بعده ما أسرع ما ظهرت آثاره في عرقلة المؤتمر الاقتصادي الشرق الأوسطي ثم ايقافه، وفي مساندة العمل الفلسطيني التي كان من ثمارها هبة القدس أول خريف ١٩٩٦ في مواجهة محاولة نتنياهو فتح نفق الحرم القدسي.

أربع سنوات كاملة واربعة شهور من الجهود العربية المستمرة بعد تلك القمة العربية استلزمها انعقاد القمة العربية الكاملة هذه بمشاركة العراق في القاهرة في دورة غير عادية من اجل دعم انتفاضة الحرم القدسي. وكانت هذه الجهود قد أثمرت اتفاق مجلس جامعة الدول العربية على انتظام انعقاد مؤتمر القمة العربي سنوياً بعد أن شكل لجنة درست هذا الأمر وأوصت به.

هذا هو السياق الذي انعقدت فيه قمة القاهرة خريف ٢٠٠٠، لأحداث استمرت عقداً من السنين عانى فيها «النظام العربي» ما عاناه. الأمر الذي بلور هدفاً غير مباشر لأول قمة كاملة تنعقد، وهو عودة النظام العربي إلى العمل بكامل اعضائه. وهذا يعني التحرك لتحقيق أهداف عربية، ويعني ايضاً محاصرة نظام الشرق الأوسط توطئة للاجهاز عليه.

إن هذا العنصر في تقويم مؤتمر القمة العربي الأخير بالغ الأهمية لأنه يتعلق بالعمل على مدى طويل وبنفَس (بفتح النون والفاء) طويل. وهو يجعل مجرد الانعقاد بكامل الاعضاء إنجازاً في حدّ ذاته يستحق بأن يوقف عنده، فكيف اذا اقترن بانجازات أخرى تتجلى حين نقوم بالتقويم الموضوعي لأعمال هذه القمة.

الا يتضح لنا ايها القارئ الكريم في ضوء شرح هذا العنصر سبب إصرار الرئيس بيل كلينتون الامريكي على عقد قمة شرم الشيخ قبل انعقاد القمة العربية ببضعة أيام؟ والدافع وراء الحملة الاعلامية الحادة التي استهدف بها الاعلام الامريكي الاسرائيلي وبعض الفضائيات مؤتمر القمة العربي قبل انعقاده واثناء الانعقاد وبعد الانعقاد؟

وضوح هذا العنصر في تقويم القمة العربية الأخيرة هو الذي جعل ذلك النفر من المفكرين العرب الملتزمين بمتابعة النضال لتحقيق المشروع الحضاري العربي بأهدافه الستة وحدة وتحريراً وديموقراطية شورية وعدلاً وتنميةً وتجدداً حضارياً، يباركون الانعقاد في حد ذاته بداية لأنه أول الخير، ويشعرون بالحبور لأن جهودهم وجهود الأمة أثمرت محاصرة نظام الشرق الأوسط، واعادة شيء من الحيوية إلى النظام العربي.

لكن هذا النفر من المفكرين العرب لايقبلون أن تكون مباركتهم الانعقاد في حد ذاته بداية، حافلاً دون التقويم الموضوعي لأعمال القمة ذاتها، بل دافعاً لأقصى درجة الدقة في التقويم الموضوعي. ولذلك نراهم يطرحون «المعيار الموضوعي» لتقويم أعمال القمة خطوةً أولى لمتابعتهم تنفيذ قراراتها.

في ضوء هذا «المعيار الموضوعي» الذي تم طرحه في هذا الحديث، يمكن لك ايها القارئ الكريم ويمكن لي أن نجيب عن السؤال «ما هو تقويمك لمؤتمر القمة العربي الأخير» بتناول عناصر التقويم عنصراً عنصراً. وهذا ما ارجو ان افعله في حديث قادم بإذن الله.

تحول في مسار انتفاضة الأقصى له ما بعده

الحل المرحلي الممكن تحقيقه

نقطة تحول في مسار انتفاضة الأقصى حدثت يوم الاثنين ٢٠٠٠/١١/١٣ تستحق الالتفات اليها. فلأول مرة يسقط أربعة من الاسرائيليين صرعى ويصاب ثمانية آخرون في المقاومة الباسلة التى شهدتها المدن الفلسطينية في الضفة الغربية وقطاع غزة للاحتلال الاسرائيلي الجاثم عليهما بجنوده العسكريين وقطعان مستوطنيه المسلحين. واستشهد في اليوم نفسه اربعة من أبناء الانتفاضة الابرار واصيب سبعة عشر آخرون كتبت اسماؤهم في سجلها الشريف مع أسماء من سبقوهم من الشهداء والجرحى. ولقد سارع العدو الاسرائيلي الصهيوني إثر سقوط صرعاه إلى فرض الحصار على ثمانية مدن فلسطينية خطوة أولى في سلسلة اجراءات هدد باتخاذها.

التحول الذي حدث واضح بيِّن، جوهره أن الانتفاضة بعد أن قاومت ارهاب العدو المسلح بالحجارة، وقدّمت من الشهداء الابرار - وجلهم أطفال وفتيان - اكثر من مائتين مع آلاف الجرحى، ففضحت العنصرية الصهيونية أمام العالم وهزّت نفسية اليهودي الذي اعتنقها، اتجهت اليوم إلى استخدام محدود للسلاح إلى جانب الحجر في مقاومتها للاحتلال الاسرائيلي.

هذا التحول لم يكن مفاجئاً للمتابعين بل انهم توقعوا حتمية حدوثه. فما خلّفه الارهاب الصهيوني بجرائمه اليومية منذ خمسة وأربعين يوماً في نفوس ابناء شعبنا من مرارة وآلام، ناهيك عما كان متراكماً في نفوسهم منذ بدء عملية التسوية قبل تسع سنوات وبخاصة منذ ابرام اتفاق اوسلو قبل سبع سنوات، كان لابد أن يتحول من المقاومة بالحجر إلى الاستخدام المحدود للسلاح الذى يذيق العدو طعم الخسائر البشرية ويمسُّه بقرح يجعله يعيد النظر في حساباته، مهما جاء رد فعله شديداً أهوجاً. ولقد رأى

المتابعون نذر هذا التحول حين تم القبض في رام الله على جنديين من جنود الاحتلال تسللا للقيام بعمل اجرامي فأجهز الناس عليهما. ويومها لم يستوعب العدو الدرس وأنذر وتوعد وتابع اقتراف جريمة القتل بالدم البارد للأطفال والفتيان الفلسطينيين، بل عمد ايضاً الى اغتيال أحد قادة الانتفاضة الشهيد حسين العبيان وهو في سيارته بقذيفة من حوامّة هليوكوبتر لاحقته. ويومها تحرك الاعلام الصهيوني ليشهّر بالانتفاضة، وتأثر به افراد منّا تمنوا أن تستمر الصورة على ما كانت عليه طيلة الأيام التي سبقت: عسكري اسرائيلي يطلق الرصاص على رؤوس الأطفال والفتيان الفلسطينيين وصدورهم رداً على قذفهم إياه بالحجارة، وقوات اسرائيلية تستخدم الصواريخ والحوامات في قصف المدن الفلسطينية، وذلك كي نكسب حسب رأيهم عطف الرأي العام العالمي. وإنَّ لنا أن نتوقع أن يراجع هؤلاء الافراد موقفهم في ضوء حتمية حدوث التحول من جهة، وحقيقة أن عطف الرأي العام العالمي وحده لا يحرر وطناً محتلاً وأن المقاومة بمعناها الشامل وبابعادها كلها هي التي تحرر الوطن المحتل وتكسب احترام الرأي العام العالمي أيضاً. وعلينا جميعاً من ثم أن نوطن انفسنا على التعامل مع هذا التحول.

سؤال برز بإلحاح قبل حدوث هذا التحول، وهو يشتد الحاحاً بعده: إلى متى ممكن لانتفاضة الأقصى أن تستمر وهي تواجه كل هذا الارهاب الصهيوني؟

جواب الشعب الصامد البطل هو: إلى أن نحرر في هذه المرحلة الضفة الغربية والقدس الشرقية وقطاع غزة من الاحتلال الاسرائيلي ونطرد قطعان المستوطنين منها. وقد تجلى هذا الجواب عملياً في استمرار الانتفاضة رغم الضغوط الامريكية لايقافها، وكذلك في الوحدة الوطنية بين جميع الفصائل والفعاليات والقوى. والحق أن روح الانتفاض تصدق هذا الجواب. فهذه الروح هي التي حركت الأطفال والفتيان ليقاوموا بالحجارة وينال شرف الشهادة منهم اكثر من مائتين، واذا كان الله سبحانه الخالق قد أعلمنا بأنهم أحياء عنده يرزقون، فإن من اللافت أن استشهادهم يحرك الحياة في الأمة ويجددها ويمكّن من ثم الصمود أمام الارهاب الصهيوني والانتصار عليه.

لقد دخل الارهاب الصهيوني بعد التحول الذي حدث يوم ١١/١٣ طوراً جديداً بفرض الحصار على المدن ومتابعة مسلسل القتل. وها هو اليوم التالي يشهد استشهاد خمسة واحد منهم رجل كهل قتله المستوطنون في قطاع غزة بالقاء صخرة على رأسه، وسبعون جريحاً. ولا يخفى العدو العنصري أن هدفه من الحصار «تجويع» ابناء

فلسطين في وطنهم المحتل بغية ايقاف الانتفاضة. وهذا الحصار يحول بين مائة وعشرين ألفاً من العمال من ابناء قطاع غزة دون كسب قوتهم اليومي من العمل لدى الاسرائيليين داخل الجزء المحتل عام ١٩٤٨، وضعف هذا العدد من ابناء الضفة الغربية. وكأن بروتوكول باريس في اتفاق اوسلو قد فرض هذه التبعية الاقتصادية. وهذا الحصار يحول ايضاً بين تنقل ابناء فلسطين بين مدنهم بما يحول دون العمل والكسب. وهو يذكّر بحصارات غاشمة شهدتها حروب القرن العشرين ومن بينها حصار النازية الالمانية لمدينة لينغراد (بطرسبرج) على مدى تسعماية يوماً ابان الحرب العالمية الثانية.

إن التقارير التي تصل من الداخل تشير إلى تصميم الشعب على متابعة الانتفاضة رغم ظهور بوادر «مجاعة» هناك. ويقول العارفون إن هذا الشعب خبز «الحصار» من قبل وهو يعرف كيف يفشله بالتكافل الاجتماعي وبايجاد سبل لتوفير ما يمكنه من الصمود والاستمرار. كما أنه يتوقع أن يتم تنفيذ قرارات القمتين العربية والاسلامية الخاصة بدعم صموده، وأن تحسن مؤسساته الاهلية ومؤسسات السلطة توزيع هذا الدعم. ويأخذ هؤلاء العارفون في الاعتبار أن انتفاضتهم توجع العدو بشدة على صعد عدة، من بينها الصعيد الاقتصادي الذي شهد اغلاق ثمانين مصنعاً اسرائيلياً اغلاقاً جزئياً واربعة عشر مصنعاً اغلاقاً كلياً. كما شهد انفاق الجيش الاسرائيلي ثلاثة ارباع مليون دولار يومياً وفق ما ذكرت مصادره. وهناك صعيد المواجهة المسلحة التي لامفر من تصاعدها بعد «التحول»، وقد بدأت جريدة هاآرتس تتحدث عن حرب استنزاف حقيقية. ويتوقع العارفون أن تتكثف غارات المجاهدين على جنود الاحتلال وقطعان المستوطنين المغتصبين المدججين بالسلاح ليلاً ونهاراً. كما يتوقعون حدوث تطور في الاستخدام المحدود للسلاح كيفاً وكماً في مواجهة تصعيد الارهاب العسكري الاسرائيلي الذي خصصت له الحكومة الاسرائيلية مبلغ ١٨٧ مليون دولار صادقت عليها في أسبوع «التحول» يضاف إليها مائة مليون دولار أخرى.

واضح في ضوء ما سبق أن انتفاضة الاقصى موطنة نفسها على الاستمرار والتصاعد والصمود والصبر على المكاره حتى تتحقق اهدافها في هذه المرحلة من مراحل الصراع العربي الصهيوني الممتد. وان لنا أن نتوقع أن يتعزز هذا الصمود بما يحدث في معركة الحرم القدسي في الدائرتين العربية والاسلامية. وهي المعركة التي انطلقت شعبياً إثر انطلاق انتفاضة الاقصى، وشهدنا تجليات فيها على مدى الأسابيع

الستة الماضية. وآفاق العمل في هذه المعركة رحبة بدءاً من مقاومة التطبيع مع العدو الاسرائيلي ومباشرة احكام مقاطعته مروراً بالرد على التحيز الامريكي والعداء الامريكي لنا بما يوصل واشنطن إلى مراجعة سياستها. ولايستبعد المتابعون أن يتضمن هذا الرد عمليات مبتكرة على صعيد المقاطعة الشعبية فلرموز الاقتصادية الامريكية المفروضة بالعولمة واخطرها «التدخين». وتشير الأخبار التي يتناقلها الناس في أماكن وجود جنود امريكيين في الدائرتين العربية والاسلامية إلى أن اشكالاً من التعبير عن الغضب من التحيز والعداء الامريكي للأمة بدأت تظهر ضمن هذا الرد، وقد نقلت وكالات الانباء ما حدث من ملاحقة لرجال الاعمال الامريكيين في فنادق اندونسيا. وترددت اخبار التعليمات الامريكية للجنود بتجنب الظهور بعد أن تعرض افراد منهم للغضب الشعبي. وتترقب انتفاضة الاقصى تنفيذ قرارات القمتين العربية والاسلامية بكفاءة على الصعيد الرسمي ليتعزز صمودها بالبعد الرسمي في معركة الحرم القدسي.

عامل بالغ الأهمية في تصميم انتفاضة الاقصى على الاستمرار هو ايمان راسخ بالله سبحانه الذى بارك المسجد الأقصى والذى وعد بنصر من ينصره والذي أعلى من شأن الشهادة والذي خسف بقارون وبداره الأرض لأنه بغى ولم يجده مال ولا علم. فهذا العامل الإلهي موجود وله الكلمة العليا، وهو يبرز حين يؤدي المؤمنون واجبهم ويعبروا عن ارادتهم. وقديما قال علماؤنا «ان لله عباداً اذا ارادوا أراد». ويشهد علماء التاريخ بوجود هذا العامل وان اختلفت الاسماء التي يطلقونها عليه حسب معتقداتهم. وقد توقف الكثيرون من أبناء الأمة أمام عملية تفجير المدمرة «كول» في ميناء عدن في اتقانها وتوقيتها، وأمام أزمة الانتخابات الامريكية في توقيتها ومايتوقع من مضاعفاتها وتداعياتها.

متوقع أن تتكثف مع تزايد الارهاب الصهيوني وتصاعد انتفاضة الاقصى ومعركة الحرم القدسي، الجهود الدبلوماسية على مختلف الصعد الدولية والاقليمية والمحلية لايجاد حل. وقد رأينا كيف حاول الرئيس الامريكي ولايزال يحاول فرض الحل الاسرائيلي الامريكي الذي طرحه في مفاوضات كامب دافيد الثانية، وذلك بدعوته إلى ما يسميه وقف العنف والعودة إلى مائدة التفاوض التي اعدتها واشنطن منذ مدريد لاملاء الحل العنصري لقضية فلسطين. ويبدو أنه مصمم على الاستمرار في هذا «العبث» الاجرامي حتى نهاية ولايته كي يدخل تاريخ الصراع العربي الصهيوني واحداً

من القارونيين الطغاة البغاة بعد أن حفل سجل ولايته بالمذابح الصهيونية في فلسطين ولبنان التي كانت تتم بضوء أخضر من إدارته. وقد رأيناه يكرر عقد الاجتماعات بهدف اخراج الصهاينة الاسرائيليين من أزمتهم، ويتابع في الوقت نفسه تعطيل مجلس الأمن عن اتخاذ أي قرار يردعهم، ويستمر في محاولة اغتصاب الحرم القدسي.

إن الحل الوحيد الذي يقبل به الشعب العربي الفلسطيني في هذه المرحلة يمكن أن يتحقق اذا أوجعت الانتفاضة العدو الاسرائيلي، وأوصلته إلى ضرورة الانسحاب من الأراضي العربية المحتلة عام ١٩٦٧ كما انسحب من جنوب لبنان، وهو يمكن أن يتحقق اذا نجحت معركة الأمة في التأثير على المصالح الامريكية وأوصلت كما سبق أن قلنا واشنطن لمراجعة سياستها المعادية لنا. وقد رأينا كيف أن القمتين العربية والاسلامية عبرتا بشكل غير مباشر وبشكل مباشر عن الضيق الشديد بهذه السياسة ولسان حال الأمة «لقد طفح الكيل». وهو يمكن أن يتحقق اذا نجحت الانتفاضة ومعركة الأمة في اخراج الاتحاد الأوروبي من سلبيته وتبعيته للسياسة الامريكية بالتأثير على مصالحه الكثيرة في منطقتنا. والحق ان انعقاد الشراكة المتوسطية الأوروبية هذه الأيام مناسبة لكي يقوم الاتحاد الأوروبي بمراجعة لسياساته وللتخلي من ثم عن هذه الصيغة التي حلت محل صيغة الحوار العربي الأوروبي في محاولة لفرض الكيان الاسرائيلي فيها تمشياً مع مشروع نظام الشرق الأوسط الأمريكي. وهذا الحل الوحيد يمكن ان يتحقق اذا احسنا التحرك على صعيد القوى الدولية الأخرى.

وبعد..

فنحن أمام تحول في مسار انتفاضة المقدسات المسيحية والاسلامية له ما بعده. وعلى كل منا واجبه إزاءه، ولكل دوره في تحقيق النصر وبلوغ الهدف المرحلي بتحرير القدس الشرقية والضفة والقطاع والجولان.

كلينتون واغتصاب الحرم القدسي الشريف

أيام الرئيس كلينتون الباقية في البيت الأبيض معدودة عند كتابة هذا الحديث، فهي تبلغ بدقة شهراً ونصف، ومع ذلك فالحديث لايزال يتردد عن عزمه على متابعة مساعيه للوصول إلى اتفاق «سلام» بين الصهاينة العنصريين في الكيان الاسرائيلي و«الفلسطينيين»، بينما يتابع هؤلاء انتفاضة الاقصى التي أكملت تسعة وستين يوماً في مواجهة تصعيد الحكومة الاسرائيلية اعتداءاتها الاجرامية عليهم. وهذا ما يدعونا في الدائرتين العربية والاسلامية إلى أمرين:

الأول هو استحضار تصرفات الرئيس كلينتون في مفاوضات كامب دافيد الثانية التي دعا إليها الطرفين وأشرف عليها بين يومي ١١ و٢٥/٧/٢٠٠٠، وتحليل تلك التصرفات واصدار حكم عليها. وهذا الجزء الأخير مطلوب لأنه سيدخل في تاريخ الصراع العربي الصهيوني وسيقترن به اسم كلينتون في ذاكرة الأمة التاريخية وتاريخ العالم.

الثاني هو البحث فيما ينبغي القيام به عربياً اسلامياً ومسيحياً وفي دائرة الحضارة الاسلامية من تحركات تجاه الادارة الامريكية ورئيسها في هذه الأيام الباقية التى تتناقص مع كل شروق شمس.

لقد باتت اكثر تصرفات كلينتون في مفاوضات كامب دافيد الثانية معروفة لدى التابعين من خلال تجميع ما نشر عنها ونقل من مصادر موثوقة. وإن لنا أن نختار نماذج منها تدل عليها:

*** الانموذج الأول ما قاله في حفل في البيت الأبيض ونشرته جريدة اوتاوا سيتنزن الكندية ونقلته وكالات الانباء يوم السبت ٢/١٢/٢٠٠٠، «لقد قلت لياسر**

عرفات: ثق بي أنا لست يهودياً. واقترحتُ عليه ان يرفع المسجد الأقصى من مكانه ليتمكن اليهود من الوصول إلى بقايا هيكل سليمان الموجودة أسفله. ثم قلت له وسيصبح الموقع مقصد السياح الأكثر مردوداً في التاريخ».

في تحليل هذا التصرف نجد أنفسنا أمام رئيسي امريكي ليس يهودياً مقتنع بمزاعم الصهاينة عن وجود بقايا الهيكل اسفل بناء المسجد الاقصى، وبشعار الصهيونية الوقح الخطير «اعادة بناء الهيكل» الذي رفعته حين احتلت بريطانيا فلسطين ودخل «اللنبي» القدس. وهذا الرجل يتجرأ أن يطرح على رئيس منظمة التحرير الفلسطينية نقل الحرم القدسي ثالث الحرمين الشريفين من مكانه بهدف تمكين الصهاينة من تثبيت مزاعمهم التي لم يقل بها أحد سواهم. وهو يسوق في محاولة الاقناع المردود الهائل الذي سيأتي من السياح. والمردود المقصود مادي يقاس بالدولار الذي هو المعيار الأساسي للنجاح في الحياة الامريكية، كما لاحظ مؤخراً المسؤول عن حقوق الانسان في الاتحاد الأوروبي حين سئل لماذا ميثاق حقوق انسان أوروبي فأوضح - كما جاء في احد اعداد الاهرام في شهر نوفمبر ٢٠٠٠ - أن بعض القيم الأوروبية تختلف عن بعض قيم الولايات المتحدة الامريكية حيث يمكن للمرء هناك أن يبيع أي شيء حتى اعضاء جسمه.

ما نستخلصه من هذا الانموذج أن كلينتون وهو ليس يهودياً هو في الوقت نفسه اسير المزاعم الصهيونية مسلّم بها، جاهل بمكانة المقدسات الاسلامية والمسيحية في القدس وفلسطين، ومعياره هو المردود المادي السياحي.

* الانموذج الثاني من تصرفات الرئيس الامريكي بيل كلينتون نقله الصحفي الامريكي دانييل لكيدمان ونشره في الأسبوع الأخير من شهر نوفمبر تشرين الثاني ٢٠٠٠ في مجلة نيوزويك الامريكية الصهيونية.

«لم يكن ياسر عرفات في مزاج مناسب للتعرض لعملية لوي ذراع رئاسي يقوم به بيل كلينتون الذي حاول أن يكسر الحاجز ويطرح على عرفات افكاراً حول كيفية معالجة المسألة الشائكة مصير القدس. كان عرفات يخط بقلمه في دفتره فقام كلينتون وهو ينظر إليه من فوق نظارته بطرح مسألة «جبل الهيكل» الموقع الذي مساحته خمسة وثلاثين فداناً ويحتوى على مقدسات للمسلمين واليهود، واقترح كلينتون أن يعطى

الفلسطينيون «رعاية» curtody مايسمونه الحرم الشريف what they call the Haramel Sharif، بينما سوف تبقى السيادة في ايدي الاسرائيليين. while Sovereinty Would remain in the hands of The Israelis.وضع عرفات قلمه ونظر إلى كلينتون محذراً «هذه المجادلات تفجيرية وسوف تشعل نيراناً هائلة في المنطقة وتقذف بها في عصر جديد من الصراع الديني» وقد تجرأ باراك أمام ما طرحه كلينتون أن يقترح بدوره بناء كنيس يهودي صغير في الزاوية الشمالية الشرقية من المكان القديم أي الحرم «بهذا ثمن بسيط على الفلسطينيين أن يدفعوه».

في تحليل تصرف كلينتون هذا نجد أنفسنا أمام رئيس امريكي يتبنى الموقف الاسرائيلي بفرض السيادة الاسرائيلية على الحرم القدسي بالمسجد الاقص وقبة الصخرة المشرفة وآثار اسلامية أخرى بزعم أنه جبل الهيكل وهو يعرض على الفلسطينيين ان يكون لهم تحت هذه السيادة الاسرائيلية أمر «حضانة» الحرم ورعايته وهو يدرك تماماً كما ندرك معنى «السيادة الاسرائيلية»، وقد خبر شعبنا هذا الاحتلال الصهيوني العنصري منذ نكبة عام ١٩٤٨ مروراً بنكبة عام ١٩٦٧، وها هو الحصار الجائم على مدننا وقرانا اليوم وهاهي المعابر ومايجري فيها، تقدم امثلة أخرى على هذه «السيادة»!! وعلى المفهوم الاسرائيلي للحكم الذاتي. ولقد سقنا ما تجرأ به باراك من اقتراح بناء كنيس يهودي في ساحة الحرم لنكون على حذر من المساومات التي يمكن أن تحدث في مفاوضات قادمة.

ما نستخلصه من هذا الانموذج، هو ان الرئيس كلينتون ضرب عرض الحائط بقرارات الشرعية الدولية بشأن القدس وبقرار ٢٤٢ الذي يفرض الانسحاب الاسرائيلي من كل القدس الشرقية المحتلة عام ١٩٦٧، وأنه يسعى لفرض السيادة الاسرائيلية عليها وعلى جميع المقدسات المسيحية والاسلامية.

* الانموذج الثالث من تصرفات الرئيس الامريكي كلينتون سجله أكرم هنية من الوفد الفلسطيني في كتابه «أوراق كامب دافيد» الذي صدر في ٢٠٠٠/٨ وروى فيه ماحدث...».

«في يوم ٧/١٧ قدّم الرئيس كلينتون للرئيس عرفات، خلال لقاء منفرد، افكاراً تلاها من ورقة كان يحملها وقام ابوعمار بتسجيلها في مفكرته. كانت الأفكار مكرسة

بأغلبها للحديث عن القدس، في حين تتحدث بسطر واحد عن التوصل «لحل مُرضٍ لقضية اللاجئين» وتوافق على ضم ٥٪ من الأراضي الفلسطينية لاسرائيل. اما عن المدينة المقدسة، فقد كان الحديث يدور عن سيادة فلسطينية على ما يسمى «بالحي الاسلامي» و«الحي المسيحي»، في حين يضم ما يسمى بالحي الأربعيني والحي اليهودي لاسرائيل. وبالنسبة للحرم تكون السيادة اسرائيلية، في حين يمنح مجلس الأمن والمغرب رئيسه لجنة القدس وصاية للدولة الفلسطينية لادارة الحرم. وتضمنت الأفكار معالجة سطحية لمستقبل مناطق القدس تتضمن سيادة فلسطينية على الأحياء الخارجية، ونظاماً خاصاً يطبق في الاحياء الداخلية بشكل يمنح سلطات وظيفية للفلسطينيين. كما تضمنت الأفكار فقرة عن ضرورة اعلان انهاء الصراع بين الطرفين. ويقول اكرم هنية «كان رد فعل أبي عمار حاسماً: إنها افكار اسرائيلية». وقد تم اعداد رسالة للرئيس كلينتون تشير إلى تناقض هذه الأفكار من مرجعية عملية السلام، وبعد تسليمها فجر يوم ٧/١٨ اتصل الجانب الامريكي ليطلب «اجابة فلسطينية محددة: هل تشكل الأفكار الامريكية أساساً للمفاوضات؟» وجاء الجواب بالنفي.

نحن هنا مرة أخرى أمام رئيس امريكي يقول إنه غير يهودي ومع ذلك يتبنى الأفكار الاسرائيلية ويقدمها باعتبارها أفكاراً امريكية. وكانت اولبرايت قد حاولت قبل ذلك تأجيل البحث في قضية القدس ثم حين اصر الوفد الفلسطيني قدمت ورقة يوم ٧/١٤ «كانت سيئة بكل المقاييس» وتبنّت الحل البلدي في القدس وطرح فكرة ابوديس العاصمة. ثم اضطر الجانب الامريكي إلى سحبها. ولكن ها نحن نرى كلينتون بعد سحبها يعود إلى طرح الأفكار الاسرائيلية، ويعهد إلى مساعديه بالضغط على الفلسطينيين بأن يطلب اجابة محددة.

ما نستخلصه أن الرئيس الامريكي وادارته المشكّلة من يهود امريكيين صهاينة يقرنون اسلوب الترغيب بأسلوب الترهيب الذي يبدأ بالتضييق على الطرف الفلسطيني لزنقه في زاوية. وذلك قبل سفر كلينتون إلى اليابان.

* الانموذج الرابع من تصرفات كلينتون وقع في اليوم قبل الأخير ٧/٢٤ حين طلب كلينتون أن يأتي اليه ابوعمار

«كانت الجلسة متوترة وعاصفة منذ اللحظة الأولى. وكان كلينتون يتحدث

بحدة: ستنفض امريكا يدها من عملية السلام، أنتم تتحملون المسؤولية، ستتجمد علاقاتنا الثنائية، سيوقف الكونغرس المساعدات، ستعيشون عزلة. انتم لم تقدموا شيئاً جديداً بالنسبة للقدس، الاسرائيليون ساروا خطوات الى أمام» هذا ما اورده اكرم هنية الذي نقل صمود أبي عمار أمام هذا الضغط الشديد وتمسكه بالسيادة الفلسطينية على القدس ثم تابع «وكان كلينتون يواصل محاولة الضغط: لديك ما هو معقول ويمكن العيش معه. يمكن انشاء مجمع رئاسي لك وللدولة الفلسطينية قرب الحرم.. انت لم تقدم شيئاً. هم يبادرون بالنسبة للقدس».

نحن هنا أمام كلينتون وقد أسفر عن وجهه تماماً، فلجأ إلى التهديد الطاغوتي والى الابتزاز الشيلوكي معاً. وقد رأيناه بعد انتهاء المفاوضات يقود حملة اعلامية يعلن فيها وهو الذي وضع حكماً وراعياً!! أن باراك بادر بينما عرفات لم يقدم شيئاً. ثم يهدد بوصفه رئيساً للولايات المتحدة بأنه سينقل السفارة الامريكية إلى القدس الغربية إلى آخر ماقاله. وهكذا تجلت صورة الامريكي الذي يحاول بالقوة الغاشمة اغتصاب حقوق الشعوب ودوس مقدساتها كما فعل اجداده الأوروبيون المستعمرون مع الهنود الحمر وحضارات الامريكتين، كما تجلت صورة رئيس دولة يضع في حساباته مسألة نجاح زوجته هيلاري في نيل مقعد مجلس الشيوخ عن ولاية نيويورك حيث النفوذ اليهودي الصهيوني ويدخلها في مواقف دولته.

ما نستخلصه من هذا التصرف أن مسايرة الطاغوت وقوة الهيمنة إلى درجة اعتمادها «حكماً وراعياً» يعرضنا إلى تمكينها من أن تكشر عن انيابها وتنشب مخالبها كي تحصل على ما تريده من اغتصاب حقوقنا. واننا أمام رئيس أمريكي لايرعوي اذا لم يواجه.

نستشعر عند هذا الحد من الحديث وقبل أن نختمه بتناول الأمر الآخر، الحاجة إلى استحضار الأحداث التي تلت. ونشير من بينها إلى ما أثاره الرفض الفلسطيني للتنازل والصمود أمام الضغوط من تجاوب في الدائرتين العربية والاسلامية فرض على كلينتون ان يرسل مبعوثاً إلى المنطقة، وتفجر انتفاضة الاقصى إثر تدنيس شارون للحرم يوم ٩/٢٨ وتجاوب الأمة معها عربياً واسلامياً في مظاهرات تندد بالعداء الأمريكي، وتتالى حوادث اوجعت الادارة الامريكية في مقدمتها تفجير المدمرة كول وهي تتزود بالوقود في ميناء عدن. وهنا رأينا الرئيس كلينتون أمام هذا الحدث المحدود من المواجهة يضطر إلى

اعادة حساباته جزئياً فيطلب عقد مؤتمر شرم الشيخ لايقاف الانتفاض ويرسل وزير دفاعه كوهين إلى المنطقة ليرى الأمور على الطبيعة ويسمع من قياداتها ويحاول تهدئتهم.

ما ينبغي القيام به عربياً واسلامياً تجاه تحركات الرئيس كلينتون للوصول الى اتفاق سلام قبل ان يغادر البيت الأبيض بات اكثر وضوحاً بعد استحضار تصرفاته وتحليلاه.

عنوان ما ينبغي القيام به هو متابعة مواجهة الرئيس كلينتون بحقائق تصل به إلى احترام الشرعية الدولية وأخذ مصالح بلاده في الاعتبار. ونقول متابعة المواجهة لأنها بدأت بانتفاضة الاقصى التي يجب أن تستمر حتى تحقق هدفاً مرحلياً، ولأن القمتين العربية والاسلامية اللتين انعقدتا مؤخراً ارسلتا رسائل واضحة بما جرى فيهما وماصدر عنهما إلى واشنطن ويبقى التنفيذ المتقن لهذه القرارات، ولأن الشارع العربي وفي الدول الاسلامية بدأ يقاطع البضائع الامريكية ويبقى ان تنشط حركة مقاطعة كل ما هو ممكن مقاطعته من المنتجات الامريكية واشعار الادارة الامريكية بغضبنا من تحيزها السافر للصهيونية.

متابعة المواجهة ينبغي ان تضع هدفاً لها هو الوصول بكلينتون إلى أن يُحرّم على نفسه الاقتراب من المساس بالحرم القدسي والمقدسات الإسلامية والمسيحية في القدس، وهذا يعني أن يسلّم بعودة القدس الشرقية إلى السيادة الفلسطينية وفقاً لقرار ٢٤٢ والقرارات الاممية الأخرى وأن يلتزم بمرجعية هذه القرارات في الموضوعات الأخرى. ذلك أن تأييده للمطلب الصهيوني بالسيادة على الحرم الشريف وراءه ما وراءه ويستحق حديثاً خاصاً نعود اليه.

هل نتطلع في ضوء ما سبق إلى أن تحشد الدول العربية والاسلامية اوراقها في هذه المواجهة التي هي السبيل الوحيد للتعامل مع كلينتون الذي سيصدر التاريخ حكما على تصرفاته العامة والخاصة ليس في صالحه. وسيقترن اسمه في ذاكراتنا بجرائم كثيرة شارك فيها وشجع عليها ولم يبق أمامه الا فرصة واحدة.

الاسباب الحقيقية للمحاولة الاسرائيلية الامريكية اغتصاب الحرم القدسي

الحرم القدسي الشريف والمقدسات المسيحية والاسلامية في القدس القديمة، هي موضوع المعركة الراهنة في الصراع العربي الصهيوني الممتد. وهي معركة بدأت في صيف عام ٢٠٠٠ مع مباشرة مفاوضات الوضع النهائي في عملية التسوية الجارية. وقد خطط لها التحالف الاسرائيلي الامريكي منذ صمم العملية واطلق عليها اسم «سلام الشرق الأوسط» وباشرت الادارة الامريكية تنفيذها في مؤتمر مدريد في ١٩٩١/١٠/٣٠.

هدف التحالف الاسرائيلي الامريكي الرئيسي في هذه المعركة هو اغتصاب الحرم القدسي الشريف وفرض السيادة الاسرائيلية عليه. وقد تجلى هذا الهدف بجلاء في مفاوضات كامب دافيد الثانية التي جرت بين يومي ١١ و٢٠٠٠/٧/٢٥، كما اوضحنا في حديث سابق.

لايزال طرفا التحالف المعادي يخوضان هذه المعركة بشراسة. فالطرف الاسرائيلي الصهيوني يشن حرباً على الشعب العربي الفلسطيني في فلسطين المحتلة في محاولة لإنهاء انتفاضته المباركة دفاعاً عن المسجد الاقصى والمقدسات الاسلامية والمسيحية ولإنهاء الاحتلال الاسرائيلي للضفة والقطاع. وهي حرب صهيونية عنصرية فاشية شاهد العالم فصولها يومياً من خلال ما تنقله الفضائيات التلفزية منذ سبعين يوماً. والطرف الامريكي الطاغوتي لايزال يدعم حكومة باراك الاسرائيلية في هذه الحرب على مختلف الصعد بالسلاح والمال والدبلوماسية في مجلس الأمن والجمعية العامة وخارجهما. وتكشف التقارير عن أن الرئيس كلينتون لم يتخل بعد عن افكاره الضالة بشأن الحرم القدسي التي طرحها في كامب دافيد وعن طلبه من رئيس السلطة الفلسطينية نقل

المسجد من مكانه لتمكين الاسرائيليين الصهاينة من اقامة هيكل هناك في مكانه، على الرغم من الغضب العربي والاسلامي الذي واجهه. بل إنه عمد إلى ارسال سياسيين من دول أخرى لاقناع رئيس السلطة بهذا الأمر.

* سؤال يبرز أمامنا ونحن نخوض هذه المعركة فلسطينياً وعربياً واسلامياً هو

لماذا هذا التركيز الاسرائيلي الامريكي على اغتصاب الحرم القدسي الشريف بالذات؟ والاجابة عليه تسهم في حثنا على عصر كل اوراقنا وحشدها لكسب المعركة.

العدو الصهيوني يلبس جريمته هذه وحربه الغاشمة ثوباً دينياً، فيعبىء اليهود في التجمع الاسرائيلي وفي مختلف اوطانهم الغربية على شعار اعادة بناء هيكل سليمان ويسمى الحرم القدسي «جبل الهيكل»، ويعبىء مع اليهود ايضاً اتباع كنائس مسيحية صهيونية منتشرة في الولايات المتحدة بخاصة. وحليفه الامريكي ينساق على صعيد ادارة الرئيس كلينتون مع هذه التعبئة. وجل اعضاء هذه الادارة يهود صهاينة كما يتضح من الكشف الذي يضم اسماءهم. ولا يخفى رئيسهم تأثره بهم.

ثلاثة اسباب حقيقية وراء هذا التركيز على اغتصاب الحرم

السبب الأول اقتصادي وقد كشف الرئيس كلينتون عنه في حديثه في البيت الأبيض الذي نقلته جريدة اوتادا ستيزن الكندية يوم ٢٠٠٠/١٢/١، وأشار فيه إلى أن «الموقع» ويقصد الحرم «سيصبح مقصد السياح الأكثر مردوداً في التاريخ»، وهو يحاول اقناع الأخ ياسر عرفات بنقل المسجد منه. والحق أن العدو الاسرائيلي بمحاولة فرض سيادته على الحرم القدسي وعلى القدس القديمة داخل السور بمساجدها وكنائسها يريد أن يتحكم ويسيطر على الحج المسيحي اليها وعلى زيارة المسلمين اليها لتقديس حجهم. وهذا يعني ثروة طائلة مالية تأتي من اتباع الدين المسيحي والدين الاسلامي فضلاً عن السياحة العالمية.

السبب الثاني سياسي يتمثل في جعل القدس القديمة هذه بمكانها المتميز وبتاريخها الممتد عاصمته «الأبدية»!! (على حد زعمه) يتحكم منها في عواصم دول المنطقة جميعها. وقد روى سياسي لبناني بارز أثناء لقاء في الأمم المتحدة بعد الاجتياح الاسرائيلي للبنان عام ١٩٨٢، كيف قام مناحيم بيجين رئيس الوزراء

الاسرائيلي آنذاك بدعوة الرئيس اللبناني الاسبق كميل شمعون للقدوم إلى القدس، فإذا به كما كتب شمعون في مذكرات نشرها بالفرنسية، يتصرف معه وكأنه الملك سليمان وكأن شمعون أحد ملوك «الغوييم» «الأميين» القادم من صور لتقديم الولاء والخضوع لملك اسرائيل الجديد. وتكفي هذه القصة لشرح هذا السبب الذي يتجسد في نظام الشرق الأوسط. ذلك النظام الذي سعت الولايات المتحدة لفرض على المنطقة وعملت من اجل ذلك على تجميد النظام العربي بغية انهائه.

السبب الثالث متصل بالصراع الحضاري فاغتصاب الحرم القدسي والسيادة على المقدسات الاسلامية والمسيحية في بيت المقدس يرمز إلى انتصار الغرب الحضاري على الحضارة العربية الاسلامية، ويلبي عند قوى الهيمنة الغربية «عقدة حقد تاريخي» يحملونها في نفوسهم على هذه الحضارة منذ هزمت قبل ثمانية قرون الغزو الفرنجي. كما يلبي لديهم هدفاً معاصراً هو ايقاف مدّ الصحوة الحضارية العربية الاسلامية التي اقلقتهم في العقدين الماضيين ودعت امين عام حلف الاطلسي أن يصرح بعد انهيار الاتحاد السوفييتي في مطلع التسعينات أن حضارة الاسلام هي العدو الذي يتهدد الهيمنة الغربية. وقد ذكرنا في حديث سابق كيف عبرّ اللنبي البريطاني وغورو الفرنسي عن عقدة الحقد التاريخي تلك حين دخل الأول القدس ودخل الآخر دمشق.

* سؤال آخر يبرز أمامنا، ونحن نستحضر حقيقة أن اليهود لم يثيروا أمر اعادة بناء الهيكل قبل قيام الحركة الصهيونية.

متى بدأ التحالف الاستعماري الصهيوني تخطيطه لاغتصاب الحرم القدسي الشريف؟

الحق أنه اذا كانت المعركة الراهنة قد خطط لها هذا التحالف منذ الشروع في عملية التسوية التي اطلق عليها اسم «سلام الشرق الأوسط» عام ١٩٩١، فإن تخطيطه لاغتصاب الحرم بدأ مع دعم بريطانيا الاستعمارية للحركة الصهيونية حال قيامها اواخر القرن التاسع عشر. وقد تولى باركر البريطاني عام ١٩١١ رئاسة بعثة بريطانية لاجراء حفريات في منطقة الحرم، وفلسطين لاتزال جزءاً من الدولة العثمانية، ولكن عمليات البعثة فشلت نتيجة رد الفعل المحلي الفلسطيني واثارة القضية في مجالس المبعوثان العثماني. وتروي لنا أ.د. خيرية قاسمية في بحث متميز نشره الاتحاد البرلماني العربي

عام ١٩٩٨ مع معهد البحوث والدراسات العربية قصة هذا التخطيط ومحاولة الشروع في تنفيذه إثر احتلال بريطانيا لفلسطين أواخر الحرب العالمية الأولى. فتحكي لنا كيف وصلت بعثة صهيونية برئاسة حاييم وايزمن إلى الاسكندرية في ١٩١٨/٣/٢٠ ومنها إلى القاهرة فالقدس فيافا. وكيف هيأ حاكم القدس العسكري ستورز البريطاني استقبالاً حافلاً لها وعهد إلى اورمبسي غور بمرافقتها، وكان فيها عضو من اسرة روتشيلد المرابية. وقد ركزت هذه البعثة على ثلاث قضايا الأولى انشاء جامعة عبرية في القدس، والثانية تسليم حائط المبكى في الحرم القدسي إلى اليهود، وثالثها مشروع تملك اراضي. وتمضي خيرية قاسمية في بحثها فتعرض للضغوط الشديدة التي مارستها بريطانيا على أهل فلسطين العرب مسيحيين ومسلمين وصمودهم امامها ومعارضتهم للمخطط الصهيوني الاستعماري. وقد دعمت هذه المعارضة القوية كلايتون رئيس قلم المخابرات في مقر القيادة العامة للقوات البريطانية الذي اصبح أهم الأجهزة المنفذة للسيادة البريطانية في الشرق العربي، إلى أن «يتوقع مصاعب كثيرة «بشأن القضية الثانية التي هي موضوع حديثنا، «فحائط المبكى يقع إلى جوار مسجد عمر، والممتلكات التي تقع باشرة أمام حائط المبكى منوطة بوقف المغاربة». وقد كتب كلايتون للندن قائلا «إن اية محاولة من جانب اليهود للحصول على ملكية الموقع ستثير موجة احتجاج تستغلها دعايات الأعداء». وأشار إلى أن الحاكم العسكري ستورز فاتح المفتي الشيخ كامل الحسيني بشكل خاص، فعارض تماماً اجراء أية محاولة. وانتهى إلى أنه من غير المرغوب اتخاذ أي اجراء حول هذا الأمر في الوقت الحاضر.. ويمكن النظر به ثانية عند ظهور فرضه مؤاتية في المستقبل. وتذكر خيرية قاسمية في بحثها القيم أن كلايتون ذكر في رسالة بعث بها إلى بلفور يوم ١٩١٨/٨/٣١ أن ستورز حاكم القدس العسكري حاول اقناع المسلمين بالفائدة التي يجنونها من ضمان مبلغ كبير لملكية ليس لها قيمة كبيرة على حد قوله، ولكنه واجه معارضة شديدة. وتتالت عرائض الاحتجاج وقامت مظاهرتان عدائيتان. وتضمنت عريضة باسم الجمعيات العربية الاسلامية بالقدس الطلب من الحاكم العسكري البريطاني «التخلي عن محاولات المقايضة لوقف أبي مدين (قرب المسجد الأقصى)» مؤكدين أنهم ومعهم جميع المسلمين قاطبة، لن يسمحوا بالمقايضة أو الاستيلاء على هذا المكان المقدس التقليدي الذي يلاصق جامع عمر.

ما أشبه اليوم بالبارحة ستورز البريطاني يغري الشعب العربي الفلسطيني بالمال ليقبلوا تسليم حائط البراق لليهود الصهاينة، وكلينتون الامريكي يغري رئيس السلطة الفلسطينية بالارباح الطائلة لينقل المسجد الاقصى من مكانه ويسلم بالسيادة الاسرائيلية على الحرم القدسي الشريف كله. والشعب العربي الفلسطيني يعارض أول مرة ويفجر ثورة البراق عام ١٩٢٩ مرة ثانية وينطلق في انتفاضة الأقصى هذه المرة دفاعاً عن مقدساته، وتسانده الأمة في الدائرتين العربية والاسلامية.

ليس لنا أمام الاسباب الحقيقية للمحاولة التي تقوم بها تل أبيب وواشنطن لاغتصاب الحرم القدسي الشريف. الا أن نخوض معركة الدفاع عنه بكل قوتنا فلسطينياً بمتابعة انتفاضة الاقصى حتى تحقق اهدافها المرحلية بالسيادة الفلسطينية على القدس الشرقية كلها وبتحرير الضفة والقطاع، وعربياً واسلامياً بتنفيذ مقررات القمة العربية الاخيرة وبيان القمة الاسلامية.

الانتفاضة مستمرة والتفاوض بدون مقاومة لايصلح ولايجوز

المعركة الراهنة لحماية المقدسات المسيحية والاسلامية في القدس ولمتابعة مواجهة جرائم الصهيونية العنصرية، تقتضي استمرار انتفاضة الأقصى والانشغال بتتبع مسارها وتصعيدها حتى تحقق هدفاً مرحلياً هو تحرير القدس الشرقية وأراضي الضفة الغربية وقطاع غزة وتخليصهما من المستعمرات الاستيطانية الصهيونية وارساء مبدأ حق اللاجئين الفلسطينيين بالعودة إلى ديارهم وتعويضهم وتحميل الكيان الاسرائيلي المسؤولية الاخلاقية والمادية لمعاناتهم.

واضح أن العدو الصهيوني يحاول بأقصى جهده إنهاء انتفاضة الأقصى. وقد اطلق يد مؤسسته العسكرية في تنفيذ الخطط التي وضعتها على أمل تحقيق هذا الهدف. وها نحن نتابع يوماً بعد يوم جرائمه على هذا الصعيد التي تتضمن قتل المدنيين وقصف الاحياء ومحاولة اقتحام بعضها مستخدماً الدبابات والحوامات والسفن أحياناً، فضلاً عن الحصار.

واضح ايضاً أن الانتفاضة رغم ذلك كله مستمرة، وهي توشك ان تكمل وقت كتابة هذا الحديث ثلاثة شهور كاملة، وشعبنا العربي الفلسطيني عازم على متابعتها حتى تحقق هدفها المرحلي. بعطائه السخي للتحرير. ولايزال التحول الذي شهده مسارها قبل شهر محدوداً باعتماد حد أدنى من استخدام السلاح ضد العدو، ولكنه قابل لأن يتزايد اذا لم يرعوِ العدو. ويبدو أن الاجتهاد الذي يرى ابقاء هذا التحول محدوداً يأخذ في الاعتبار تأثير الاستشهاد في صفوفنا على الرأي العام العالمي في عصر القنوات الفضائية، وقدرة الشعب على تحمل الحصار واستعداده للعطاء وتقديم الشهداء. كما يتحسّب هذا الاجتهاد من ردود افعال العدو الوحشية إن اصابته ضربات شديدة الايلام. ويبدو في

الوقت نفسه أن هناك اجتهاداً آخر يرى أن استمرار العدو في جرائمه سيجعل من الحتمي تصعيد المواجهة المسلحة في الرد عليه لأن جراح الأبطال من الشهداء والجرحى تنادي بمعاقبته، فضلاً عن اقتناع بأن التصعيد المحسوب ممكن واكثر فاعلية في الوصول بالعدو إلى التسليم بحقوق شعبنا.

جديد برز في الأسبوع الثاني عشر لانتفاضة الأقصى، هو الاعلان عن جولة أخرى من التفاوض تجري في واشنطن بدعوة من إدارة كلينتون التي توشك أن تودّع البيت الأبيض. ونقول الاعلان، لإن الاتصالات التي تسعى لانضاج عملية التفاوض لم تتوقف. وهذا الجديد الذي برز تضمن في طياته جديداً يحدث لأول مرة منذ مؤتمر مدريد قبل تسع سنوات، وهو ان يجري التفاوض بينما مقاومة الاحتلال بالانتفاضة مستمرة. وهذا يشير إلى أمرين: أولهما اقتناع القيادة الفلسطينية بأن هذا هو السبيل الصحيح لبلوغ حركات التحرير أهدافها، وهو ما طفقت جماهير الشعب تؤكد عليه، ودأب أهل الرأي على التذكير به قائلين «التفاوض دون مقاومة لايصلح ولايجوز، لأنه يوصل إلى الاذعان لاتفاقات تملي يفرضها العدو ويقنن من خلالها الاحتلال».

الأمر الآخر، وهو بالغ الأهمية، هو تسليم العدو بالتفاوض رغم استمرار الانتفاضة، وتخلّيه من ثم عن الشرط الذي كان يضعه لمباشرة عملية التفاوض، «أن يتوقف العنف» على حد تعبيره. وهذا الشرط صاغته قوى الطغيان والهيمنة ورفعت عقيرتها بإعلانه في كل مرة واجهتها فيها حركات التحرير، ثم رضخت للتخلي عنه حين تتمسك حركات التحرير بالمقاومة المسلحة التي هي حق شرعي في القانون الدولي لكل من احتلت ارضه، وهي قبل ذلك توجيه إلهي يتجلى في قوله تعالى «أُذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وان الله على نصرهم لقدير». ويتداعى إلى خاطري ما قرأته قبل سنوات لمحرر مجلة ايكونومست وهو يسفّه هذا الشرط علمياً بمناسبة ترديد الحكومات البريطانية له امام ثوار ايرلندة الشمالية، وجاء يوم وتخلى المستعمرون البريطانيون عنه، تماماً كما تخلت عنه امريكا حين فاوضت ثوار ڤيتنام في السبعينات، وفرنسا حين فاوضت ثوار الجزائر. وكم هو حيوي أن يستلهم المفاوض باسم حركات التحرير روح المقاومة وهو يفاوض، فلا يفرّط ولايلين ولايستسلم.

على الرغم من تسليم العدو بمبدأ التفاوض في ظل مقاومة قوى التحرير، فإننا نراه يصعّد حربه ضد انتفاضة الأقصى. واذا كان تردّد في الشهر الأول للانتفاض أنه يواجه

أحداث شغب، فإننا نسمعه اليوم يقول إنه يخوض حرباً ضدها. وقد وصف بيان القمة العربية الحالة القائمة في فلسطين «بأنها عملية حرب تشنها اسرائيل ضد الشعب الفلسطيني مستخدمة القوة العسكرية لحصاره وعزله». كما وصفها بيان القمة الاسلامية الذي تلا بأنها «حرب تشنها اسرائيل ضد الشعب الفلسطيني مستخدمة آلتها العسكرية من طائرات ودبابات وصواريخ وزوارق حربية وذخائر محرمة دولياً تزودها بها الولايات المتحدة الامريكية». والحق أننا نعيش هذه الحرب الاسرائيلية المدعومة امريكياً، وعلينا أن نكون متنبهين اقصى درجات التنبه لاحتمالات تصعيدها بتشديد الحصار على الشعب الفلسطيني وبتكثيف عملية اغتيالات القيادات الفلسطينية الشعبية وبضرب المدن والمخيمات وبتهديد الدول العربية والتلويح باستخدام مخزونها الحربي اشهاراً لسلاح الرد. وهذا ما ناقشه المفكر الاستراتيجي العربي د.هيثم الكيلاني في مقاله «عندما تفكر اسرائيل في الحرب» (جريدة تشرين ٢٠٠٠/١٢/١) وانتهى فيه إلى أن العرب وهم يفكرون في السلام ويعملون له لتحقيق هدف تحرير الأراضي المحتلة عام ١٩٦٧ ونصب عينهم السلام العادل والشامل لابد لهم «أن يأخذوا في الحسبان تلك الانذارات والتهديدات المتتالية التي تطلقها اسرائيل بين الفينة والآخرى. فالدفاع عن النفس حق مشروع».

ماهي أهداف العدو الاسرائيلي من عملياته الحربية اليومية التي يقوم بها؟ يبرز هذا السؤال ونحن نتابع أخبار هذه العمليات في الضفة والقطاع. ويتبادر إلى الذهن أن هناك فضلاً عن هدف محاولة اخماد انتفاضة الاقصى، والانتقام الحاقد من الشعب العربي الفلسطيني، فإنه يسعى لرسم خريطة على الأرض تمكنه من تثبيت مستعمراته الاستيطانية الكبيرة واحكام ربطها بكيانه توطئة لتنفيذ فكرة الفصل بينه وبين فلسطينيي الضفة والقطاع. وهي فكرة تجري مناقشتها في مختلف الأوساط الاسرائيلية وتتعدد آراء المستعمرين الصهاينة بشأنها وتختلف، وإن كانت تتفق على «حصر الفلسطينيين في «معازل» ست منها في الضفة واثنان في القطاع، يتحكم العدو في الطرق التي تصلها ببعضها»، ولا ضير بعد ذلك عند بعضهم من أن تحمل اسم دولة فلسطينية، ومطلوب بإلحاح في ضوء وضوح اهداف العدو هذه أن نتشبث نحن العرب على الصعيدين الشعبي والرسمي باستمرار الانتفاضة حتى تحقق اهدافها المرحلية كاملة.

سؤال آخر يبرز وقد بدأت هذه الجولة الأخيرة من التفاوض العلني، هو،

«ما هي احتمالات نجاح ادارة كلينتون في التوصل إلى اتفاق اسرائيلي – فلسطيني نهائي في شهرها الأخير في الحكم؟»

العدو الاسرائيلي يعلن صراحة أنه يريد ان يكون الاتفاق مُتَضمناً اقرار الطرف الفلسطيني بانتهاء الصراع العربي الصهيوني. والذي يمكن القطع به هو أن أي اتفاق يتم التوصل اليه في هذه الجولة لن ينهي الصراع، بل يدخله مرحلة جديدة. هذا إن أمكن ذلك. والاحتمال الممكن هو التوصل الى اتفاق للتهدئة حتى يخف التوتر في المنطقة وتتولى الادارة الامريكية الجديدة مسؤولياتها وتأخذ وقتاً في بلورة افكارها بشأن التعامل مع الصراع العربي الصهيوني.

واضح في ضوء ما سبق أن علينا أن نوطن انفسنا على تمكين انتفاضة الاقصى من الاستمرار والتصاعد. وهذا يعني أن نوفّر لها مستلزمات الاستمرار والتصاعد مادياً ومعنوياً. الأمر الذي يدعونا إلى طرح موضوع تنفيذ مقررات القمتين العربية والاسلامية. وقد انعقدت لجنة المتابعة الوزارية لمقررات القمة العربية يومي ١٠ و٢٠٠٠/١٢/١١ في دمشق. وهذا الموضوع يستحق حديثاً خاصاً.

الموضوع الآخر الذي يستحق التفاتنا هو أن نبلور افكارنا بشأن كيفية التعامل العربي مع ادارة الرئيس الأمريكي الجديد بوش الابن، في ضوء ما أسفرت عنه الانتخابات الامريكية الأخيرة من حقائق واحدة منها انكشاف الدور اليهودي الصهيوني فيها وتداعياته، ووجود استراتيجية امريكية تجاه الصراع يجب العمل من اجل تغييرها، وما للحزب الجمهوري من تراث في التعامل مع منطقتنا، وما لبعض خبرائه من اليهود الصهاينة، وان كانوا اقل من خبراء نظيره الديموقراطي، من قدرة على التغلغل بأفكارهم ووحاد منهم هنري كيسنجر وزير الخارجية في عهد الرئيس نيكسون. وقد أطل برأسه مؤخراً بمقال نشرته جيرواساليم بوست في مطلع شهر ديسمبر كانون أول ٢٠٠٠ ضمنه أفكاراً بشأن التعامل الامريكي مع الصراع في هذه الفترة في ضوء دروس تعامل ادارة كلينتون وهذا الموضوع يستحق حديثاً خاصاً آخر.

ها هي وكالات الانباء تنقل، ونحن على وشك انهاء هذا الحديث، نص مقترحات ادارة كلينتون الامريكية إلى كل من طرفي الصراع، التي بلورتها بعد جولة التفاوض الأخيرة. وهي تتناول الحدود والأمن، والأراضي، والمستوطنات، والقدس،

واللاجئين، والافراج عن المعتقلين الفلسطينيين وانهاء الصراع الفلسطيني الاسرائيلي. والقراءة المتأنية لها تنتهي بنا إلى أنها لم تخرج عن الورقة الاسرائيلية الامريكية التي طرحها كلينتون في كامب دافيد الثانية في أفكارها الرئيسة، وإلى أنها تسعى إلى تمكين الصهيونية العنصرية من الاحتفاظ بكل ما فرضه واقع الاحتلال من جهة ومصادرة جل الحقوق الوطنية الثابتة للشعب العربي الفلسطيني التي منها حق تقرير المصير وحق اقامة الدولة ذات السيادة وحق عودة اللاجئين، وحق تحرير فلسطين بكلمة جامعة. ولايملك المرء حين يسبر أغوار هذه المقترحات الا أن يردد «كيف يجرؤ الرئيس كلينتون على طرح هذه المقترحات المخالفة للقانون الدولي ولحقوق الانسان غير آبه بما ينتج عنها من ردود افعال عربياً واسلامياً ودولياً؟». وإن لنا أن نتوقع فشلاً ذريعاً لها، بل إن لنا أن نزداد تمسكاً باستمرار الانتفاضة مؤمنين بأنها السبيل لردع العدو الصهيوني وللرد على كلينتون الذي لم يأخذ عبرتها بعد ولم يضع في اعتباره ما قدمته على مدى ثلاثة شهور كاملة.

بقي أن نقول ما اكثر ما ينبغي أن نعمله عربياً واسلامياً وفاءً بواجبنا نحو انتفاضة الاقصى، ودفاعاً عن انفسنا في هذه الحرب الاسرائيلية الأخرى وازاء غطرسة القوة الامريكية، وتعبيراً عن عزمنا على تحرير القدس وفلسطين. واننا لقادرون على عمل الكثير بعون الله.

تقويم دعم الأمة لانتفاضة الاقصى

انتفاضة الاقصى مستمرة في مطلع عام ميلادي جديد وقرن جديد وألفية جديدة، لتعبرٌ عن ولادة جديدة أخرى لشعب عربي فلسطيني تمتد جذوره إلى فجر التاريخ مع شعوب أمته العربية التي شيّدت مع أمم أخرى الحضارة العربية الاسلامية، واحدة من أعظم حضارات الانسان.

وبينما تجري المعارك على أرض فلسطين بين «المقاومة» و«الصهيونية العنصرية» التي يشن كيانها الاسرائيلي حرباً اجرامية لإنهاء الانتفاضة، لاتزال الادارة الامريكية تحاول فرض حل عنصري لقضية فلسطين وضع رئيسها بيل كلينتون توقيعه عليه وقدمه في صورة مقترحات تستهدف الالتفاف على انتفاضة الاقصى و وأدها. وقد كشفت هذه المقترحات عن عملية خداع سياسي لاتجوز على «المقاومين»، وأكدت حقيقة صهيونية الرئيس الأمريكي بيل كلينتون بكل ما في الصهيونية من عنصرية وعداء للقانون الدولي ولقرارات الأمم المتحدة وحقد على الحضارة العربية الاسلامية. وسيتحدد مصير هذه المقترحات نهائياً يوم انتهاء ولايته في ٢٠٠١/١/٢٠. وعندها تكون وقفتنا في تقويم عهد هذا الرئيس الامريكي الصهيوني من منظور الصراع العربي الصهيوني.

ما يهمنا اليوم في المقام الأول هو استمرار الانتفاضة حتى تحقق هدفها المرحلي بتحرير الضفة الغربية وقطاع غزة. ولكي تستمر الانتفاضة لابدّ لها، فضلاً عن العطاء السخي الذي يقدمه أهلنا، دعم الأمة في الدائرتين العربية والاسلامية. ومن هنا تتجه انظارنا إلى الاجتماع القادم للجنة المتابعة الوزارية لمقررات القمة العربية الأخيرة، وتنفيذ هذه المقررات بعامة، وتحرك الأمانة العامة لجامعة الدول العربية على هذا الصعيد.

لقد سبق أن حددنا «المعيار الموضوعي» لتقويم القمة العربية، وقلنا إن عناصر

التقويم تتضمن سياق الانعقاد، والاستجابة لدعوة المشاركة، وخطابات رؤساء الوفود، والقرارات التي صدرت، ثم وهذا هو الأهم تنفيذ هذه القرارات. وفيما يخص سياق الانعقاد وضح لنا أن هذا العنصر يجعل انعقاد هذه القمة العربية حدثاً عظيماً في تاريخ النظام العربي والعمل العربي المشترك: لأنها اغادت للنظام العربي اعتباره من خلال المشاركة الجماعية لاعضائه فيها، والتمسك به، ومقاومة نظام الشرق الأوسط الاستعماري الصهيوني الذي حاول هذا التحالف فرضه منذ مؤتمر مدريد بعد زلزال الخليج بديلاً عن النظام العربي. وتتداعى إلى الخاطر فصول هذه المقاومة على مدى تسعة اعوام التي استهلها نفر من المفكرين العرب حملوا لواءها، ثم كانت قمة الاسكندرية الثلاثية علامة بارزة فيها آخر عام ١٩٩٤، ثم قمة القاهرة في مطلع صيف ١٩٩٦ بدون العراق علامة بارزة أخرى، وصولاً إلى هذه القمة بعد انتفاضة الاقصى. وكم كان أمراً عظيماً أن تخصص القمة ربع قراراتها لإعادة الحيوية للنظام العربي وإحكام آليته.

فيما يخص استجابة الدول الاعضاء للمشاركة، رأينا كيف كانت استجابة رائعة وعلى أعلى مستوى في الغالب الأعم. وهي استجابة كان للانتفاضة دور خاص فيها، وقبل ذلك لاستشعار اعضاء النظام حاجتهم الماسة اليه. وقد أدرك كل واحد منهم هذه الحاجة الماسة اثناء فترة الجمود الذي حل بالنظام. وأعلى من شأن هذه الاستجابة خطابات رؤساء الوفود في جلسة الافتتاح، حيث تضمنت هذه الخطابات معانٍ كريمة ومواقف جيدة، وتجلى فيها تأثير روح الانتفاض وما للاستشهاد من قدرة على الإحياء، انطلاقاً من حقيقة ان الشهداء أحياء عند ربهم يرزقون. ومن هؤلاء الشهداء الصبي محمد الدرة، الذي كانت صورته ماثلة وهو في حضن أبيه، أمام كل متحدث في القمة. وتستحق هذه الخطابات أن تحلل بنظرة نقدية موضوعية في حديث خاص.

جاءت قرارات القمة العربية لتعبرّ عن الجامع العربي المشترك بين الدول الأعضاء في النظام العربي، ولتصوغ موقفاً واحداً تجاه الصراع العربي الصهيوني وتسويته، وتجاه انتفاضة الاقصى ودعمها، وتجاه مقاومة تغلغل العدو الاسرائيلي ومعاقبته على جرائمه، فضلاً عن احكام آلية النظام العربي. وهكذا اعتمدت القمة العربية بالنسبة للصراع استراتيجية السعي للسلام العادل الشامل، وكانت قبل ذلك قد اعتمدت استراتيجية السعي للسلام بدون تحديد لمواصفاته الأمر الذي أُسيء فهمه. واتخذت قرارات لدعم

الانتفاضة بعد ان ادانت العملية الحربية الاسرائيلية. وجاءت قراراتها لمقاومة التغلغل الصهيوني ومعاقبة العدو على جرائمه لتشير إلى تطوير محمود في مواجهته. وكذلك جاءت قراراتها بشأن تقوية النظام العربي واعدة بتوفير قوة دافعة له.

جميع هذه العناصر في معيار التقويم الموضوعي للقمة العربية، دللت على أن هذه القمة حققت إلى حد ليس بالقليل ما كان متوقعاً منها، وان لم يبلغ ما حققته، طموح الأمة. وذلك على غير ما عممه اعلام العدو الصهيوني الغربي الذي عمد إلى تيئيس ابناء الأمة من جدوى اي عمل عربي مشترك، والحق أن ما أوجزناه في تطبيق المعيار لتقويمها يستحق تفصيلاً في مجال آخر لأن ما نركز عليه في هذا الحديث هو العنصر الأهم الباقي وهو تنفيذ قرارات القمة في أقسامها الأربعة. وهذا ما يجعل انظارنا تتجه إلى الاجتماع القادم للجنة المتابعة الوزارية لمقررات القمة العربية التي ذكر أنها ستجتمع في تونس يوم ٢٠٠١/١/١٠.

لقد سبق لهذه اللجنة أن اجتمعت في دمشق يومي ١٠ و٢٠٠٠/١٢/١١. ويوم ذلك حرص المعنيون بتقدم النظام العربي وبدعم الانتفاضة أن يتابعوا نتائج اجتماعها ليروا إلى أي مدى حدث تقدم على صعيد تنفيذ قرارات القمة. وبخاصة وأن تصريحات كثيرة كررت الحديث عن تأخر في التنفيذ وقصور فيه. وقد أحسنت وكالة الانباء السورية حين عممت توصيات اللجنة، بعدما ذكر أنها لن تعلن لأن الاعلان ضروري والمساءلة واجبة.

* كان من بين توصيات اللجنة التي درست تفعيل مكتب المقاطعة العربية ضد اسرائيل، أن تدعو الدول العربية لعقد اجتماع طارئ لمكاتب المقاطعة العربية في دمشق لهذا الغرض، والسعي لرفع الحصار عن الشعب الفلسطيني. فماذا تم بشأن الأمرين؟ وبخاصة وأن العدو ماضٍ في حصاره ونود أن يعُرف الرأي العَام بخطوات هذا السعي، وأن نسمع عن عودة الفعالية لمكاتب المقاطعة على الصعيد الرسمي، وعن متابعة المقاطعة التي تمت على الصعيد الشعبي بتلقائية.

لقد تحدثت توصيات اللجنة عن «دعوة الدول والهيئات والمؤسسات الدولية للعمل على انهاء سياسة الحصار التي تنتهجها اسرائيل ضد الشعب الفلسطيني وتسهيل دخول البضائع والمنتجات الفلسطينية إلى الدول العربية بأسرع وقت ممكن، ودعوة

وزراء التجارة والاقتصاد العرب لعقد اجتماع على مستوى نواب الوزراء لبحث الاجراءات العملية لتقديم شكوى إلى منظمة التجارة العالمية والمؤسسات الأجنبية الأخرى لوقف الاجراءات الاسرائيلية لحرية مرور السلع والمنتجات الفلسطينية». والتوصية اذا نظرنا اليها باعتبارها خطوة أولى، توصية جيدة، وأبناء الأمة يتطلعون إلى أن يعرفوا ماذا تم بشأن تنفيذها. فهل تمت دعوة الدول والهيئات والمؤسسات الدولية للعمل على انهاء سياسة الحصار؟ ومن هي هذه الدول؟ وماذا كان جواب كل منها؟ ماذا قال الاتحاد الأوروبي بالذات الذي ارسل مندوبه ليحث منظمة التحرير الفلسطينية على قبول اقتراحات كلينتون العنصرية؟ ماذا قالت الولايات المتحدة الامريكية التي لاتزال تتمسك بزعم كونها «راعي عملية سلام».. وماذا قال آخرون؟ وهكذا.. لأن من الضروري معرفة هذه المواقف، وحفظها في سجل تاريخ الصراع، واخذها بعين الاعتبار في العلاقة بهذه الدول على الصعيدين الرسمي والشعبي. والأسئلة نفسها تثور بالنسبة للاجراءات العملية التي تتخذها دولنا لتقديم شكوى إلى منظمة التجارة العالمية ومثيلاتها لوقف الاجراءات الاسرائيلية المتخذة لتعطيل حرية مرور السلع والمنتجات الفلسطينية.

اننا نتطلع إلى اجوبة تصدر عن اجتماع اللجنة القادم، وحبذا لو أن الأمانة العامة لجامعة الدول العربية انتظمت في اصدار تقرير شهري عما تم تنفيذه عملياً من قرارات القمة العربية، فهذا من مهامها، وهو ايضاً سبيل لتعزيز الثقة الشعبية بالنظام العربي وبها، وهو مطلوب كي يستنير به العمل الشعبي العربي. وقد تطرقت توصيات اللجنة الوزارية في اجتماعها السابق إلى تنفيذ قرار الدعم المالي للانتفاضة «وضرورة التزام الدول العربية بتحويل ما اعلنته من اسهام في صندوقي الانتفاضة والقدس»، و«تنفيذ ما قررته القمة بتقديم الدعم المالي للبنان لمساعدته في اعادة الإعمار». وما اكثر ما تدين به الأمة للبنان الغالي ومقاومته العظيمة. وكذلك اوصت اللجنة «بتقديم ورقة عمل للخطوات التنفيذية المطلوبة لتشكيل لجنة من خبراء القانون الدولي لمتابعة قرار القمة العربية بشأن محاكمة مجرمي الحرب الاسرائيليين وملاحقتهم». فما الذي تم بشأن هذه التوصيات المباركة؟

الاجابات التي نتطلع إلى معرفتها من خلال اللجنة والأمانة تمكننا من تقويم الدعم الرسمي العربي للانتفاضة بغية تأمين استمراره حتى يحقق نضال شعبنا هدفه المرحلي. ويبقى أن نولي موضوع الدعم الشعبي للانتفاضة عناية خاصة، ونفرد له

حديثاً خاصاً، لنحيط أولاً بأشكاله وحجمه مادياً ومعنوياً انطلاقاً من كون الأمة تخوض معركة أخرى في هذا الصراع العربي الصهيوني الممتد. ولتقوم المنظمات الشعبية ثانياً بوضع خطة شاملة لتوفير انتظام هذا الدعم الشعبي. ولافت أن الحديث بهذا الشأن تردد في عدد من الأقطار العربية في وقت واحد. وقد أقرت الأمانة العامة للمؤتمر القومي العربي في اجتماعها يومي ١ و٢٠٠٠/١٢/٢ اقتراحاً «بتشكيل هيئة عربية عليا للمتابعة والتعبئة لتنسيق النشاطات العربية الداعمة للانتفاضة في فلسطين، وأن تكون نواتها رؤساء الاتحادات النقابية العربية، ومن بعض الفعاليات، وأن تكون هيئة مستقلة شاملة». وقد لاحظت في الحديث عن الدعم الشعبي في عدة عواصم عربية تأكيد من يردده من اهل الرأي على ضرورة أن يتكامل مع الدعم الرسمي ويتناغم، وينال منذ البداية تفهّم الحكومات وموافقتها بل ومباركتها لأننا في هذه المعركة نقف جميعاً رسمياً وشعبياً في صف واحد في مواجهة الصهيونية وقوى الطغيان التي تدعمها، ولابد أن نصل بسفينتنا الواحدة إلى شاطئ النصر، مدركين أنه أياً كانت نتيجة محاولات كلينتون فإن الصراع مستمر وقد دخل بانتفاضة الاقصى مرحلة جديدة.

فلنوطن النفس اذاً على أن النضال مستمر، وعلى أن تتابع الأمة رسمياً وشعبياً دعم انتفاضة الاقصى ونصب العين قوله تعالى «وقفوهم انهم مسؤولون».

دار المنار للطباعة
ت : ٢٤٢٧٢٣٧١ الزيتون - القاهرة

هذا الكتاب

- "انتفاضة الأقصى وتفجر الحل العنصرى لفلسطين" كتاب آخر يصدر في مقاومة الحل العنصري لقضية فلسطين. هذا الحل الذي يحاول التحالف الاستعماري الصهيوني (الأمريكي الإسرائيلي) فرضه على أمتنا في الدائرة العربية وفي دائرة الحضارة الإسلامية عبر عملية تسوية أطلق عليها اسم "سلام الشرق الأوسط"، وباشر السير فيها منذ مؤتمر مدريد يوم ٣٠ / ١٠ / ١٩٩١ في أعقاب زلزال الخليج.

- يأتي صدور هذا الكتاب في مطلع عام ٢٠٠١ الميلادي، شوال ١٤٢١ الهجري، في الشهر الرابع لانتفاضة الأقصى التي بدأت يوم ٢٨ / ٩ / ٢٠٠٠ وأحدثت تفجراً في الحل العنصري. وقد ضمَّنتُ الكتاب ما كتبته منذ مطلع عام ١٩٩٩ في معالجة تطورات الصراع العربي الصهيوني، وفيما يخص عملية التفاوض حول ما سمي بقضايا الوضع النهائي الأربعة: القدس واللاجئون والمستوطنات والحدود (أرضاً ومياهاً)؛ ثم انتفاضة الأقصى وتفاعلاتها وتداعياتها.

- بصدور هذا الكتاب أكون قد استكملت معالجة تطورات الصراع العربي الصهيوني على مدى عقد من السنين بين عامى ١٩٩١ و ٢٠٠١ طوال مرحلة دقيقة من مراحله التي تلت زلزال الخليج، وكانت لها سماتها؛ وأصدرت فيها قبله أربعة كتب: في مواجهة نظام الشرق الأوسط، لا للحل العنصري في فلسطين، أزمة الحل العنصري لفلسطين وسبيل تحريرها، والخطر يتهدد بيت المقدس. ودلائل كثيرة تتالت مؤخراً تشير إلى أن هذه المرحلة آذنت بالانتهاء، لتبدأ مرحلة جديدة في هذا الصراع الممتد الذي لا بديل فيه عن تحرير فلسطين والقدس.